فقهُ لغَة

العربيَّةُ الفُصْحَى

(مُرونتُها - وعقلانِيّتُها - وأسبابُ خُلودِها)

الدكتورُ عودةُ اللهِ مَنِيعٍ القَيْسِيُّ

دار البداية
ناشرون وموزعون
www.daralbedayah.com

فقه لُغَةٍ

العربيَّةُ الفُصْحى

(مُرونَتها – وعقلانِيَّتها – وأسبابُ خُلودِها)

المؤلِّفُ

الدكتورُ – عودةُ اللهِ مَنِيعٍ – القَيْسِيُّ

دار البداية ناشرون وموزعون

الطبعةُ الأولى

١٤٢٨هـ / ٢٠٠٨م

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (٢٠٠٧/٦/١٥٩١)

٤١٠,١
القيسي ، عودة الله .
لغة العربية الفصحى : مرونتها ، عقلانيتها ، اسباب خلودها / عودة الله منيع القيسي .
_عمان: دار البداية ، ٢٠٠٧ .

(   ) ص
ر.أ: (٢٠٠٧/٦/١٥٩١) .

الواصفات: / فقة اللغة // اللغة العربية /
* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية.

(ردمك) ٩٧٨-٩٩٥٧-٤٥٢-٣٨-٤

الطبعة الأولى
٢٠٠٨م – ١٤٢٩هـ

دار البداية ناشرون وموزعون

عمان - شارع الملك حسين - مجمع الفحيص التجاري
هاتف: ٤٦٤٠٦٧٩ - تلفاكس: ٤٦٤٠٥٩٧
ص.ب ٥١٠٣٣٦ عمان ١١١٥١ الأردن

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ
ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَـلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ
﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾

[الشعراء: ١٩٢- ١٩٥]

إهـــداء

إلى الذين يتكلمون الفُصحى (أو الفصيحةُ، ولو مسكّنةً)، أو يجتهدون في أن يتكلموها (عندما تكون القدرةُ على تَعَلُّمها، والتكلّمِ بها – مُمكنةً)، وإلى الذين لا يَقْدرون، لأنهم لم يتعلموا (فليس الذّنبُ ذنْبَهُم، وإنما ذنبُ الظروف – لا كأولئك الذين يتكبّون التكلُّمَ، وخاصةً وهم يتكلمون للناس، في أبواب الدين، خادمين بذلك الاستعمارَ الجديدَ – الاستعمارَ الأمريكيَّ، وخادمين الشيطانَ، مُقابل (**لُعاعةٍ" من الدّنيا**).. علماً أن الفُصحى دخلت اليوم كلَّ بيت، ويفهمها كلُّ عربي.

– إلى هؤلاء، وهؤلاء وأولئك.. أُهدي هذا الكتاب الذي يُجلّي شيئاً من عَظمة الفُصحى – الرّبانيةِ الخالدةِ.

كلمة:

نزهةٌ لغويةٌ مع العالمين:

الدكتور. عَودةُ اللهِ القَيسيُّ

والدكتور. إبراهيم السامـــــرائي

إشارة من الأستاذ جورج حداد:-

تفضل الدكتور عَودةُ اللهِ مَنيعٍ القَيسيُّ، وهو أحد علماء اللّغة، فأرسل الرِّسالة التالية يعلق فيها على مُلاحظات الدكتور إبراهيم السّامرائي التي كان أبداها لصاحب هذه الزاوية. وتعميماً للفائدة.. فقد رأينا أن ننشرها على أمل أن تجد من الغُيُر أو.. (الغيورين) ما تستحق من اهتمام.

وللأستاذين العالمين كلُّ محبة وتقدير.

رسالة د. القيسي

الأخ الأستاذ جورج حداد المحترم

تحية طيبة مباركة – وبعدُ:

أرفق بهذه الكلمة مقالتين قصيرتين: الأولى عن النسبة إلى "حياة" والثانية عن جمع "غَيور" ومؤنّثها. وهاتان الكلمتان عرض لهما أستاذنا الدكتور إبراهيم السّامرائي، وذلك.. في جريدة الدستور السائرة، في زاويتكم (على الدرب) في الصفحة الرابعةَ عَشْرَةَ ليوم الأربعاء ١٥/١١/٢٠٠٠م. وأنا لي رأي آخر في هاتين الكلمتين أوضحته في هاتين المقالتين الصّغيرتين، أرجو أن يُجيلَهُ بخاطره أستاذنا السّامرائي وغيرُهُ من علماء اللّغة، فما أردت إلا مصلحة هذه اللّغة ومصلحة المُتكلّمين بها.

د. عَودةُ اللهِ مَنيعٍ القَيسيُّ

١٦/١١/٢٠٠٠م

النسبة إلى حياة:

يرى أستاذنا الفاضل أن النسبة إلى: (حياة) هي: حَيَوِيّ، وأنا أرى أن الأفضل أن تكون النسبة إلى حياة هي: **حياتي لا حيويّ**، وذلك للسّببين التاليين:

أ – إذا نسبنا إلى حياة فقلنا "حيوي"، فماذا تكون النسبة إلى: حيّ؟ إنها: حيوي أيضاً، وبذلك يختلط المعنيان، فلا نستطيع أن نُفرّق في: "حيوي" أهي نسبة إلى الحياة أم إلى الحيّ؟ ومن المعروف أن اللّغة العربيّة تميل إلى أن يكون لكل معنىً لفظٌ مستقلّ، أما ترانا نقول: (عين) للعين المبصرة فنجمعها على "عيون"، ثم نقول: عين للرجل الوجيه، فنجمعها على "أعيان"؟ جمعان مختلفان لكلمة واحدة من أجل أن يدل كل منهما على معنى.

ب – أستاذنا يعرف أن النّسبة – خاصةً – دخلها كثير من التغيير – لنقترب من الموضوع –: **سيبويهِ** يقول في (الكتاب): تكون النِّسبة إلى "**بَعْلَبَكّ**": بعليّ، ولكن الجمهور لم يَعُدْ يستعمل هذه النِّسبة، وإنما يُنْسَبُ إلى كامل التركيب، فيقول: بعلبكيّ، وممن نُسِبَ بهذه الصورة الكاتبة المعروفة: ليلى بعلبكّي. وأُستاذنا يعلم أن مجمع اللّغة العربيّة في القاهرة قد أقرّ أن **يُنْسَب إلى الجمع، على رأي الكوفيِّين، عندما تكون النِّسبة إليه أوضح، وأدق في أداء المعنى**، فنقول مثلاً: **دَوْلِيّ** – بتسكين الدال – عندما ننسب إلى الدولة الواحدة، ونقول: **دُوَلِيّ** – بفتح الدال – عندما تكون النِّسبة إلى جمع من الدول. وسيبويه والبصريون عامّةً يرون أن النِّسبة إلى الاسم المركب تكون إلى الجزء الأول، ففي رأيهم عندما ننسِب إلى "بَيْتَ لَحْمَ" تقول: بيتي، ولكن الاستعمال، خلال العصور، سواء أكان استعمال الأدباء والكتاب أم استعمال الجمهور، قد تجاوز ما قرَّره البصريون، فنسبوا إلى (بيتَ لَحْمَ) على "**تلحميّ**"، وبذلك يكونون قد نسبوا إلى الجزء الثاني وحرف واحد من الجزء الأول مُخالفين نُحاة البصرة.

وقد نشرت مقالة في مجلة "**الضاد**" في العدد الثالث منها، لشهري نيسان وحزيران من عام: ٢٠٠٠م وأوردت فيها كثيراً من الكلمات التي بُنِيَت على الخروج على قواعد النِّسبة التي قرَّرها البصريون، وكان عنوان المقالة: "**النِّسبةُ اللُّغويةُ المراوغةُ**"، فهي مُراوغة لأنها لم تستسلم لما قرَّره النُّحاة البصريون الذين

يُدَرَّسُ نحوهم، دون خرم واحد – للأسف–، في مدارسنا وجامعاتنا، مع أن نسبة عشرين بالمئة منه قد تجاوزتها العصور المتتالية. والحق أن نحوَ الكوفيين، في كثيرمن المسائل – أصَحُّ من رأي البصريين. لأن الكوفيين عرب، في أغلبهم، والبصريون، في أغلبهم، فرس. فكان تذوقهم للغة، وإحساسهم بجمالها، دون إحساس الكوفيين بل –إن سيبويهِ– الفارسي خالف أستاذه الخليلَ ابنَ أحمدَ العربي. فكان سيبويه –أول– مَن كان عقبةً، في طريق (فِقْهِ) النّحْوِ، وبقاء العربية على مرونتها التي عهدناها في الجاهلية وصدر الإسلام، لقد أغلق الرجل الباب على مشروع أستاذِهِ التنويري الواعي لطبيعة اللغة، وأنها تحيا وتتطوّر، بقبول الظواهر اللغوية العامّة – وقبول الظواهر اللغوية النادرة، وكلٌّ لها مجالها، وكلٌّ لا تُغني عنها غيرها. فكان كلما قال: (وزعم الخلي – رحمه الله) – رافضاً لما قَبِلَهُ الخليل – وجاء له بتعليل ودليل. ذلك للفرق بين ذوْق العربيّ – الصميم– للعربية– وذوق الفارسيّ– لها– المنحدر من حضارة مترهلّة جفّت العقول فيها عن العطاء والإبداع.

أما جمع "غيور" ومؤنثه فله كلمة أخرى.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله على سيّدنا محمد وعلى سيدنا عيسى، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين.

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ۝٢٦ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝٢٧ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ۝٢٨﴾ [طه- ٢٨].

وسبحانَ الذي شرّف اللّغة العربيّة بنزول القرآن الكريم بها. وبعْدُ:

فهذه مجموعة من المقالات والبحوث كَتَبْتُ معظمها خلال هذين العامين المنْصرمين (١٤٢٢- ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢- ٢٠٠٣م) وسميتُها (**مُرونةُ العربيّةِ – وعقلانيّتُها وأسبابُ خُلودُها**). ونهجتُ فيها نهجاً يختلف عن نهج الكتب "**الأكاديمية**" التي تقوم على منهج "تقليدي" **يقلّد فيه كُلُّ خَلَفٍ سَلَفَهُ**، من غير أن يُضيفَ شيئاً جديداً. إن دأْبَ هذه **الكتب "المدرسيّة"** أنْ تَجْمعَ وتُصنِّفَ حشداً ضخماً من المعلومات يستهلِكُ جُهْدَ الباحث، من غير أن يضيف شيئاً، وفي واجهة هذا الكتاب رسائل الدكتوراة التي يحذُو فيها كُلُّ باحث حَذْوَ من سبقه، بل يهتمُّ المشرفُ - عادةً – على رسالته بتفصيلات **"المنهج" وليس "بالفِكْرِ"**، ولذلك يَعِنُّ لك أنْ تقرأ رسالة (حتى بعد أنْ تُطبعَ في كتاب) فإذا هي خِلْوٌ من الفكر تقوم على حشد هائل من المعلومات إلى حَدِّ "التُّخَمَة"! (ويجوز.. التخْمة).

ولو أخذنا كتاباً من أشهر كُتب فقه اللّغة الحديثة.. وهو **كتاب الدكتور صبحي الصالح العالم الشهير** – رحمه الله – **"دراسات في فقه اللّغة"**.. لوجدناهُ يحاول أنْ يُصنِّف وأنْ يستوعبَ آراء القُدامى من دون أنْ يُضيف شيئاً يُذكر. مثلاً: **في الباب الأول** – يتحدث عن: فقه اللّغة – نشأتُهُ وتطوُّرُهُ. وفي **الباب الثاني** - يتحدث عن: العربيّة بين أخواتها السّاميّات – . وفي **الباب الثالث** – يتحدث عن: خصائص العربيّة الفُصحى. مثل: مقاييس الفُصحى، وظاهرة الإعراب، ومُناسبة حروف العربيّة لمعانيها، والمُناسبة الوضعيّة، وأنواع الاشتقاق،

والنّحت أو الاشتقاق الكُبّارة[1]، والأصوات العربيّة وثبات أصولها، واتّساع العربيّة في التعبير، وتعريب الدّخيل. وفي كُلِّ ذلك يتكئ على من سَبَق.

ولو تَصَفّحْتَ عَشَرَةَ كتب في فِقْهِ اللّغة لوجدتها تعرض إلى هذه الموضوعات، دونَ أنْ يكون لأحدٍ منها رأيٌ مُبتكر.. إنَّ بعضها ينقل الأفكار والمعانيَ عن بعض، مع اختلاف الصّياغة، فكلٌّ يعبِّر بلغته عن هذه المعاني والأفكار. أمّا المَنْهج العام فواحد عندهم كُلِّهمْ. إلاقِلّةً، منهم: إبراهيم مصطفى – وإبراهيم أنيس، على الرغم من أن آراءهما فيها تطرُّف.

ولكنَّ الذي يكتب مقالاتٍ وبحوثاً تكونُ "رَدَّ فِعْلٍ" واقعياً في التّعامل مع اللّغة أو مع كتاباتِ الآخرين (كما فعلتُ أنا في هذا الكتاب) لا يكتفي، غالباً، بنقل أفكار السّابقين بل يُضيف أفكاراً وحلولاً جديدة، معتمداً – إلى جانب المعاجم – على مبادئ فقه اللّغة وقواعد الصّرف، بحيثُ "يُخَرِّجُ" تخريجاتٍ مُبْتكرةً. مثلاً في هذا الكتاب.. في مقالة (الفُصحى والحضارة وجريدة الرّأي) رَدَدْتُ على من ادّعى صعوبة الفُصحى، وعلى من ادّعى أنها ستنتهي إلى ما انتهت إليه الجرمانيّة، فقد أمستْ الجرمانيّة خاليةً من الإعراب.

– وفي مقالتي التيَ رَدَدْتُ فيها على المرحوم السّكاكيني الذي قَدَّم تَصَوُّراً ساذجاً لمراحل تطوّر اللّغة العربيّة.. بيّنت أن العربيّة لم تأتِ على مراحل؛ مرحلة للأفعال وأخرى للأسماء. وفي هاتين المرحلتين لم تكُنْ (مُعْرَبةً)، ولكن أُعْرِبَتْ في مرحلة ثالثة. ذلك.. لأن اللّغة كائن عضوي ينبثق عن كائن عضويٍّ حيٍّ، هو الإنسان. ولهذا فهي تتولّدُ، ككلّ كائن حيّ، ذاتَ نسيج مُتكامل.. اللّفظ والمعنى، والتركيبُ والحركاتُ كلها تنبثق جملةً واحدة.

---

(١) أنا أراهُ الاشتقاق الأصغرَ. لأنه لا يُستعملُ إلاّ قليلاً، نظراً لما فيه من صعوبة، لأنه نحتٌ لكلمة واحدة من كلمتين أو أكثر مما يُخفى أصول الكلمات. وذلك يؤدي إلى غموض المعنى الجديد. والاشتقاق الكُبّار في رأيي يجب أن يكون الاشتقاق الرئيسيَّ الذي ينصرف إليه الذّهن عند ذكر كلمة (الاشتقاق). ومثالُهُ: كَتَبَ كاتب مكتوب كتابة مكتبة مكتب كتيبة.. الخ. لأنه هو الاشتقاق الرئيسيُّ في توالد الألفاظ الجديدة من الألفاظ القديمة. أما النّحْتُ فهو الاشتقاقُ الأصغر، لأنه الأقلّ استعمالاً.

– وهكذا.. في سائر المقالات والبُحوث.. لم أكتب شيئاً إلاّ إذا رأيت أني أُضيف به جديداً إلى التَّفقُّهِ بالعربيّة الفُصحى.

– وهذا.. شأن يختلف عن شأن البحوث "المدرسية" التي يكتبها المُصنِّفون بعقل "بارد". وهذا البرود هو أحدُ الأسباب التي تجعل البحثَ خالياً من الإبداع أو من الرّأي الجديد، أو النظرات الشخصيَّة الجادَّة – التي تحاول أن تقدم جديداً.

– إنَّ الذي يمارس النَّقد اللّغويَّ كالذي يمارس النَّقد الأدبيَّ. يَصْعُبُ أنْ يُبدعَ دون أنْ يقرأ مَناهِجَ النّقد – اللغويِّ أو الأدبيِّ، أو كثيراً منها، ثم.. يستعلي عليها جميعاً، فيأخذُ ما يُناسب موضوعَهُ ويتركُ ما لا يُناسبُهُ، من دون أن "يُحشَرَ" نفسه داخل قالبٍ مدرسة بعينها. أذكرُ قبلَ بضع سنوات، أنَّ أحدَ الشعراء أهداني ديوانَهُ، وقد أقبلتُ عليه وأنا أنوي أنْ استخلصَ القِيمَ الأدبيّة التي تجلّتْ فيه، واستشهدَ منه على كلِّ قيمة ببضعة أبيات، بَيدَ أنّني عندما بدأتُ القراءةَ وجدتُني لا أحتاج إلى أنْ أتجاوزَ القصيدةَ الأولى منه، لكي أكتُبَ مقالةً. فقد كانت هذه القصيدة غاصّةً بالمُلاحظات "السَّلبيَّة" فَوَجَدْتُ في ذلك فرصةً لأُعَرِّفَ الشاعر كيف يتعاهد شعرَهُ حتى لا يخرجَ من القصيدة إلاّ وقد اطمأنّ أنه كتب شعراً مقبولاً. وهل في ذلك من عجب؟ أمَا كان زُهيرٌ يُحكِّكُ قصيدتَهُ حَوْلاً كاملاً، قبل أنْ يُذيعها في الناس؟ ولذلك سُمِّيَتْ قصائدُهُ (الحَوليّات). وتصادَفَ أنَّ أحد الأساتذة كان قَدَّمَ لهذا الديوان وَمَدَحَهُ فغاظتْهُ ملاحظاتي. فكتَبَ مقالةً يرُدُّ عليَّ فيها، يرى فيها أنَّ النّقدَ لا يستقيمُ على الطريقة التي – أنا – سلكتُ، وإنما يجب أنْ نبدأَ بالعُموم ثم ننتهي إلى الخُصوص حسبَ نظريّة "الجشتالْت"! بيْدَ أني رددتُ عليه.. وأَبَنْتُ له أنّ هذا المَنهج الذي يَراه، يمكنُ أنْ يُطبّقه هو على تلاميذه الذين ستتشتّتُ أفكارُهُمْ ويَضِلّون إذا لم يَتْبَعوا "منهجاً" مُحدَّداً صارماً.. أمّا من مضى عليه، وهو يمارس النّقد ثلاثين عاماً وأزْيَدَ، فلا يجوز لكَ أن تحشُره في قالَبِ نظريّةٍ.. ما، بل هو يتصرّف تَبَعاً "لمفتاح" النّصِّ الذي يُعالجُهُ.. فقدْ يبدأ من الكلّ إلى الجزْء، وقد يبدأ من الجزء إلى الكُلّ. بل قد يقف عند الكُلِّ فلا يتجاوزُهُ أو عند الجزء فلا يتجاوزُهُ. لأن الاختيارات أمامَهُ كثيرةٌ ومفتوحةٌ لا يُرَجِّحُ أحدَها على غيره إلاّ طبيعةُ النَّص، وليس أيَّ نظريّة نقديّة سابقة. ومِثْلُ

الأدبِ اللّغة.. فطبيعةُ الموضوع المُعالَج هي التي تُوَجِّهُ إلى الطريقة التي يُعالجُ بها، وإلى المراحل التي يُدخلُ إليه منها.

– أمّا نظريّة (الجشْتالْتْ) – فهي تصلح إلى حد كبير أن تُطبق على الأشياء التي لها نموذج واحد، أو قَوام واحد. كالإنسان، وكَكُلٍّ نوع من الحيوانات. فالإنسان له هيكل عامّ واحد. وكل نوع من الحيوان – كالأسد، والجمل.. – له هيكل عامّ واحد. ولذا.. فنحن يسهل علينا أن نميّز من بعد كيلُوَيْنِ مترين – مثلاً – أن المقبل، أو الواقف هو "إنسان" أو – أسدٌ، أو فيلٌ". ثم نتعرفه – أكثر – كلما اقترب، حتى نعرف أنه رجل أو امرأة. فإذا دنا أكثر، وأصبح على بُعدِ أمتار عرف أنه سعيد، أو سليم. إذا كنت تعرف سعيداً هذا، وسليماً هذا.

بيدَ أنّ الكلمات ليس لها هيكل عامّ واحد، فكلّ كلمة.. ولها هيكلها الخاصّ بها. ولهذا.. فشلت نظرية (الجشْتالْتْ) فشلاً ذريعاً، عندما طُبِّقت في (تعليم اللُّغات).

– ومثل اللُّغات.. الأدبُ؛ فحتى القصيدة – العمودية – مع أن أبياتها تتشابهُ في الشكل العامِّ.. غير أن كل بيت له كيانهُ الخاصّ؛ فكلمات كلِّ بيت تختلف عن كلمات البيت الآخر، ومعناه مُفارق لمعنى البيت الآخر، وحتماً موسيقاه "الداخلية" هي ذات نَغَمٍ خاصّ. فكيف بقصيدة التفعيلة التي – لكل بيت فيها – شكل خاصّ، وطول خاصّ؟ بل – ذلك ينطبق على المقالة، والقصّة، والرِّواية؛ فليس من مقالة تناظر مقالة، وليس من قصة تشابُه أخرى. وليس من رواية تشابه رواية.. بل – **إذا كان الاختلاف في الهيكل قائماً بين الكلمات.. فهو أشدّ وأعقد في الأعمال الأدبية**، لأن الأعمال الأدبية أكثر تعقيداً عشرات المرّات من الكلمات. ومن هنا.. **فالتفكير بنقد الأدب بمنهج نظرية (الجشْتالْتْ) عَمىً فكريٌّ، وقتلٌ للأدب والنقد – معاً.**

– وقد قسّمت هذا الكتاب أربعة أقسام – يسبقها "تمهيد"، ويتبعها "خاتمة" قصيرة. وهذه الأقسام هي:

١ – كيفَ يتعلّمُ الإنسانُ اللّغة؟

٢ – اللّغة العربيّة الفُصحى.. لغةٌ إلهاميّةٌ.

٣ – التعرُّفُ[1] على عبقريّةِ اللّغة العربيّة الفُصحى – من خلال الاشتقاقِ، وتوليدِ المعاني.

٤ – اللّغةُ العربيّةُ والتعريبُ – والنظرُ المعاصرُ فيها.

– بدأنا بالطريقة التي يتعلّم بها الإنسان اللّغة، وبكيفيّة تخزينها في الدِّماغ، وأن الإنسان يستطيع – بالنَّماذج – اللّغوية القليلة التي يُحَصِّلُها.. أن يُولّد – على غِرارها – ما لا يُحصى من الجُمل. لأن "التفقّه" في ذلك.. مُقدَّم على كل معرفة أخرى عن اللّغة.

– ثم.. ثنَّيْنا بمعرفة طبيعة اللّغة الفُصحى، لأنه لا بُدَّ من معرفة أن الفُصحى، وإن كانت حقيقة تشكُّلها في الدِّماغ.. لا تختلف عن اللُّغات الأخرى، غير أن ذلك لا يُقلل من التأكيد بأنها "إلهامية"[2]، لأن المُعجزات كلها.. **لا تتمُّ خارج إطار**

---

(١) – تَعَرَّفَهُ، تعرَّفَ عليه، تعرَّف إليهِ.- بعضُ اللُّغويين يقولون: "تعرَّف الشيءَ، ولا يجوز غير هذا النسق مع "تعرّف" كتعرّف عليه أو تعرّف له أو إليه". قُلتُ: الوجوهُ الثلاثة صحيحة. ولكنَّ لكلٍّ معنىً خاصاً.

- فما هي هذه المعاني؟
- إذا قلتَ: تعرّفتُ الشيءَ، فمعنى ذلك أنك عَرفْتَهُ بصفاتِهِ، سواءٌ سبقَ لكَ أن رأيتهُ، **وجرى على صفاتِهِ لاحقاً تغيير،** أم لم يسبقْ لك أن رأيتهُ. قال الشاعرُ: "وقالوا: **تعرَّفها المنازل من مِنى- وما كلُّ من وافى منىً أنا عارفُ**. أي: اعرفها من صفاتها، أو وبعد غيابك عنها وقتاً، حتى طرأ تغيُّرٌ على صفاتها. ومثلُ الأشياء.. الأشخاصُ.

ولكن، متى نقول: تعرَّفَ عليه؟

- عندما يلقى زيدٌ سعيداً، فيطلب زيدٌ من سعيد ان يُعَرِّفَهُ بنفسه، فيقومُ سعيدٌ بذلك.. فقد تَعَرَّفَ زيدٌ عليه.
- ومتى نقول: تَعَرَّفَ إليه؟
- عندما نعكس الوضع السابق: يَلقى زيدٌ سعيداً، فيقول زيدٌ: أنا أُعرِّفُكَ بنفسي، أنا زيد، أعمل كذا وكذا، وأنا من بني فلان. بهذا يكون زيد قد عَرَّفَ نفسه لسعيد، أيْ: تَعَرَّفَ إليه. ويجوز أن يقول: استعرف إليه. نقول: أنت فلاناً فاستمرفْ إليه حتى يعرفك، أو فتعرَّفْ إليه حتى يعرفكَ. فاستعرف وتعرَّف تؤديان نفس المعنى تقريباً.

على هذا إذن.. تَعَرَّفَهُ، وتَعَرَّفَ عليه، وتَعَرَّفَ إليه.. كلها صحيحة. ولكن لكل مِنهُنَّ معناً خاصٌّ، يستدعيه وضعٌ خاصٌّ.

(٢) كتبتُ ثلاثة بحوث في مجلة (هدْي الإسلام) – الأردنية (الأعداد – ٥ – ٦ – ٧) لسنة – ٢٠٠٥م- بيّنت فيها – بالدليل – أن اللغة العربية – إلْهامية. وقد أوردتُ هذه البحوث الثلاثة، في القسم – الثاني – من هذا الكتاب.

"قوانين" **فِعْلِ الأشياء الطبيعية**.. كلُّ ما الأمر أن الفِعْلَ المُعجز – مكثَّف – عشرات المرات (وربما مِئاتها) مُقارنةً بقوة الفِعل العاديّ، أو كثافته. ولهذا.. فالفُصحى تجري على القوانين نفسها التي تتكوّن بها اللُّغات، ولكنّها ذات فِعْل أكثفَ. وهذا سبب خلودها، وتحوُّل غيرها من لُغات الدُّنيا إلى صورة لغة أخرى، كلٌّ بضعة قرون.

– والتقريرُ بأنَّ الفُصحى إلهامية.. يقتضي التعرف على عبقريّة اللّغة العربيّة، التي تُعطينا اليقين أنها لغة تفوق غيرها من اللُّغات حقاً، فهي إلهاميّة ولذا.. تناولنا جانباً من عبقريّتها، وهو قدرتها الفائقة على الاشتقاق، وتوليد المعاني.

– ثم.. أنهينا هذه الأقسام الأربعة.. بما يُشير إلى أن من حياتِها، وقدرتها على النموّ والتجديد.. أنها قادرة على التعريب من اللُّغات الأخرى، بسهولة ويُسر وإحكام عبارةٍ، ومعنى.

– فتكاملت بذلك كُلِّه.. صورة للفُصحى.. تُقنع أنها لغة خالدة.. ألْهمها الله تعالى العربَ، لكي تكون مُؤهَّلةً لحمل الكتاب الخالد – القرآنِ المجيد.

– ولقد كان عنوان التمهيد (**فَرَضِيّةُ الشُّعوب السّاميّةِ، واللُّغات السّامية – فرضيّةٌ خُرافيةٌ، لا أصلَ لها**) – قَصَدْتُ مِنه أن أبدأ المُتلقّى **"وعْيٍ"** توقظُه على أنّ كثيراً من الباحثين من العرب والمسلمين إنما يتلقّونَ ما يقولُهُ المستشرِقون – بغفلةٍ – ودون تَدَبُّرٍ، أو تَفهُّم أو تفكُّرٍ. فهذه الفَرَضيةُ الخُرافية ردَّدها كلّ الكُتَّاب الذين عرضوا إلى أي موضوع له علاقة بأصل اللّغة، أو أصل العرب..! – مع أنها – كما ترى في البحث نفسه – ليس لها ولا دليل واحد يسنُدها. إنها فرضية أطلقها هاوٍ (ولا أقول: عالم) نمساوي اسمه "أوغست لوديك شلوتْسرِ" عام ١٧٨١م – واستند في – افتراضها – على التوراة المُحرَّفة، لأنها تذكر أن نوحاً – عليه السلام – خلّف ثلاثة أبناء هم: سامٌ، وحامٌ، ويافثُ. فالعربُ – سكّانُ الجزيرة العربيّة، والهلال الخصيب، واليهودُ – بزعمِهِ – هم من أبناء "سام" هذا. **بَيْدَ أنَّ هذا الزَّعم لم يُؤيّدْ، ولا في أيِّ مكانٍ آخر، غير التوراة المحرّفة.**

– وقد توالى المُستشرِقون على تكرار هذا الزَّعم، حتى لا يجرحوا مشاعر اليهود، بل – حتى يَدْعموا مقولة "السّاميّة" التي تخدُمُ اليهودَ – وَحْدَهُم – ثم..

تبعهم – للأسف الشديد – الكُتّابُ من هؤلاء العرب والمسلمين – الذين "يُفكّرون" ليفهموا، ويُخزّنوا في الذّاكرة – ولكنْ لا "يتفكّرون" ليضيفوا إلى الفهم والتّخزين.. البدءَ بالشّكّ – والتعمّق – ومَيْز السمين من الغثّ..

– وهذا التمهيدُ.. ليس "مُلتحماً" بمادة الكتاب التحام السبب بالنّتيجة، وإنما هو قائم على علاقة – القاعدة – بما يُبنى عليها. وهي لها هدفان رئيسيّان – الأولُ.. أن يتحسَّس كُلُّ باحث رأسَهُ عندما يقرأ خبراً، أو يقرأ فِكراً فيسألَ – بحساسية عالية – أهذا الخبرُ له مجال في الصّدق أم ليس له؟ وإذا كان يقرأ فِكراً (أو يسمعه) أهذا الفِكر (أو الرأيُ) له مجال في الصِّحة أم ليس له؟

– لذلك.. لأن ثلاثين بالمئة تقريباً، من أخبار التّاريخ، والرِّوايات التي تُساق عن الأحداث الصَّغيرة والطّرائف "كاذبة" (والكذب في التفاصيل أكثر من الكذب عن الصورة العامّة للخبر) – وإنها لكذلك، بسبب تَلبُّس الهوى والرَّغبة بها، وبرواياتها.

– والهدف الثاني.. أن يصل المتلقي إلى "رُؤيَةٍ" مُفادُها: أنّ العرب هم عربٌ أقحاح من الجزيرة العربيّة، منذ عُصور ما قبل التّاريخ. وليس لهم أيُّ علاقة بخُرافة "السّاميّة".

– وأن اللّغة العربيّة الشريفة، لغة القرآن الكريم.. ليس لها علاقة بخرافةِ السامية، وإنما هي لغة "ألهمها" الله تعالى العرب، في شمال الجزيرة العربيّة إلهاماً، ولم ينتجْها البشرُ/ العربُ بالتّواضع. ألْهمهم.. أصولها التي لا تتغيّر – والتي يُبنى منها كلُّ ما يأتي من فروع تتنامى مع الأيام.

– مِصداق ذلك، وأدلّتُهُ في البحوث الثلاثة – التي قام عليها القسم الثاني – التي أوضحتُ فيها (لأسباب كثيرة) أنَّ هذه اللّغة الفُصحى هي إلهام، لا مواضعة واصطلاح. وقد نشرت هذه البحوث في مجلة (هدْي الإسلام) – كما أشرنا في الهامش آنفاً.

– في القسم الأول.. (بعد بحث السّكاكيني الذي أشرنا إليه، آنفاً) كان التعليق على نظريّة – نحوم تشومسكي – والتقريرُ بأن زُبدتها وردت عند الإمام

عبد القاهر الجرجاني، من عُلماء القرن الخامس (ت - ٤٧١)، وعند المُفكّر المعروف ابن خلدون، من عُلماء القرن الثامن (ت - ٨٠٨).

– ثم.. عَرَّجت على الكتاب الذي عَرض نظريّة تشومسكي، في اللّغة، ولم يُنبّهْ مُؤلّفَهُ إلى سَبْقِ هذين العالمين المُسلمين – هذا المؤلّفَ الغربيَّ "وصاحبُ الكتاب الذي عرض النظريّة هوَ – المرحوم الدكتور خليل أحمد عمايرة – وعنوانُ كتابه (في نحوِ اللّغة العربيّة – وتراكيبها) وقد وجدنا فيه بعض ما لم نَرْضَ عنه في باب اللّغة الفُصحى (واللُّغات عامةً)، وباب الفكر اللّغويِّ، وستجدُ ملاحظاتنا على هذا الكتاب، في المقالة الثانية، على أن مُؤلّف الكتاب.. اجتهد، وقدّم نظرات كثيرة صائبة.

– **وفي الموضوعات الثلاثة الأولى من القسم الثاني** جَلَّيْتُ فيه مَقُولةً قديمة، وهي أن الفُصحى "إلهامية" بَيْدَ أن القدامى – رحمهم الله – لم يُدَلّلوا على ذلك. سوى بالآية التي تقول: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] فأعانني الله تعالى على القيام بهذه المهمة، تحليلاً وتدليلاً.

– **وفي القسم الثالث**.. تناولت سبع كلمات، جعلت تحليلي اللّغويّ الفقهي لها.. دليلاً على عبقريّة اللّغة العربيّة الفُصحى، في باب الاشتقاق – وتوليد المعاني. وهذه الكلمات هي الآتية: فرَجَ – سررَ – لَقِحَ – شَمَّتَ – طاحَ – عَنَدَ – مَقَلَ.

– **وفي القسم الرابع**.. نظرنا في كتاب (اللّغة العربيّة والتعريب) في مقالتين: الأُولى – قدّمنا فيها بعض الأفكار التي لا تتّفق مع أفكار الكِتاب المُشار إليه، والثّانية – عرضنا فيها لبعض ما رأيناه لا يتفق مع فصاحة العربيّة، مع إكبارنا لصاحب الكتاب. وفي مقالة ثالثة.. تناولنا مُغالطات وَرَدْدنا عليها – بالدليل – "**قدّمها**" كاتب لم يُعرَفْ عنه – **التَّفقّه في اللّغة** – وكان قد أرسل القول فيها إرسالاً، مُعترضاً فيها على ما كنت أكتبه لسنة ونصف من مقالات في (**فقه اللّغة**) تحت عنوان (**اللّغة والحياة**) في جريدة (**الدستور**) وكنت أتوخّى أن استبصر في الاستعمال اللغوي، **وأن أقدّم في كل كلمة أعالجها شيئاً جديداً لم يَرِدْ في الكتب**، والحقّ – عندي – أن الذي يُلقي – أحكاماً – بلا دليل إنما هو

جاهلٌ عاميُّ العقل، أو مُغرِضٌ يريد أن يُشَوِّش على الآخرين، ليس أكثر، حسداً من عند نفسه، وقصوراً عن بلوغ مرتبة المُبدعين.

– ثم.. في مقالة رابعة.. صَحَّحْتُ (أو عدّلْتُ) ما ورد من أفكار غير دقيقة، يغلب عليها الأحكام العامّة التي تجانب الاستقراء الذي، إذا أُخذَ به، يضع الأشياء في نصابها، ويُعدِّل الأحكام العامّة التي لا تلتفت ذات اليمين، وذات الشمال لترى أن هناك أشياء أخرى.. يجدر أن يُنظَرَ إليها، وأن يكون لها اعتبارها في النظر، إلى جانب ما هو بؤرة التحديق – أصلاً.

– ويجدر بنا أن نُولي الملاحظات الثلاثَ الآتيةَ العناية الكافية:

١ – كلمة (ابن) تكتب، وفي أولها ألف أينما وقعت. وقد علّلنا لذلك في هامش البحث.

٢ – عَمْرٌ: كتب دون (واو) أينما وقعت، ويُفَرَّقُ بينها وبين عُمَرَ بفتحة على العين، وضمة على عين عُمَرَ. وقد علّلنا لذلك خلال البحث.

٣ – (ماءاً وسماءاً واستفتاءاً) وما شابهها تُكتب، بعد الهمزة، ألفاً عليها تنوين فتح في حالة نصبها (من غير (أل) التعريف ولا إضافة). فهي لا تختلف عن (باعاً، كتاباً، إحساناً) إلخ.. لأن الهمزة ليست ألفاً وإنما هي حرف صامت كالعين في – باعاً – والباء في – كتاباً – والنون في – إحساناً.

وهذه الحالاتُ الثلاث جزء من دعوة للإصلاح الإملائي وتبسيطه، – الإصلاح الذي يجب أن ينسحب على كلّ وَضْعٍ شاذٍّ ليس لشذوذه عِلّةٌ مُعْتَبَرَةٌ.

وختاماً: لقد حاولتُ جُهدي ألاّ أَتّكئَ على الآراء الجاهزة والأقوال المُعادة، وإنما أُضيف جديداً إلى ما سَبَقَ من آراءٍ وأقوالٍ.

ومن البديهيِّ أنْ أكون قد عثرتُ أحياناً، ولكنَّ تصويب هذه العثرات إنما هي مسؤوليةُ المُبدعينَ من النُّقاد اللُّغَويِّينَ الآخرين، وليس المقلدين، فكما خَطّأتُ الآخرين قليلاً.. فأنا أتقبلُ بصدرٍ رَحْبٍ تخطئة الآخرين لي – على أنْ تكون التخطئة، ليست تقوم على (الجُزاف) وإنما تقوم على التحليل والتعليل، والإنصاف.

– واللهُ المُستعان، وهو مالك الأمر والشأن.

فرغتُ من إعداده في ١١/ شوال: ١٤٢٤هـ ١١/٧/٢٠٠٣م

– وكانت طبعته الأولى في:

١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م

عنوان المؤلف

عمّان / مرج الحمام / مكتبةَ (أمّ القُرى)

هـ – ٥٧١١٠٤٨

هـ – ٠٧٩/٦٤٨٠١٥٥

الإيميل:

Dr.Awdat – Allah@.Yahoo.com.

تمهيد

فَرَضِيَّةُ (الشعوب السّاميّة، واللُّغات السّاميّة)

فرضيّةٌ خُرافِيّةٌ لا أصلَ لها

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾

[الحجرات:٦]

فَرَضيّةُ الشعوب الساميَّةِ، واللغاتِ الساميّة
فرضيةٌ خرافيةٌ – لا أصلَ لها(*)

توطئة:

قد تستغرب، أخي القارئ، عندما يقال: إنَّ فرضية الشعوب السّاميّة، واللُّغات السّاميّة.. فرضية خُرافية لا أصل لها! وأنت معذور في هذا الاستغراب، لأنك تسمع هذا الإنكار لوجودها، لأول مرّة. ولكنها الحقيقة، كما يتبين لك، من خلال هذا البحث!

- وأنت تذكر أن المعتصم – الخليفة العباسي – قرَّر أن ينتقم لشرف امرأة مُسلمة، رفع عِلْج من عُلوج الرّوم ثوبها عن جَسَدها، فقالت: وا مُعتصماه! مُستغيثةً بالمعتصم. وقد استدعى المُعتصم المُنجمين، ليرَوْا: متى يستطيع أن يفتح عَمّورِيّة – بَلَدَ ذلك العِلج؟ فقالوا: لن تفتح قبل نُضج التين والعنب!

- بَيْدَ أنّ المُعتصم ضَرب بكلامكم عُرض الحائط، فأعدّ جيشاً وتوجّه لعموريّةَ في سنة ثلاث وعشرين ومئتين للهجرة، ففتحها، وحرّقها، وسجّل هذه الواقعة العظيمة الشاعر العباسيّ العظيم – أبو تمام في قصيدته البائيّة المشهورة. ثم.. عَرَّج على المنجِّمين، فسخر من علمهم، فقال:

..أينَ الروايةُ، بل أين النجومُ وما ... صاغوهُ من زُخْرُفٍ فيها ومن كَذِبِ

تَخَرُّصاً، وأحاديثاً مُلفّقةً ... ليست بِنَبْعٍ، إذا عُدّتْ، ولا غَرَبِ

- وأنا أقول كما قال أبو تمام: إنّ ما زعمه العلماء الغربيون المهتمون بالبلاد العربيّة وباللُّغات "العربيّة" هو كتنبُّؤ المنجّمين للمعتصم.. **ليس إلا "تخرُّصاً وأحاديثاً مُلفّقة"**. حقيقة لا يمكن دَحْضها.

كيف تكشّفت لي هذه الحقيقة ومتى؟

– قبل أربعة أشهر تقريباً كنتُ أُعِدُّ لموضوع طرقه بعض لغويينا القُدامى، وهو أن **العربيّة "الفُصحى" إلهامية، وليست اصطلاحيّة.** بَيْدَ أنهم اكتفوا بإحساسهم أنّ الفُصحى لُغة عظيمة لا يمكن أن تكون من صُنع البشر. وأنا – بعد اطلاعي على

(*) كُتبت سنة – ٢٠٠٥.

كثير من قواعد العربيّة، ومن قوانين فِقهها – اقتنعت، معهم، أنها "إلهامية". ولكنّي رأيت ألا أكتفي بهذه القناعة، غيرَ مُدلّل عليها تدليلاً عِلمياً. فأخذت أبحث في كتب (فقه اللّغة) – إضافة إلى كُتبِ النّحو والصّرف.

وفي إحدى الأمسيات كنت أقرأ في كتاب: (دراساتٌ في فقهِ اللّغة – للمرحوم الدكتور صبحي الصالح). فقرأت العبارة الآتية: (والتسميةُ.. لم تُخترع اختراعاً، فهي مُقتبسة من الكتاب المُقدّس الذي ورد فيه أن أبناء – نوح – هم سامٌ وحامٌ ويافثُ، وأنه من سُلالتهم تكوّنت القبائل والشعوب)[1].

ويقصد بالتسمية تسمية شعوب هذه المنطقة (أيْ: الجزيرة العربيّة، والعراق، وسوريا الكبرى) "بالشّعوب السّاميّة" ولغاتها "باللّغات السّاميّة"!!

فطَرَقَتْ عقلي.. "فكرةٌ": هَبْ معي أن[2] هذا القول لم يرد إلا في التوراة.. أنصدّقه ونأخذ به ونعتمده؟ والتوراة.. غير موثوقة عندنا، لأن رسولنا – صلى الله عليه وسلم – يقول: "**لا تُصدّقوا أهلَ الكتاب ولا تكذّبوهم. وقولوا: آمنّا بالله، وما أنزل**"[3]. أيْ: ما أنزل من التوراة والإنجيل، قبل التّحريف وما أُنْزل من القرآن الكريم الذي حفظه الله تعالى من التّحريف.

والتوراة.. غير موثوقة لثلاثة اعتبارات: الأول – ما ورد في القرآن مثلُ قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة: ٧٩].

والثاني – قول رسولنا الأعظم.. السابق.

والثالث – أن التوراة غيرُ مُوَثَّقة[4].. أولاً – لما ذكر القرآن من تحريفها.

---

(١) صبحي الصالح – دراسات في فقه اللّغة – ٣٦، دمشق/ مطبعة الجامعة، دمشق – ١٩٦٠م.

(٢) هبْ أن.. ما ورد في المعاجم العربي هو تعدية (هبْ) بدون (أنّ)، أي: هب هذا القول. وقد خطّأ الرافعي.. طه حسين باستعماله (هبْ أنّ). بيد أني لا أرى ذلك خطأً، لأن _هبْ) تضمنت معنى (افرض)، وافرض تليها (أنّ). والكلمة إذا تضمنت معنى كلمة أخرى أخذت حكم هذه الأخرى. وهذا.. كثير في اللّغة، فهو قانون لغويّ.

(٣) البخاري – محمد بن إسماعيل – صحيحه – ٩٥٣/٢، اليمامة/ بيروت/ دار ابن كثير – ١٤٠٧/ ١٩٨٧.

(٤) غير موثوقة.. شيء، وغير موثّقة.. شيء آخر، فغير موثوقة: لا يُوثَقُ بما ورد فيها. وغير مُوَثّقة: لم يُتّبعْ الأسلوب العلمي في روايات أخبارها.

وثانيـاً – لأنهـا لم تكتـب إلا بعـد وفـاة موسـى – عليـه الـسلام – بـسبعة قـرون!
(لاحظْ.. أن الحديث النبويّ الشّريف كُتب جُلُّهُ، بعد وفاة رسولنا - صلى الله عليه وسلم – بقرن إلى قرنين.. ومع ذلك.. فيقال جمع البخاري – رضي الله عنه – مئة ألف حديث. ولكنه لم يُثبت منها في (صحيحه) إلا ستة آلاف حديث، ونيّفاً. أيْ: لم يَثبت إلا ستة بالمِئة مما جمع (٦٪). فكيف بكلام لم يُدوّن إلاّ بعد سبع مئة سنة؟).

– هذا.. فضلاً عن أن الحديث "مُوَثّق" بسلسلةُ رُواة، والتّوراة ليس لها سلسلة رواة! ومع هذا.. فلا يزال نقاد الحديث يجدون بعض الأحاديث – الضّعيفة أو الموضوعة، في صحيح البُخاري.. إما لضعف في سلسلة الرواة، وإمّا لأن متن الحديث.. فيه قَولانٌ.

– وفوق هذا.. فقد كُتِبَ معظم التوراة، واليهود في السَّبيْ، في العراق، مما جعل كثيراً من الأقوال والخُرافات الآشورية، والبابلية والسُّومرية.. تتسرَّب إليها!.

– أبعد هذا.. يصحُّ أن تُتَّخذ أخبار التوراة مصدراً "موثوقاً" إذا لم تدعَمها مصادر أخرى؟ طبعاً..لا يصحّ.. إلا إذا دعمتها مصادر أخرى، والمصادر الأخرى.. لا تدعمها.

– وإنَّ المصادر الأخرى التي نبحث فيها، لأنها مظانٌّ قد نجد فيها شيئاً يدعم هذا الخبر بالذات، (وهو أن أبناء نوح عليه السلام، هم: سام، وحام، ويافث) – هي أربعة:

١ – القرآن الكريم.

٢ – الحديث النبويّ الشّريف.

٣ – التاريخ القديم.

٤ – النُّقوش التي استخرجتها الحفريّات.

١ – القرآن الكريم:

ما ورد في القرآن الكريم.. يُشير إلى أن ذُريّة نوح – عليه السلام – هم الباقون: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الصافات: ٧٧] دون أن يذكر القرآن أسماء ذريته أو أسماء بعضهم. ثم.. هم الباقون من "قومه" وعلى "التغليب" لا من جميع الأقوام. بدلالة أن الله تعالى قال: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [هود: ٣٦ - ٣٧]. والمُغرقون هو الذين لم يؤمنوا من

– قومه – بدلالة قوله تعالى: ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ﴾ وبدلالة أنّ الصينيّين والفُرس لم يسمعوا بهذا الطوفان. (أنظر د. سعد زغلول – تاريخ العرب قبل الإسلام – ٨٣).

– قلت: (وعلى التغليب).. لأن الله العليم الخبير يقول في سورة (الإسراء: ٢ ، ٣): ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾. فهذا "يعني أن موسى – عليهالسلام – وبني إسرائيل، من ذريّة المؤمنين ذريّته هم الباقين) – **من باب التغليب** ، لأن ذريّة مَنْ حُمِل معه كذريته هو، لأن المؤمنين إخْوَة. وإخوة ذريته هم من ذريته كذلك.

– ولأن الله تعالى يقول – مرة أخرى – : ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ۝٥٨﴾، والحديث، هنا، عن النبيين.

والنبيون هم – هنا – من ذرية آدم، وممن حُمِل مع نوح (وليس من ذرية نوح) ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل. فالأغلب، من منطوق هذه الآية، أن الأنبياء كانوا من ذرية آدم، ومن ذرية من حُمِل مع نوح (وليسمن ذرية نوح) ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل – عليهم السلام، جميعاً.

– وإذن "وجعلنا ذريته هم الباقون" من قومه، معنى التغليب – كما أسلفنا. وهذا.. **يُضعِّفُ** القول بأن نوحاً له أبناءٌ ثلاثة هم: سامٌ، وحامٌ، ويافثُ. وُكلٌّ منهم جدٌّ لأقوام من البشر، لأن الأقرب إلى ما يُعتبر أن الأقوام من سلالة الأنبياء – كما كان أصل الناس من سلالة آدم – عليه السلام، وإذن – نوح .. له أبناء: (وجعلنا ذريته..) لكي تعينهم بثلاثة هي الأسماء التي سبقت .. **فخبرٌ ضعيف جداً** – لم يَرِدْ إلا في التوراة – أصلاً. ثم أخذه المؤرخون – غفر الله لهم – عن التوراة، من دون تحقيق أوتوثيق، **وما أكثرَ ما نقلَ المؤرخون أخباراً كاذبة، لا أصلَ لها "موثوقاً – ومُوَثّقاً"** ولم يورد القرآن لنوح إلا ابناً واحداً دون أن يُسمّيَهُ. وقد غرق في الطوفان.

٢ – **الحديث الشريف**

– **استدعيت بواسطة الحاسوب مادة (سام، حام، يافث) فلم أجد إلا حديثاً واحداً "موضوعاً"**[١]. ضعَّف أحد رجاله يحيى ابن معين والبخاري – رحمهما الله – والرّاوي المُضعَّف هو: محمد ابن يزيد بن سنان. ثم.. راوٍ آخر هو: يزيد ابن سنان. قال البخاري: مقارب الحديث[٢]. ولكن ضعَّفه يحيى ابن معين وجماعة[٣].

والراوي المُضعَّف لا يُؤخذ بالحديث الذي يكون هو واحداً من سلسلة رواته، إلا إذا رُوِيَ الحديث من طريقة أو طرق الأخرى. وهذا الحديث لم يُرْوَ من طريقة أخرى.

– والحديث هذا الموضوع هو: "وَلَدُ نوح.. سام وحام ويافث. فولد سام العرب وفارس والروم. والخير فيهم، وولد يافث.. يأجوج ومأجوج، والترك والصقالبة، ولا خير فيهم. وولد حام.. القبط والبربر والسودان"[٤].

– وهذا الحديث مردود **"متناً" أيضاً**، فلماذا العرب والفرس والروم.. الخير فيهم؟ ولماذا الترك والصقالبة.. لا خير فيهم؟ إنّ الواقع **"يُكذِّب"** هذا.فليس العرب والفرس والروم خيراً من الترك والصقالبة. والرسول – الصادق الأمين العادل – لا يقول مثل هذا أبداً. ثم.. إنَّ الفرس والروم.. جنسان مختلفان، الفُرس شرقيون والروم غربيون، فليسوا من أصل واحد. إن واضع الحديث "لا بُدّ من الفرس أو الروم الذين كانوا كثيرين في دولة الإسلام، وليس كذلك الترك والصقالبة في بدء دولة الإسلام.

– حاصل هذا.. أن الرسول الأعظم لم يقل: أولاد نوح هم: سامٌ وحامٌ ويافثُ. والمؤكد أن الذي صنع هذا القول، وسمَّاهُ حديثاً قد اعتمد على ما في التوراة هذه التي لا ثقة بأخبارها. فهو إمّا يهودي أسلم، أو مُسلم اطلع على التوراة، أو سمع من يهودي. أو هو من الفرس أو الروم – كما ذكرنا تَوّاً. وما أكثرَ الدوافعَ لوضع الأحاديث! ولكنّ هذا.. خارجٌ عن إطار بحثنا.

---

(١) الحديث الموضوع: هو الحديث المصنوع أو المكذوب. أي: وضعه رجل، ولم يقله الرسول الأعظم.

(٢) مقارب الحديث.. أي: أدنى مرتبة من الحديث الحَسَن.

(٣) هكذا.. وردت العبارة، أي: لم يذكر بالاسم إلا يحيى ابن معين.

(٤) علي ابن أبي بكر الهيثمي – مجمع الزوائد– ١٩٣/١ – القاهرة / دار الريان للتراث – ١٤٠٧هـ.

التوجُّهُ نحو المصدرين الباقين:

إذن.. ما العمل؟

– العمل هو التوجُّه نحو المصدرين الباقيين – التّاريخ والنُّقوش. فقد نجد فيهما أو في أحدهما ما يدعم فرضية العلماء الغربيّين المختصّين بهذا الشأن – سواءٌ أكانوا مستشرقين أو غير مستشرقين.

٣ – التاريخ:

بدأت بالمؤرخين الإسلاميين، وفي مُقدِّمتهم شيخ المُفسّرين والمُؤرّخين الإمام محمد ابن[1] جرير الطبري، في كتابه (تاريخ الرُّسل والملوك).. فلم نجد فيه شيئاً مُوَثّقاً، بل اعتمد على الحديث السابق المصنوع، فقال: (وقد ذكرنا قبلُ عن رسولنا – صلى الله عليه وسلم – أنه قال في قوله – عزّ وجلّ: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ أنهم سام وحام ويافث)[2].

أقول: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ أي: هم الباقين من قومه، لا من الخلق أجمعين، لأن الصينيّين والفُرس – مثلاً – لم يسمعوا بهذا الطوفان![3] كما أسلفنا.

– ومن البديهي أن المؤرِّخين الآخرين كالمسعودي، والبلاذري، بل وحتى ابن خلدون – لم يقولوا شيئاً يُضاف إلى ما قاله الطبري – لأن الطبري هو أسبقهم فقد توفي سنة – ٣١٠هـ وفعلاً.. لم أجدْ عندهم شيئاً يضاف إلى ما قاله الطبري.

– ثم.. انتقلنا إلى التاريخ القديم – التاريخ اليوناني والتاريخ الروماني – من خلال كتاب (المفصلُ في تاريخ العرب قبل الإسلام) للدكتور جواد علي. فلم نجد فيما ورد فيه – منهما (وما ورد فيه كثير) شيئاً يُشير إلى أن لنوح ثلاثةَ أبناء: سامٌ وحامٌ ويافثُ. **بل لم تَرِدْ لفظة "سامٍ" إطلاقاً**، لا ابناً لنوح، ولا غيره من خلق الله.

---

(١) كلمة (ابن) أكتبها دائماً، وفي بَدئها ألف، لأن حذف الألف، أينما وقعت، لا مُبرر معقولاً له. فهي مثل ألف (ال القمرية)، فهي تسقط في درْج الكلام، ومع ذلك.. لا تسقط في الكتابة. فضلاً عن أن كتابتها بالألف دائماً يجعلها ذات قاعدة واحدة. وهذا.. يُخفف على طالب العلم. وقد فصلنا لا في المقدمة.

(٢) الإمام محمد ابن جرير الطبري – تاريخ الرُّسل والمُلوك – ٢١١/١ – القاهرة/ دار المعارف – ١٩٦٦.

(٣) أنظر: سعد زغلول عبد الحميد – في تاريخ العرب قبل الإسلام – ٨٣ – بيروت/ دار النهضة العربيّة – ١٩٧٦.

ليس العرب من أصل غير عربي:

ولقد أورد جواد علي نصوصاً كثيرة مما كتبه المؤرِّخون اليونان والرومان، عن العرب، فلم نجد ولا نصّاً واحداً مثلاً عن أحد ملوك اليمن، أو ملوك الآشوريين والبابليين والسومريين – وهم قُطّان العراق. أو ملوك الكنعانيين والفينيقيين– وهم قُطّان سورية الكبرى، أو غيرهم من ملوك الشُّعوب الذين قطنوا هذه الأماكن – يؤرخ لحادثة، مثلاً، فيقول: لقد قام – الملك حامورابي الذي ينتمي إلى السومريين – (والسومريون هم: أبناء سام)، قام بوضع شريعة يتحاكم إليها الناس.بل على العكس من ذلك وردت عشرات النُّصوص في التاريخ اليوناني تذكر (العرب) و(الجزيرة العربيّة)، منها:

– (ولما أراد الاسكندر احتلال غزةَ في طريقه إلى مصر.. قاومت المدينة ودافع عنها رجلٌ سمّاهُ "أريان" –وأريان هذا لهو مُؤرِّخ يوناني] دافع عنها – باتس – أيْ: باطش، مُستعيناً بجيوش عربية قاومت مقاومة شديدة). وكان ذلك سنة (٣١٥) قبل الميلاد[١].

– (ونجد في كتاب (تاريخ الإسكندر)، لمؤلفه – كوينيس كورنيوس – خبراً يفيد أن جيوش الإسكندر لم تتمكن من دخول – جزيرة العرب[٢] –).

– ثم (بنى الاسكندر مدينة يُظنّ أنها "المحمَّرة".. بُنيت في النّهاية القصوى من الخليج العربي.. عند خَطٍّ ابتداءِ "العربيّة السعيدة"، ويقع نهاية – دَجْلَةَ – على يمينها)[٣]!.

.. ومثل النصوص اليونانية – النصوص الرومانية.

– ومن المُؤرخين الرومان (بيلنيوس) المتوفى سنة – (٧٩) ب . م (وقد أشار في مطلع حديثه عن الحملة إلى أن (أوليوس غالوس) كان القائد الروماني الوحيد الذي أدخل محاربي – رومة – جزيرة العرب. وقد خرَّب مدناً)[٤].

– وبعد أن كوَّن "تراجان" ما يُسمَّى بـ "المقاطعة العربيّة" أو – "الكورة العربيّة" أراد احتلال كامل العربية السعيدة.

---

(١) جواد علي – المُفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام – ٨/٢، بيروت/ دار العلم للملايين/ بغداد/ دار النهضة – ١٩٦٨م.

(٢) المرجع نفسه – ٩/٢.

(٣) المرجع نفسه – ١٢/٢.

(٤) المرجع نفسه – ٥٢/٢.

– Arabaca – Prouancia – في سنة – ١٠٥ –أو – ١٠٦م[1].

– (.. فإن القيصر – سباتيميوس – أرسل حملة عسكرية في سنة –٢٠١م، توغّلت في العربيّة السعيدة)[2].

– لاحظْ، أخي القارئ، أن كلّ النُّصوص (ومثلُها عشرات) تَذْكُر العرب والعربيّة السعيدة، أيْ: جزيرة العرب. وليس فيها ولا نصّ واحد يذكر "ساماً" أو "السّاميّين".

٤ – النقوش:

يقول الدكتور محمود فهمي حجازيّ في كتابه (علم اللّغة العربيّة): كَشَفت الدراسات الميدانية التي قام بها عدد من الأوروبيّين، في منطقة شمال الجزيرة العربيّة، ابتداءاً[3] من منتصف القرن التاسع عشر إلى اليوم عدّة آلاف من النُّقوش[4]. وهي ثموديّة ولحيانية وصفوية. وكُشِفت نصوص أكّادية (بابلية وأشورية وسومرية) ونُصوص آرامية وفينيقية.

– أقول بَيْدَ أن كلّ هذه النُّقوش تتحدث عن الأقوام التي ذُكرت آنفاً، كلُّ مجموعة تتحدث عن جماعة من هذه الجماعات. ولم يكن فيها ولا نصٌّ واحد، يذكر.. ساماً أو السّاميّين أو السّامية، لا من بعيد ولا من قريب.

بل إنّ النُّصوص الآشورية تشير إلى العرب الذين يعارضون سياسة آشور، منذ (٨٥٤) قبل الميلاد[5].

كاتب.. يعتبر السامية "بدعة":

- يقول رجا عبد الحميد عُرابي، في كتابه (سِفْرُ التاريخ اليهودي): (كما نجح اليهود في ربط أصولهم بأصول شعوب المنطقة العربيّة عن طريق "بدعة" السامية،

---

(١) المرجع نفسه – ٦٥/٢.

(٢) المرجع نفسه – ٦٦/٢.

(٣) ابتداءاً، واستثناءاً.. وما شابههما.. أكتبُهن بألف منوّنة بعد الهمزة، إذْ لا مُبرر معقولاً لحذفها إلا وجود قاعدة تقليدية بذلك. وإلا.. فهُنَّ مثل: سِراعاً، واستيداعاً.. فهل يجوز أن نحذف الألف المُنوّنة بعد العين؟ والهمزة أخت العين. وقد سبق التفصيل، بعد المقدمة.

(٤) محمود فهمي حجازي – علم اللّغة العربيّة – ٢١٩، الكويت/ وكالة المطبوعات – ١٩٣٧م.

(٥) جواد علي – المفصل في تاريخ العرب في الجاهلية – ١٦٥/١.

كذلك.. أرادوا ببدعة (العِبرية) وتسمية أنفسهم عِبرانيّين أن يربطوا تاريخهم بتاريخ شعوب المنطقة)[1].

- لاحظْ أن الأستاذ رجا عبد الحميد قد سبقني إلى اعتبار السَّامية "بدعة"، كما اعتبرتها أنا "خُرافة" لا تقوم إلا على تَخرُّصٍ، وأحاديثَ مُلفَّقة. الفرق أنه أطلقها من موقف "سياسي"، ولذلك.. فهو – غالباً – لا يقصد أنها ليس لها أصل وإنما يقصد أن دولة إسرائيل، والصهيونية العالمية ابتدعت اصطلاح السَّامية، بل شِعار السَّامية، لكي تُكمِّم به أفواهَ مُنتَقِديها. ولذا.. **لم يُدلِّل على بطلان السامية، وأنه لا أصلَ لها.**

أما أنا.. **فأطلقتها من موقف "علميّ" محضٍ. إذ لا أصلَ لها حقاً.** ولذا.. فقد قُمت – في هذا البحث – بالتدليل على ما قررته سابقاً.

اللُّغات القديمة في هذه المنطقة:

- **قرَّر المُختصون الغربيون بلغات المنطقة العربيّة.. ثلاثة أشياء:**

١ – هذه اللُّغات.. بينها "تشابُهٌ". ولهذا.. فهي ترجع إلى أصل لُغوي واحد، أيْ: لغةٍ أُمٍّ لها جميعاً.

٢ – هذه اللّغة هي اللّغة السامية الأولى التي انبثقت عنها هذه اللُّغات[2].

٣– هذه اللسعة الأم؟؟؟ موطنها كان جزيرة العرب.

– أمّا أنَّ هذه اللُّغات.. بينها تشابهٌ.. فهذا.. صحيح. وإنْ كان افتراضُ أصلٍ واحد لهذه اللُّغات.. هو افتراض لا يقوم على دليل "مُقنع". لأنّ التّشابه، في بعض الصِّفات، لا يعود إلى أنها آتية من أصل واحد. وإنما يعود إلى أمرين:

- **الأول: أن اللُّغات جميعها.. بينها.. بعضُ الخصائص المشتركة.** وأمامي كتاب وَجَدَ مؤلِّفه شبهاً بين العربيّة والإنجليزية (لاحظ العربيّة والإنجليزيّة!) بلغت ألفاً وخمسمائة لفظة (١٥٠٠)، ولم يتناول من المعجم إلا ثمانية حروف[3].

---

(١) رجا عبد الحميد عُرابي – سفر التاريخ اليهودي – ٤٨.

(٢) محمود فهمي حجازي – علم اللّغة العربيّة – ١٣٩.

(٣) أنظر: عبد الرحمن أحمد البوريني – اللّغة العربيّة أصل اللُّغات كلها، عمّان/ دار الحسن للنشر والتوزيع – ١٩٩٨م. **وأنا "لا أوافقه على أن العربيّة أصل اللُّغات**، لكن نستخلص من كتابه أن جميع اللُّغات بينها قدر من التشابه، فكيف بلغات المنطقة الواحدة. وذلك.. لا يستدعي لزوم أصل واحد لهنَّ.

- ذلك.. لأن طبيعة الإنسان لا تختلف اختلافاً جذرياً بين شرق وغرب وشمال وجنوب. ولهذا.. فمُعظم الأصوات اللّغوية هي مُشتركة بين جميع الأمم.

- **والثاني:** أنه إذا كانت لُغات الأرض جميعاً.. بينها بعض التّشابه فإنه من البديهي أن لُغات المنطقة الواحدة بينها لابُدّ، تشابُهٌ أكبرُ، عن طريق تقارب التكوين البيولوجي والفكري لمن يقطنون منطقة واحدة، وعن طريق تقارب الألفاظ بين هذه اللّغات، ومحاكاة اللّغة الجديدة منها اللّغة القديمة ببعض القواعد الصرفيّة، وتركيب الجُمل. وهذا.. **لا يقتضي** - من حيثُ العقل والعلم الضروريّ - وجود لغة أمٍّ أتت منها هذه اللّغات. وإلا.. فإنّ كل لُغات الأرض لها "أمّ" واحدة. لوجود التّشابه بينها.

- وممّا يزيد أمرَ تشابه اللّغات - حتى المتباعدة منها في المَنْشأ - وضوحاً.. أن دارسي عائلات اللّغات "**اضطربوا**" في تحديد موطن ما أسمَوهُ (السّاميين والحاميين).. فقال بعضهم بأن موطن الشعوب السّاميّة منطقتا دجلة والفرات. ورأى بعضهم الآخر بأن منشأ الشعوب السّاميّة والحاميّة.. إنما هي إفريقية أو الحبشة. لماذا؟ لأنهم وجدوا - وهذا هو موطن الاستشهاد - "**تقارباً**" بين اللّغات السّاميّة والحاميّة. وعندي أن التّقارب طبيعي لتشابه الطبيعة البشريّة.

- لاحظْ أنهم وجدوا تقارباً بين ما أسمَوْهُ اللّغات السّاميّة، واللّغات الحاميّة، فبَنَوْا على ذلك "**وهماً**"، وهو أنهما - إذن - من موطن واحد! بَدَلَ أن ينتبهوا إلى أن تشابه اللّغات (في بعض الخصائص) راجع إلى تشابه الطبيعة البشريّة ليس أكثرَ.

- ولضلالهم في البحث والاستنتاج عَدُوا ما أسمَوْهُ الشُّعوب السّاميّة، والشُّعوب الحاميّة من موطن واحد أصلاً، ثم.. افترقا؛ الساميّون.. استقروا في منطقتنا هذه، والحاميّون.. استقروا في إفريقيّة!

- مع أنه واضح وضوحاً كبيراً.. أن هناك فرقاً في لون البشرة، والملامح بين سكان هذه المنطقة، وبين سكان إفريقية، مما يُبعد احتمال أن يكونوا قد نشاءا في موطن واحد..

- **أما الشيء الثالث:** فهو افتراضهم وجود (أمّ ساميّة).. وهذا ثبت بطلانه، بما أسلفنا من الأدلة.

وكما أن ساماً ابن نوح خرافة، لم يرد هذا الاسم إلا في التوراة غير الموثوقة — كما بيّنا — فإن الجنس السّامي، والشُّعوب السّاميّة واللُّغات السّاميّة.. مُصطلحات، تقوم على فَرَض لم يدعَمْهُ شيء لا من العِلم، ولا من التّاريخ، ولا من النُّقوش.. ونتيجةٍ لهذا.. فليست هذه إلا مُصطلحات جوفاء.. لا حقيقةَ لها تستند عليها، **فيجب اطراحها بلا تردُّدٍ.**

متى عُرف هذا المصطلح؟

- وضح لنا — مما سبق — أن هذه المُصطلح.. لا أصلَ له في القديم، لأنه لا حقيقة له ألبتّةَ.

وأوّل من أطلق هذه المُصطلح — على اعتباره فَرَضاً — نمساويٌّ، اسمه "أُوغست لوديك شلوتسر" عام — ١٧٨١م. وقد أخذه من التوراة، كما سلف القول — والعجب من هذا الرجل — سواءٌ أكان يهودياً أم مُتصهيناً — أن يأخذ مُصطلحاً من كتاب يعلم كلُّ عالم منصف أن هذا الكتاب غيرُ موثوق. للأسباب التي أسلفنا ذكرها — **فلا يجوز الاعتماد على ما ورد فيه، من "الأخبار" خاصّة!!**

- **ثم.. العجب الأكبر من عُلماء الغرب المُختصّين بهذا الموضوع،** فَرَضٌ أُطلق.. ثم بعد البحث والتّنقيب.. لم يوجد ولا دليل واحد يدعمه، لا من التاريخ، ولا من الحفريات — فكيف لم يعدلوا عنه ويطرّحوه، والعهدُ بالفُروض التي لا تثبت بدليل أن يطرحها العلماء؟ أم أنّ الحضارة الغربية التي تَعُدّ حَمَلَةَ العهد القديم جُزءاً منهم.. لا تريد أن "**تُزعل**" اليهود، فكان أن أبقى العُلماء المُنحازون هذا المُصطلح، برغم أنه تبيّن أنه خُرافة لا أصلَ لها؟ تبيّن لهم — كما تبيّن لنا — لعدم وجود دليل عليه، ولو كان دليلاً واحداً.

- ثم.. العجب الأدهى والأمرُّ من المؤرّخين العرب المُعاصرين، واللّغويين العرب المعاصرين — الذين انطلت عليهم هذه الخُرافة، فأخذوا يُردّدونها، كما تُردّدُ الببغاوات الأصوات، غير مُتَنَبِّهين أن كلّ ما يقوله علماء الغرب، حول أصل العرب ولُغتهم، وديانتهم — يجب أن نبدأ النَّظر إليه "**بالشكّ**" حتى يثبت أنّه صواب. لأنّ أحقاد الغرب على هذه المنطقة العربيّة موغلة في القِدَم، منذ أنْ حاول الإسكندر المقدوني، قبل الميلاد، احتلال العربيّة السعيدة (أيْ: جزيرة العرب) ولم يستطع، مروراً بالحروب

الصّليبية، ثم الاستعمار الغربي، ثم.. هذا الاستعمار الاحتلالي الأمريكي الهمجي الغاشم. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [هود: ١١٣].

- ولكن، ما الحيلة وقد كان مفكّروا النصفِ الثاني من القرن التاسع عَشَرَ، والنصف الأول من القرن العشرين مُنْضبعين بما يأتي به عُلماء الغرب، فيظنونه الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. **مع أن الحق أن عُلماء الغرب – مُستشرقين وغير مُستشرقين – مُنحازون إلى إسرائيل، ومُنحازون "ضد"** هذه الأمّة الإسلاميّة، جذوراً، وحاضراً، وتُراثاً وفِكراً.

من نحن إذن؟

- إذا كان "سامٌ" لا أصلَ له، وكان اصطلاح السّاميّين – تبعاً لذلك – واللُّغات السّاميّة.. **لا أصلَ له – فمن نحن إذن؟**

- **نحن.. عَرَبٌ، منذُ أقدم العصور. نشأنا في الجزيرة العربيّة، وخرجت موجات عربية كثيرة من الجزيرة العربيّة إلى أطرافها الشمالية والشرقية بحثاً عن الخصب واعتدال المناخ. ومن هذه الموجات الأكّاديون في العراق، وكان منهم السُّومريون والبابليون والآشوريون. ثم.. الكنعانيون والآراميون والفينيقيون إلى بلاد الشام. ثم.. الموجات العربيّة، زمنَ الفتح الإسلامي.**

- أما الجدّ البعيد البعيد.. فلا يعلمه إلا اللهُ. وما ذكره المُؤرّخون عن تسلسل البشرية من آدم – عليه السلام – إلى نوح – عليه السلام – ثم من نوح إلى اليوم.. **ليس إلا رجماً بالغيب، ليس إلاّ "تخرّصاً وأحاديثاً مُلفّقة"** كما قال الشاعر العظيم أبو تمام.

- ذلك.. لأنّ الأخبار عن نسل آدم إلى عدنان إنما قام على الرّوايات "الشفويّة" التي يعتورها النسيانُ، والكذب، والمزاح، والهوى، وحبُّ الظهور بمظهر الذي هو بكل شيء عليم. وانعدام المعرفة بمدة عمر الإنسان على هذه الأرض – المدة التي تبلغ مئات الملايين من السنين. فما بين آدم ونوح لعله عشرَة ملايين سنة!.

- **وما قيل عن خُرافة "السّاميّة" وأباطيلها..** فاعلم أنها "فرضية" لم يؤيّدها ولا دليل واحد، وما أبقى عليها إلا انحياز الغرب لإسرائيل، وتخطيطهم لمحو **"الهُويّة" العربيّة، والإسلاميّة، لأنها..** هوية ذات حضارة من أقدم العُصور وإلى اليوم تخالف

حضارتهم أما قال شاعرهم (كِبْلن): (الشرقُ شرق، والغربُ غرب، ولن يلتقيا)؟ ثم.. على الطرف الآخر.. أما قال صادقاً شاعرنا (أحمد شوقي):

..وللمـــــــستعمرين، وإنْ ألانـــــوا قلـــوبٌ كالحجـــارةِ لا تـــرِقُّ..؟

فلنتناول كل ما يقوله الغربيون عنّا "بمنهج الشك" حتى لا نقبل إلا ما هو حق. وما أقلَّ الحقَّ عندهم، إذا تناولوا قضايانا، وديننا الحنيف. والله هو العليم الخبير – فالغيب له – ومعرفة الحق منحة للإنسان منه.

القسم الأول

كيف يَتَعَلَّمُ الإنسانُ اللّغةَ؟

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

[النحل: ٧٨].

الموضوع الأوّل

السَّكاكيني وتَصوُّرُهُ الساذَجُ لمراحل تطوّر اللّغة العربيّة(*)

استغربت قبول أستاذنا الدُّكتور عبد الرحمن ياغيّ.. برأْي الأستاذ المرحوم خليل السكاكيني حول تطوّر اللّغة العربيّة. وذلك في مقالته المنشورة في جريدة الرّأي السيّادة ليوم الجمعة ١٠/١١/٢٠٠٠م في الصفحة السادسة والعشرين من القسم الأدبيّ في الجريدة.

السَّكاكيني يقول: إنّ اللّغة العربيّة مرّت، في تطوّرها، بثلاث مراحل: المرحلةُ الأولى: مرحلةُ قرينة "المعنى" أيْ: أنّ المعنى هو الذي يُحدّد العلاقة بين الكلمات. فإذا قلنا مثلاً "الحجر قد كسر الزّجاج" فُهِمَ أنّ الحجر هو الكاسر والزّجاج هو المكسور. فليس من المعقول أنْ يكسر الزجاجُ الحجرَ. وفي هذه المرحلة لم يُفكّر العربي بحركات الإعراب، فقد يرفع الحجر وقد ينصبه وقد يجرّه، وقد يرفع الزجاج أو ينصبه أو يكسره.. كذلك.

والمرحلةُ الثانية: مرحلةُ قرينة "التّرتيب" وهي أنْ يأتي الفاعل، مثلاً، قبل المفعول مثل "هَجَرَ موسى عيسى" فالهاجر هو موسى والمهجور هو عيسى. أيْ الفاعل هو موسى والمفعول هو عيسى.

أمّا المرحلةُ الثالثة: فكانت عندما اتّسعت فيها اللّغة وتعقّدت فيها الحياة العربيّة. فماذا يفعلون في هذه المرحلة التي لم تَعُدْ فيها قرينةُ المعنى كافيةً ولا قرينةُ الترتيب؟ "حينئذٍ.. لجأوا – كما يقول الدُّكتور عبد الرحمن ياغي – إلى (مشروع التّشكيل)! تشكيل أواخرِ الكلماتِ، بل وأواسطها وسائر حروفها).

وهذه المراحل مقبولة "نظريّاً" لكاتب يجلس وراء مكتبه، ويأخذ يُفكّر في كيفية تطوّر اللّغة العربيّة حتى وصلت إلى تشكيل أواخر الكلمات بل وتشكيل بُنية الكلمة كاملة!

ولكنّها.. غير مقبولة "واقعيّاً" لأنّ النُّصوص التي بين أيدينا منذُ المهلهل وامرئ القيس لا تُسعفنا على قبول هذا التّصوّر. فامرؤ القيس جاء شعره مُعْرَباً إعراباً كاملاً،

(*) – كتبت سنة – ٢٠٠٠م.

أو مُحرّكَ الأواخر حَسَبَ ما هو معروف في الإعراب الذي استخرجه النُّحاة من استقراء النصوص من امرئ القيس حتى منتصف القرن الثاني في الحواضر، وحتى نهاية القرن الرابع في البوادي. وكذلك.. كانت بنى الكلمات محرّكةً في هذه النُّصوص المُختلفة أو في المُشافهات المُتعدّدة.

ولأننا لم نجد في الحفريّات نُصوصاً للُّغة العربيّة، يُمثّل قسم منها المرحلة الأولى، وقسم المرحلة الثانية.. سواءٌ كانت مكتوبة على رِقاقٍ أو رقائقَ أو مكتوبة على حِجارة.

لو وُجِدَ حجرٌ أو حجارةٌ قد كتبت عليها جُمل كجملة: الحجر قد كَسر الزجاج.. لقلنا: إنّ هذه المقولة تعتمد على شيء مكتوب. ولكنه لم يوجد شيء من ذلك. ثم.. هل الحياة قائمة على الأشياء الماديّة وحدها كالحجر والزُّجاج أم أنّ هناك جانباً عاطفيّاً قائماً في حياة الإنسان منذ أنْ وُجِد على الأرض. أمَا هبط آدمُ وحوّاءُ عليهما السّلام، وهما مُتحابّان متعاطفان؟ منذُ أنْ أكلا من الشجرة المحرّمة وبدت لهما سوءاتُهما (أي أصبحا يشعران بالجنس، لأنّ العورة بلا جنس ليست عيباً يجب إخفاؤه). هل يعتقد أن يتفاهما على الحجر والزجاج.. الزجاج الذي لم يُعرف إلاّ بعد رحيلهما عن هذه الدنيا بأدهار.. قبل أنْ يتفاهما على الحب الذي كان يجمع بينهما؟ قد يقال: إنهما كانا يتفاهمان عمليّاً.. ولكنني لا أُصدّق أنهما ما كانا يضيفان إلى الجانب العمليّ بعض الألفاظ العاطفيّة المعنويّة.

- ومثلُ آدمَ وحواءَ.. البشرُ الذين جاؤوا بعدهما. ومثلُ هؤلاء البشر.. العربُ في الجزيرة العربيّة. إنّ نظريّة الانتقال، في حياة البشر، من المرحلة الماديّة إلى المرحلة المعنويّة ثم إلى الجمع بين المرحلتين.. لا تعبّرُ عن طبيعة الإنسان. فالإنسان منذُ أنْ وُجِدَ على وجه الأرض وهو ذو طبيعة "معقّدة" فيها الجانب المادّي وفيها الجانب العقليُّ وفي الجانب العاطفيُّ. ولا بدّ أنه كان يُعبّر عن هذه الجوانب بالإشارة أحياناً وبالكلام أحياناً أخرى. بل إنّ الإشارة في الأشياء الماديّة "دالّة" أكثر من الإشارة في الأشياء العاطفيّة والمعنويّة، مما يدفعه دفعاً إلى الوسيلة اللّغوية التي تعبّر عن العاطفة والعقل.. تعبيراً ما. ومع أن نسبة المعنويات أقلّ في بدايات الحياة – بَيْدَ أنها ليست منعدمة.

- ونحن لا نصدق مقولات ونظريّات يُكذّب بعضُها بعضاً ثم نجعل كلام الله وراء ظُهورنا. اللهُ تعالى يقول عن آدمَ: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى

ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [البقرة: ٣١ - ٣٢].

- فمعنى ذلك أن آدم علّمه ربُّه لُغةً قبل أن يُهبطه إلى الأرض. ثم تعلّم منه أبناؤه ثم انقسم الناس شُعوباً وقبائل، وأصبحت كُلُّ جماعة في بقعة من الأرض تنشئ لغةً خاصة بها.﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الروم: ٢٢]. وكانت بعض الشعوب تتقدّم وبعضها تتخلّف، تبعاً لطبيعة المناخ والظُّروف التي تحيط بكلِّ شعب..

- أما اللّغة التي تعلّمها آدمُ – عليه السلام – فهي "العربيّة" غالباً. ثم رُفعت بعد انتهاء حياة آدم. والله أعلم.

- ذلك.. لقوله تعالى عن جهنّم، وجوابها له: ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [ق:٣٠]. وهذا يعني أن جهنم تنطق بلسان المقال لا بلسان الحال. وليس ذلك بعجيب! فإذا كان الله تعالى قادراً على أن يُنطق الجلود وكُلَّ شيء يوم القيامة، كما في قوله تعالى عن الكافرين: ﴿ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [فصلت: ٢١]. فالله تعالى قادر أن يُنطق جهنَّم، فليس لها أن تخرج على ناموس الآخرة العامّ. وبذلك.. تكون اللّغة التي بدأت بها الحياة الدنيا هي اللّغة التي تبدأ بها حياة الأُخرى كذلك.

- ثم.. نحن لا نزال نقول: "الحجرُ كسرَ الزُّجاجَ" أو: "كسرَ الحجرُ الزجاجَ" أي: نقدِّمُ الفاعل ونُؤخر المفعول. ولا نقدم الزجاج على الحجر، أي: لا نُقدم المفعول به على الفاعل، في هذه الجملة، إلاّ في النادر النادر، لأنّ التقديم للزُّجاج يعني أنّ كسر الزجاج أهمُّ عندنا من (فاعل) الكسر (الحجرِ). وفي مثل هذه الحالة.. نجعل الجملة مبنية للمجهول غالباً، فنقول: كُسِرَ الزجاجُ.

- يتبين من هذا أن المرحلة الأولى – كما رآها السَّكاكيني – ليست إلا "وهْماً" توهّمه السَّكاكينيّ وهو جالس وراء مكتبه، لأنّ اللُّغات، ولا سيما العربيّة ليست من

البساطة بحيثُ يتوهّمُ متوهّمٌ أنّها تأتي على مراحلَ مُنفصلٍ بعضُها عن بعض، بل إنّ اللُّغات من "التعقيد" بحيثُ تتداخلُ فيها المراحلُ كتداخل طبيعة الإنسان "المعقَّدة" المكوّنة من فكر وعاطفة وأحاسيس.. كلُّها مُتمازجة مُتعاونة يعضُد بعضُها بعضاً.

- **أمّا المرحلة الثانية كما رآه السَّكاكيني التي تقوم على "الترتيب"**.. فهي مرحلة توهّمها الكاتبُ كما تَوَهُّمَ المرحلةِ الأُولى. إنّ هذا الترتيب الملزَمَ لا يَصِحُّ إلاّ في الأسماء التي لا تظهر عليها الحركات، مثلِ المثال السابق: "هَجَرَ موسى عيسى" فالهاجر هو موسى (وهو الفاعل) والمهجور هو عيسى (وهو المفعول نحويّاً). وإنّه لمن السَّذاجة المُتناهية أن يتصوّر أحد أنّ اللّغة في حِقبةٍ معيّنة لم تكنْ تتعامل إلاّ مع الأسماء المقصورة، وما شابهها مما لا تظهر عليه الحركات. اللّغةُ أوسع من ذلك وأكثر تعقيداً من ذلك مِئات المرّات. لو كانت اللُّغات "تُصنع" بهذه الصورة.. لكانت بسيطة جداً، غير معقّدة التكوين، ولكان المتكلمون بها لا يُعَدُّونَ إلاّ بالعشرات، بحيث يستطيعون أنْ يتفقوا على نهج موحَّد في التعامل معها! ثم.. هل كانت العقليّة ناميةً عند البدو المتناثرين في الصحراء بحيثُ يرسمون "خُططاً" ثم ينفّذونها؟ وأين كانوا يجتمعون ليتحاوروا ثم يتَّفقوا؟

- **إنَّ الترتيب في الأسماء المقصورة وما شابهها لا يزال مَرْعيّاً**، ولن يتغير في المُستقبل، لأنك لا تستطيع أن تميّز بين الفاعل والمفعول إلاّ بهذه الطريقة، وبطريقة أخرى لم يَتَنَبّهْ لها السَّكاكينيّ، وهي أنه يمكننا أن نقول: "موسى هجر عيسى" لكي نميّز بين الفاعل والمفعول. وهل يُظَنُّ أنَّ العرب جهلوا هذا النوع من الترتيب؟ إنه ترتيب أقرب إلى الوضوح اللغويّ من الترتيب الأوّل. واللّغةُ تنشد الوضوح في كلِّ استعمالاتها. أما ترانا نقول من أجل الوضوح: عَيْنٌ وجمعها عيون، وعينلا وجمعها أعيانٌ. لنميّز بين العين المبصرة، والعين التي تدلُّ على الذوات؟ فنقول عيونٌ، للعيون المبصرة، ونقول: أعيانٌ، للذوات أو أعلام البلد. أمَّا عيون الماء، فهي من قبيل المجاز، لأنَّ هناك تشابهاً بين العيون الآدمية وعيونِ الماء، والتشابه يسمح للغة بأنْ تستعمل كلمةً واحدة للمشبّه والمُشبه به. أما ترانا نقول: "زيدٌ بحرٌ" فنكاد نساوي بذلك بين زيد وبين البحر. أما قال حافظ إبراهيم: **"أنا البحر في أحشائه الدّر كامنٌ؟"** يقصد اللّغة العربيّة.

ومهما يكن.. فإنّ الاضطرار إلى التّرتيب على صورة "هجر موسى عيسى" فإنّما يدلُّ على أهميّة "الحركات" في اللّغة. لأننا بواسطة الحركات نستطيع أن نُقدِّم وأنْ

نُؤخِّر في الكلمات التي تظهر عليها الحركات، تَبَعاً للمعنى المراد. مثلاً.. الله تعالى قال: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ ﴾ [البقرة: ١٢٧]. فقد جاء إبراهيمُ (وهو فاعل) بعد الفعل مباشرةً. أمّا إسماعيل (وهو فاعل) فقد جاء بعد تمام الجملة. ولكنَّ القارئَ يدرك أنّ كلاًّ من إبراهيم وإسماعيل فاعل لأنه مرفوع. ولكنَّ تأخُّر إسماعيلَ لم يأتِ جُزافاً، وإنما للدلالة على **انحناءات المعنى**. فإبراهيمُ هو الرجل المكتمل الذي كان يبني، أمّا إسماعيلُ فكان صبيّاً..يناوله صغار الحجارة والطين. ولذلك.. فهما لا يستويان في العمل، ولذلك.. فمن الحقِّ أنْ يُميَّزَ بينهما في التعبير.. فيأتي الشخص الرئيسيُّ في عمليّة البناء بعد الفِعل مُباشرةً، ويُؤَخَّرُ الشخصُ الثانوي في عملية البناء حتى تكتمل الجملة. ولولا حركات الإعراب لكان حقّ التعبير أنْ يُقال: (وإذْ يرفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت، عِلْماً أنّ إبراهيمَ كان الشخص الرئيسيَّ في عمليّة البناء، وأنّ إسماعيلَ كان الشخص الثانويَّ!) وبهذا.. يكون التعبير الثاني ضِعف التعبير الأوّل. ومن المُقرّر أنّ البلاغة في الإيجاز.. عندما يستوي التعبير الموجز والطويل في أداء المعنى.

- وهذا.. (إلى جانب أشياءَ أخرى كثيرةٍ) يُشير إلى تفوُّقِ اللّغة العربيّة؛ لغةِ القرآنِ، على اللُّغات الأُخرى، ومنها الإنجليزيّة التي يعرف شيئاً منها نصفُ الأردنيين.

في العربيّة، مثلاً، قال المُتنبي:

فما ينفعُ الأُسْدَ الحياءُ من الطّوي ... ولا تُتّقى حتى تكونَ ضواريا

(والطوى: الجوع. والضواري: الوحوش المُولَعةُ بأكل اللّحم). (والأُسْدَ) هنا منصوبةٌ لأنها مفعول به، وهي مقدّمة على الفاعل: الحياءُ، وهو مرفوع. وقد وَضّحنا سبب التقديم والتّأخير في كلام سابق.

- ونضيف إليه أنّ الإنسان يرتاح ويُنفّس عن مكبوتاتِهِ المؤْلِمةِ عندنا يُؤَنِّبُ نفْسه تأنيباً مباشراً أو غير مُباشر؛ عن طريق الواعي أو اللاّواعي. أَما يقول الكفّار عندما يسألهم أصحاب الجنّة: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [المدثر: ٤٢] فأجابوهم مؤنّبين أنفسهم: ﴿ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ ﴾ [المدثر: ٤٣ - ٤٧].

أرأيت إلى هذه السلسلة من الاتّهامات التي اتهموا بها أنفسهم، وهي تعبِّر عمّا يجدونه في أعماقهم، وعمّا مارسوه عملياً، لأنّ الإفضاء بالأخطاء يُدخِلُ على النفس شيئاً من الراحة. إنه لونٌ من ألوانِ "**التطهير**" الذي تحدث عنه – أرسطو الفيلسوف اليونانيّ – في كتابة "**فَنُّ الشعرِ**".

– وبعدُ: فلو كانَ الإعرابِ دليلاً على تطوُّرِ الحضارة وتعقُّد اللّغة المُعبِّرةِ عنها "فَحَسْبُ"، لما فقدتِ اللّغةُ الجرمانيّةُ الإعرابَ مع الأيام، والحضارةُ تتقدمُ ولا تتراجع أو: على الأقل: تبقى حيثُ هي. بل لكانت اللُّغات التي تُعبِّر عن حضارة اليوم المعقّدة الشديدة التّعْقيد (وعلى رأسها الإنجليزيّة) – كُلها.. مُعربةً. وهذا لم يكن، ولن يكون في هذه اللُّغات.

إنَّ الإعراب إحدى خصائص اللّغة العربيّة الرئيسيّة كالاشتقاق.. لكيْ تتمكّن اللّغةُ العربيّةُ من التَّعبير عن أدقّ المعاني العقليّةِ والوجدانيّةِ. ولكيْ تكونَ لُغةَ القرآن المعجزِ، ولا يَصِحُّ أنْ يُنَزَّل المعجزُ بلغةٍ غير مُعجزة.. لأنّ جانباً مُهمّاً من إعجاز القرآن هو الإعجازُ اللّغويُّ.

– إنّ اللّغة العربيّة وُلِدَت مُعرَبَةً، ألهمها اللّهُ تعالى العربَ إلهاماً لتكون لغة القرآن الخالد. كما فصّلنا في (التمهيد).

لقد اصطفى اللّهُ تعالى العربَ ليكونوا الحَمَلةَ الأوائل للقرآن. واصطفى سيدنا محمداً من بينهم ليكون الرسول المصطفى الذي ينزل عليه القرآنُ، واصطفى اللّغةَ العربيّةَ من بين اللُّغات لتكونَ الوعاءَ الذّهبيَّ الذي يُقَدِّمُ القرآن للناس كافّةً، طَبَقٌ من ذَهَبٍ.. عليه أشهى طعام للعقول والأجسام.

إنَّ تصوّر السَّكاكينيّ – بعد كل ما تقدّم – هو تصورٌ ساذجٌ لتطوُّر اللّغة العربيّة. لا يدعمُهُ لا واقعٌ كان في الجزيرةِ العربيّةِ، ولا منطِقٌ سديدٌ يغوصُ في أسباب تطوُّر جميع اللُّغاتِ الحيّةِ والميّتةِ منها، على السّواء. فاللُّغات أكثرُ تعقيداً، في نُشوئها، وفي تطوّرها، من هذا التسطيح في الفهم الذي لا يرضاه كلُّ عقل، لتلقُّف المعرفة بهم نَهِمٌ جَلْدٌ.

الموضوع الثاني

نظريةُ اللّغةِ بين عبدِ القاهرِ الجُرجانيّ وَتِشومسكي(*)

قراءةٌ لكتابِ (في نحوِ لُغةِ وتراكيبها) للدكتور خليلِ عمايرة

قرأتُ كتاب للدكتور خليل عمايرة (في نحوِ اللغة وتراكيبها). والكتاب ذو فائدة لما فيه من نظرات جديدة. ولكنّ لي عليه بضعَ ملاحظات سأؤجّلها إلى مقالة أخرى، وسأكتفي – هنا – بالمُقارنة بين نظريّة الإمام عبد القاهر الجُرجانيّ الذي عاش في القرن الخامس الهجري – الثانيَ عَشَرَ الميلادي – ونظرية الدّكتور نحوم تِشومسكي الذي ولد في القرن العشرين.. عام – ١٩٢٨م – سأكتفي بالمُقارنة بينهما لأهمية النَّظريَّتين، ولأن عبد القاهر الجُرجانيّ كان أدقّ فَهْماً لتكوُّن اللّغة، كما أرى.

- في الطبعة الأخيرة المُنقّحة لنظريّة تِشومسكي يعرض الدّكتور العمايرة أهم النّقاط فيها على النّحو التالي: "وقد ترتب على هاتين الفرضيّتين (الفطريّة والشموليّة) فرضيّة أخرى تبرز في المصطلحين التاليين: الكفاية أو – الطاصح (الكفاءة أو القُدْرة) (Competence)، والأداء – أو الإنجاز كما أرى – (Performance). فالكفاية تكون في امتلاك (المتكلّم – السّامع)

(Ideal Speaker – Hearer) القدرة على إنتاج عدد هائل من الجُمل من عدد محدود جدّاً من الفونيمات الصوتيّة، والقدرة على الحكم بصحة الجُمل التي يسمعها من وجهة نظر نحْوية تركيبية – كما ذكرنا قبل قليل – ثم.. القدرة على الربط بين الأصوات المنتجة وتجميعها في مورفيمات تنتظم في جمل، والقدرة على ربطها بمعنى لغويّ مُحدد. ذلك كله يتم بعمليات ذهنيّة داخليّة يتم التنسيق بينها بما يُسمىّ "إنتاج اللّغة"..

- "وهذه القواعد والقوانين وتلك القدرة كامنتان في الذّهن، وأمّا استعمالها (أي استعمال اللّغة) فيسمى الأداء. فالأداء هو الكلام أو هي الجمل المُنتجة التي تبدو في فونيمات ومورفيمات تنتظم في تراكيبَ جُمليةٍ خاضعة للقواعد والقوانين اللّغويّة الكامنة والمسؤولة عن تنظيم هذه الفونيمات والمورفيمات في تراكيبها. فهو (الأداء)

(*) كتبت سنة – ٢٠٠٣م.

الوجه الظاهر المنطوق للمعرفة الضمنيّة باللّغة. ولكن هذا الوجه قد لا يحصل بينه وبين الكفاية تطابق تامّ، فيكون فيه انحراف (خطأ) ناتج عن عوامل مقاميّة سياقيّة، أو ذهنية نفسية اجتماعية.. إلخ.

وقد ارتبط بهاتين الفرضيّتين فرضيتان أخريان في نظرية تشومسكي هما: البنية العميقة (Deep structure) والبُنية السّطحية (Surface Structure). أمّا البُنية العميقة فهي الأساس الذّهني المجرّد لمعنى معين يوجد في الذهن ويرتبط بتركيب جُمْليّ أصولي يكون هذا التركيب رمزاً لذلك المعنى وتجسيداً له، وهي النّواة التي لا بدّ منها لفهم الجملة ولتحديد معناها الدّلالي، وإنّ لم تكن ظاهرة فيها..

"ويصرف النَّظر عن الكيفية التي تأتي عليها البِنْيَةُ السطحية هذه فقد تكون، كما ذكرنا قبل قليل، وقد ينطق بها المتكلم مقدّماً جزءاً من الجملة النواة على الآخر.. وهذا كله لا يقدم ولا يؤخر في المعنى الذي في ذهن المتكلم أو في الكشف عنه"[1] ص٥٦ - ٥٩.

١ – **أقول:** إن معنى قول تشو: إن اللّغة فطرية.. هو أنّ الإنسان يستطيع أن يُنتج اللّغة ولا يستطيع ذلك سائر الحيوانات[2].. وتوضيح ذلك **أن في الدّماغ خلايا خُلقت "مُستعدة" لاستقبال اللّغة** وهذا أمر بديهي[3]؛ فالإنسان لا يُحَصِّل شيئاً من العلم، سواءٌ أكان في مجال العلوم أو الآداب أو المعارف الإنسانية، إلاّ إذا كان لديه استعداد فِطري لذلك، أيْ: لديه خلايا في الدّماغ تستطيع بالتعاون مع عُضوية الجسم، ومع الوجدان خاصةً (أيْ: العواطف والمشاعر والأحاسيس) أن تستقبل شتّى المَعارف والعُلوم. ولذلك.. لأنّ الإنسان لم يُخلق لديه استعداد فطري للطيران – دون واسطة – لا يستطيع أن يطير على ارتفاع عشرين متراً، ولو ظلّ يتدرب طول حياته، بينما تستطيع ذلك الطيور، لأنها

(١) خليل أحمد عمايرة: في نحو اللّغة وتراكيبها – منهج وتطبيق – ٥٥ – ٥٩ – عالم المعرفة/ جُدّة – ١٩٨٤م.

(٢) لا يستطيع ذلك سائر الحيوانات.. فهذا أمر بديهي وما تتعلمه بعض الطيور كالببغاء، وبعض القردة كالشمبانزي لا يعد لغة، لافتقاره إلى الكثرة والتماسك والتنويع.

(٣) بديهي: مثلها سليقي وطبيعي وغريزي – كلها سمعت من العرب – ، والسماع مقدم على القياس، لأن أصل القياس سماع. ولأن قواعد القياس وُضِعت ليقاس عليها ما يشتقه المولّدون – بعد عصر الاحتجاج – حتى تقوم الساعة – أمّا ما صدر عن العرب الفُصحاء فلا ينقاس، وإن كان ... نادراً – بل يَصِحُّ أن يُقاس عليه، عند الحاجة.

خُلقت وفي جسمها استعداد للطيران، فتأخذ تطير بعد الولادة بأسبوع أو بشهر، يبدأ طيراناً ضعيفاً ثم يشتدّ.

إذن – تِشو – بهذا – لم يأتِ بشيء جديد غير معروف لكل العقلاء، أو على الأقل – لكل المُثقفين العُقلاء.

- وإن معنى قوله: إنّ اللّغة شمولية.. هو أنّ هذه الخلايا التي في الدِّماغ فيها قدرة على تنظيم اللّغة في قواعد وقوانين محدودة تمكّن الإنسان من صوغ الجُمل بلا حدود، ومن معرفة الصَّائب منها من الخطأ، سواءٌ أكان هو المنتج لها أو كان غيره هو المنتج لها.

- وأقول: هذا أمر سَبَق به ابن خلدون تِشو قبل ستة قرون؛ فابن خلدون يرى أن تَكَوُّنَ الملكة اللّغوية (أو القدرة اللّغوية) إنما يَحْصُلُ من خلال سماع القول الفصيح وقراءته والدُّرْبَةِ على استعماله. أيْ: أن الإنسان يقوم بعمليّتين مُترافقتين مُتعاقبتين: يتلقى اللّغة شيئاً. فشيئاً ويمارسها شيئاً، فشيئاً[1]. وأقول: إن هذا الكلام يعني أن الدماغ قابل لاستقبال اللّغة، وقابل لإنتاجها في لحظات مُتعاقبة، بعضُها لاستقبال اللغة وبعضُها لإنتاج اللّغة.

- وأقول: إن القرآن الكريم سبق المُفكّرَيْنِ: ابن خلدون وتِشو، فقد قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل: ٧٨]. فالرّبط بين العِلْم (لا تعلمون) وبين السمع والأبصار والأفئدة.. هو دلالة على أن هذه الأشياء الثلاثة هي آلات لتحصيل العلم، إذْ لم يكن الإنسان ذا علم عند خروجه من بطن أُمه، ولكن الله جعل في جِسمه هذه الآلات الثلاث لتكون آلاتٍ لتحصيل العلم. والفؤاد – من هذه الآلات الثلاث – هو القلب، قال أبو ذئيب[2] الهُذلي يصف امرأة جميلة:

.. رآها الفؤادُ فاستضلّ ضَلالُهُ   نِيافاً من البيضِ الحِسانِ العطائلِ[3]

---

(١) أنظر: ابن خلدون عبد الرحمن ابن محمد (٨٠٨هـ) – المقدمة – ١٢٣٤هـ/ القاهرة ١٩٦٢م – تحقيق: علي عبد الواحد.

(٢) أبو ذُئيب: يكتب ايضاً: أبو ذُؤيب. في الصورة الأولى غلب الكسر عن طريق الياء وفي الثانية غلب الضمّ، وكلاهما صحيح.

(٣) معجم لسان العرب – مادة (فأد).

والقلب هو العقل، أو إن العقل والقلب بينهما اشتراك، قال تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: ٤٦] فالقلب يدفع الوعي إلى العقل. والحق أن العقل لا يُفكّر إلا إذا حفزه حافز من القلب (أو الوجدان)، أما ترى أن المرء لا يقوم بعمل جسمي أو فكري إلا إذا وجد عنده – الرّغبة – في ذلك. ولن تكون رغبة بغير حفز من القلب (الوجدان) الذي يحرك العواطف والمشاعر والأحاسيس.

وقد وَضّحَ رسولنا محمد – صلى الله عليه وسلم – قول القرآن السابق بقوله: "ألا إنّ في الجسد مُضغةً، إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجسدُ كلُّهُ، وإذا فسدت فسدَ الجسدُ كلُّهُ، ألا وهي القلب"[1] ذلك لأنّ القلب هو الذي يُحرّك العقل للعمل والتّفكير.

- **ننتهي من هذا أن الفؤاد هو القلب، وأن القلب بينه وبين العقل ارتباط شديد. وهذا.. يؤدي إلى أن نقول: آلات الجسم تُوصل ما تُحَصّله من لغة ومعارف إلى العقل، ثم يستقرّ كلّ نوع منها – لغةً أو معارفَ – في الخلايا التي تخصّه في الدّماغ. وكلّ نوع من هذه الخلايا يقوم بثلاثة أعمال: الأول – استيعاب المادة التي تصل إليه. والثاني – تكيّف الخلايا مع هذه المادة لتصبح مُقولَبَةً بالقوالب التي تنتج نوع المعرفة المخصوصة. والثالث – إنتاج المعرفة المخصوصة، وإنتاج وحداتٍ إبداعية في مجالها. مثلاً.. قوالب اللّغة تستوعب ما يأتيها من ألفاظ وتعابير وتراكيب، ثم تتقولب بالقوالب التي تطرحها هذه اللّغة، ثم تُصبح هذه القوالب قادرة على إفراز كثير مما وصلها من اللّغة، وعلى إنتاج ما لا يُحصى من الألفاظ (المُشتقّة غالباً) ومن التّعابير التي تأتي على هُدى القواعد التي استقرت في (الخلايا - القوالب).**

٢ – **ويقول الدكتور العمايرة:** "فليس الأمر – فيما يرى تِشومسكي – اكتساباً، كما يراه السُّلوكيون، يَتِمُّ بالتّقليد والمُحاكاة والتّخزين في الذّهن الذي يولَدُ صفحة بيضاء".

- أقول: إن نظرية تِشو لا تقول إلا أقل من نصف الحقيقة، وإنّ نظريّة السلوكيّين تقول نِصف الحقيقة الآخر. أعني أن اللّغة لا تُكتسب إلا بواسطة شيئين: الأول – وجود خلايا في الدّماغ مُستعدة لاستقبال اللّغة. والثاني – وجود لغة تحلّ في هذه

---

(١) البخاري: محمد ابن إسماعيل (١٧٥)- الصحيح- ٢٠/١.

الخلايا عن طريق الاكتساب. وبهذا يكون رأي ابن خلدون أقرب إلى الصحة من الرأيين السّابقين، لأنه جمع بين الاكتساب والاستعداد للاكتساب، تقوم بهما خلايا في الدماغ.

٣ – **وأقول: إن الكفاية والأداء..** القدرتين اللّتين وردتا في النّص الذي نقلناه من شرح الدكتور العمايرة لنظريّة الدكتور تشوم لا تختلفان كثيراً عن الفطرية والشمولية اللتين تحدثنا عنهما سابقاً. فالكفاية تعني تخزين اللّغة، مفرداتٍ وتعابير، وخلال ذلك تتكون في خلايا اللّغة في الدّماغ القواعد والقوانين التي تسير عليها اللّغة، التي تؤدي إلى أن تكون هذه الخلايا قادرة على إنتاج عدد غير محدود من الجمل – عن طريق هذه القواعد – من عدد محدود من الجمل أو القوالب، ولكنها تظل في حالة كُمون حتى يثيرها مثير خارجي أو داخلي، فتبرز منها – عملياً – الجُمل التي تناسب هذا المثير. وهذا.. هو الأداء. هو القُدرة على الإنتاج الفِعلي للجُمل المرتبطة بالمثير والتي تعبر عن معنىً.

– ومثل هذا.. قاله **الإمام عبد القاهر الجرجانيّ في كتابه (دلائل الإعجاز)**، منذ القرن الخامس الهجري – الثانيَ عَشَرَ الميلاديّ – قال: "وإذا كان لا يكون في الكَلِم نظم ولا ترتيب إلا بأن يُصنَع بها هذا الصنيعُ ونحوُهُ، وكان ذلك كله مما لا يرجع منه إلى اللّفظ شيء، ومما لا يُتَصوَّر أن يكون فيه ومن صفتهِ بَان لك أنْ الأمر على ما قلناه من **أن اللّفظ تَبَعٌ للمعنى في النظم، وأن الكَلِمَ يترتب في النطق حسب تَرَتُّب معانيه في النّفس**، وأنها لو خلت من معانيها حتى تتجرّد أصواتاً وأصداءَ حروفٍ.. لما وقع في ضمير ولا هَجَسَ في خاطر أنه يجب فيها ترتيب ونظم، وأن يُجعَلَ لها أمكنة ومنازل، وأنه يجب النطق بهذه قبل النطق بتلك"[(١)].

– أقول: قوله: أن اللّفظ تبع للمعنى في النُّظم، وأن الكلم يترتّب في النُّطق حسب ترتّب معانيه في النفس. يعني شيئين: **الأول** – أن المرء لا يستقبل ألفاظاً دون معانٍ، وغالباً ما تأتي الألفاظ في تعابير تقوم على معانٍ مركبة. **وثانياً** – أنه ينطق الألفاظ – غالباً – في تعابير تترتب في النطق والكتابة حسب ترتيب معانيها في النفس (أيْ: العقل).

---

(١) عبد القاهر ابن عبد الرحمن الجرجاني (٤٧١هـ): دلائل الإعجاز – ٥٥، ٥٦ – مكتبة الخانجي / القاهرة – ١٣٧٥هـ / ١٩٥٢م.

وهذا.. يعني أن مستقرّ المعاني هو النفس (العقل)، ولن تستقر المعاني في العقل لولا أن لها خلايا معينة فيه قادرة على الاستقبال، ولن تكون قادرة على الاستقبال لولا أن تكوّنت فيها مسارب (قوالِب) للمعاني وللألفاظ، كمُفردات وتعابير تقوم على أساس هيئات تراكيب تكوّنت في هذه الخلايا. وهذه المسارب وهذه التراكيب قادرة على التّعبير بالألفاظ حسب ترتيب المعاني فيها. ولمّا كانت المعاني غيرَ مُتناهية فهذا يعني أنّ هذه المسارب وهيئات التركيب قادرة على توليد ما لا يحصى من المعاني، وإلاّ.. لما استطاع متكلم أن يأتي بجديد في المعنى الذي يستتبع ألفاظاً جديدة أحياناً، أو ترتيب ألفاظ قديمة ترتيباً جديداً، أو جمعاً بين بعض الألفاظ الجديدة والقديمة مع ترتيب جديد لها.

- إذن – عبد القاهر الجرجانيّ – سابق لتشوم بقرون في معرفة هذه النظرية اللغوية. ونُضيف هنا أن المعانيَ – البسيطة منها والمركبة – لا تسبق الألفاظ، وإنما تتولدان وتتشكلان في وقت واحد معاً، تقريباً.

وهنا.. يحسن أن نُلاحظ أن عبد القاهر الجرجانيّ قال بأنّ الألفاظ تترتب حَسَبَ ترتب المعاني في (النّفس) ولم يَقُلْ: في العقل. لأنّ العقل لا يتحرّك، كما قلنا في الرقم الأول، إلا إذا حركته النفس.

- ولهذا.. فاستقرار العبارات في خلايا من الدّماغ لا يكون إلا إذا حركت الدّماغ النَّفسُ (الوجدان). ولهذا.. يختلف ترتيب المعاني في العقل، وترتيب الألفاظ تبعاً لذلك – في مجال العلم أو الفكر عن ترتيبهما في مجال الأدب. لأنّ النفس تكون مُستقرة إلى حدّ كبير عند التفكير العِلمي والفلسفي والنّقد – على تفاوت في استقرارها – إنها تتحرك بنسبة عَشْرِ درجات في المئة إلى عشرين وبذلك.. يكون حفزها للعقل محدوداً، مما يُبقي الألفاظ المستقرة على ترتيب بسيط. مثلاً.. يأتي الفعل ثم الفاعل ثم يأتي المفعول. وهكذا.. تخرج إلى الوجود.

- أمّا في مجال الأدب فإن حركتها تكون عنيفة، على تفاوت بين الأديب عند إنشاء الرّواية.. عنها عند إنشاء القصة.. عنها عند إنشاء الشعر. تكون حركتها قويّة جداً في الشعر العظيم، بحيث تبلغ ستين درجة بالمئة أو أزيد. وتهبط إلى خمسين بالمئة أو أقل في القصة، ولكنها تهبط إلى ثلاثين بالمئة في الرواية. وبهذا.. يكون حظّ العاطفة

أكثر من ضعْف حظّ العقل في الشعر. ثم يزداد حظ العقل قليلاً في القصة، ثم يربو على حظ العاطفة في الرواية.

- على هذا.. يكون التّعبير في الشّعر العظيم أكثر تعقيداً وتغييراً لترتيب الألفاظ الطبيعي في التعبير من ترتيبها في القصة. وفي القصة أكثر منه في الرواية. وطبعاً يكون في الرواية أكثر منه في العلم أمّا الفكر، فلسفةً ونقداً فيأتي بين الأدب والعلم. بل إن جَيَشانَ العاطفة في الشعر يضع أما العقل صوراً – تشبيهاتٍ ومجازاتٍ – لا يضع أمام العقل مثلها في العلم، إذْ يكاد العلم يكون خالياً من الصور.. من التشبيهات، وخاصة من الاستعارات.

ولنتّمل على لُغة الشّعر ببيتين: أحدهما للدلالة على تعقيد التركيب في الشعر، والآخر للدلالة على اهتمام الشّعر بالصور: يقول الأخطل الأموي في وصف النساء الجميلات على الظعائن:

..حَنَّوا المطِيَّ فَوَلَّتْنا ركابُهُمُ   وفي الخُدور، إذا باغَمْتَها، الصُّوَرُ[1]

في الشطرة الثانية.. الترتيب البسيط هو: "الصُّوَرُ في الخدورِ إذا باغمتها". ولكنك ترى بهذا التّرتيب الذي قدمّناه به - المبتدأ وهو: (الصور) ثم جاء بالمتعلق بالخبر (في الخدور) ثم بالشرط (إذا باغمتها) – ترى أن جمال الشطرة ضاع، وأن إحكام التركيب تفكك، وأن الكلام أصبح نثراً رديئاً. ولكن في حالة ترتيب الشاعر للشطرة.. جاء الكلام مُحكماً؛ فقد قدم متعلق الخبر (وفي الخدور) لأهميته، لأن النساء مُسافرات، والشّاعر يريد أن يسبق إلى ذهن المتلقي إلى أن هؤلاء النِّسوة مُنعّمات، لا يمشين على أرجلهن، وإنما هن على الظعائن وفي الخدور أيضاً، أيْ: لكل منهن خِدرٌ على ظهر الناقة يقيها الحرّ والبرد ونظرات المُتطفّلين، فهن منعّمات مصونات. ثم.. قدم الشرط (إذا باغمتها) قبل المبدأ (الصور) ليشعرك أنهن لسنَ سوقيّات يُثرثرن مع الغادي والرّائح، وإنما هُنّ مُتعزّزات لا يكلّمهن إلا من يهفو إلى كلامهنّ ومن دلائل

---

(١) (معجم – لسان العرب - .

المطيّ: النوق. الخدور: مثل الخيمة الصغيرة، تركب على ظهر الناقة، لكي تدخل بداخلها المرأة المُنعّمة. الصور: الجميلات من النساء، وكأنهنَّ الرسوم.

باغم: كلمها، فجاء كلامها ناعماً رقيقاً كأنهُ بُغام الظباء.

أنهن مُنعّمات أنهنّ لا يُصوّتن من حلوق خَشنة. وإنما هُنّ يُساقطن الكلام كالبُغام (والبغام صوت الظّبية) فهو يخرج من اللّسان والشّفاه لا من الحلق.

- وأظنك الآن أدركت من الكلام السابق: لماذا أَخَّر المبتدأ (الصوَر) فلا بدّ من الاحتراس قبله بأن هؤلاء النّسوة الجميلات في الخدور، ثم.. إنّ - البُغام - لا يُناسبه إلا الصُّوَرُ من النساء أيْ: الجميلات، لأنّ المُصوِّر(الرّسام) غالباً ما يُجَوِّدُ الصورة حتى تكون أقرب إلى المثال: فالصوت الرّقيق الرّخيم لا يصدر إلا من المرأة المنعّمة الحسناء.

- ويقول الفرزدق عن غَزْوِ الشّيب الشبابَ، مُهتماً بالصُّوَر:

.. والشَّيبُ ينهضُ في الشبابِ كأنهُ   ليلٌ يصيحُ بجانبَيْهِ نهارُ

فالشيب أصبح في نفس الشاعر من الأحياء ينهض ليطرد الشباب (ممثلاً بالشّعَرِ الأسود) ثم.. شبهه بصورة الليل يقتحم حِماهُ النهارُ. ثم شَخّصَ النّهار والليل؛ فالليل كقطيع الأغنام الأسود، والنّهار كالرّاعي يصيح بجانبي قطيعه، لكي ينطلق في الصّباح إلى المرعى.

- **ولن تجد مثل هذا البيت والذي قبله في نصّ علمي أو فكري.**

٤ - **أما البنية العميقة والبنية السطحية في نظرية تشوم،** كما اصطلح على تسميتها الدكتور العمايرة.. **فإني لا أرى أن هذين الاصطلاحين دقيقان.** وأدقّ منهما أن نقول: **البنية الخفية والبنية الظاهرة.** لأن تسميتها بالبنية العميقة والبنية السطحية يعني أن البنية الأولى ذات تركيب وعمق، وأما الثانية فهي بسيطة ساذجة، مع أن البنية الذاتية هي صورة ظاهرية عملية للبنية الداخلية المجردة.. غالباً.. ولهذا.. فالتسمية التي اقترحتُها هي أقرب إلى الصحة، فليس الفرق بينهما - غالباً - أن الأولى أجود من الثانية، بل الفرق بينهما فرق مكان؛ فالأولى كامنة في موضعها من الدماغ، والأخرى صيغة عملية منطوقة أو مكتوبة. ولهذا.. فلا مندوحة من أن نترجم (Deep) بالداخل و (Surface) بالظاهر.

- ثم.. فمن حيثُ المعنى فلا جديد يطرحه هذان الاصطلاحان، إذ هما يعيدان ما قيل سابقاً في الرقم الأول. وهو أن البنية الداخلية كما سميتها هي الخلايا التي تستقبل اللّغة، ثم يؤدي ورود اللّغة إليها شيئاً فشيئاً إلى تخزينها وإلى نمو القوالب (القواعد

والقوانين) في هذه الخلايا شيئاً فشيئاً – هذه القوالب التي يُقاس بها صحة اللّفظ من خطئه، ويُقاس بها صحة التعبير من خطئه كذلك.

- **أما البُنية الظاهرة**.. فهي التَّجسيد العملي – المنطوق والمكتوب – لما استقر في هذه القوالب. وقد يكون مجرّد استرجاع لما استقرّ في تلك القوالب، وقد يكون "إبداعاً" يجري على بنية هذه القوالب، ولكن بتشكيل جديد مُبدع للمعاني والألفاظ، لأن هذه القوالب مرنة بحيث تسمح بالتدفق الجديد أو الفيض الإبداعي.. معنىً وصوراً وتعابير.

٥ – **وقولُهُ: "فهو (الأداء) الوجه الظاهر المنطوق للمعرفة الضمنية الكامنة باللّغة.** ولكن هذا الوجه قد لا يحصل بينه وبين الكفاية تطابق تامّ، فيكون فيه انحراف (خطأ) ناتج عن عوامل مَقاميّة سياقيّة، أو ذهنيّة نفسيّة اجتماعيّة.. الخ".

- أقول: هذا الأمر تحدَّث عنه الجرجانيّ بقوله: ".. فلستَ بواجد شيئاً يرجع صوابه - إن كان صواباً – وخطؤه – إن كان خطأ – إلى (النظم)، ويدخل تحت هذا الاسم، ألا وهو معنى من معاني النحو قد أُصيب به موضعه ووضع في حقه. أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه، واستعمل في غير ما ينبغي له. فلا ترى كلاماً قد وصف بصحة نظم أو فساده، أو وصف بمزيةٍ وفضل فيه إلا.. وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزيّة وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدته يدخل في أصل من أصوله، ويتصل بباب من أبوابه"[(١)].

- **أقول**: إن اعتبار الجرجانيّ النظم – صحةً وفساداً – راجعاً إلى معاني النحو، أي: راجعاً إلى القالب الذي تشكل في خلايا الدماغ التي تخصّ اللّغة، يماثل هذا الذي سمّاه تشوم الكفاية، لأن معاني النحو راسخة في الخلايا المذكورة سابقاً.

- **وصحة النُّظم وفسادة ترجعان إلى معاني النحو** أيْ: أن صحة النظم وفساده إنما هي الصورة القولية الظّاهرة، أيْ: هي الأداء، كما عبّر عنه تشوم، (الاختلاف في التعبير وليس في المعنى المركزي)، ومعاني النحو هي الكفاية، كما أسلفنا. والجرجانيّ، ليؤكد نظرته، يضرب مثلاً على صحة النظم، وآخر على فساده. ومن

---

(١) المرجع نفسه – ٨٢، ٨٣.

أمثلته على صحة النظم التي تعني اتفاق التعبير مع معاني النحو، أي: اتفاق البنية الخارجية مع البنية الداخلية – قول البُحتري:

"بلوْنا ضرائبَ من قد نرى	فما إنْ وجدْنا لفتحٍ ضَرِينا
هو المرءُ أبدتْ لهُ الحادثا	تُ عزماً وشيكاً ورأياً صَليبا
تَنَقّلَ في خُلُقيْ سُؤْدَدٍ	سَماحاً مُرَجّىً وبأساً مَهيبا
فكالسيفِ إنْ جئتَهُ صارخاً	وكالبحرِ إنْ جئتَهُ مُستثيبا"

– ثم.. يوضّح جوانب الجمال في الأبيات فيقول: "أفلا ترى أنْ أول شيء يروقك منها قوله: (هو المرء أبدت له الحادثات) ثم قوله: (تنقل في خلقيْ سُؤدد) بتنكير السؤدَد، وإضافة الخلقيْن إليه. ثم قوله: (فكالسيف)، وعطفه بالفاء مع حذفه المبتدأ، لأن المعنى.. لا محالةَ: فهو كالسيف، ثم.. تكريره الكاف في قوله: (وكالبحر). ثم.. أن قَرَنَ إلى كل واحد من التشبيهين شرطاً وجوابهُ فيه. ثم.. أن أخرج من كل واحد من الشرطين.. حالاً على مِثال ما أخرج من الآخر، وذلك قوله: (صارخاً) هناك، و(مُستثيباً) ها هنا؟ لا ترى حسناً تنسبه إلى النّظم ليس سبَبُهُ ما عددتُ، أو ما في حكم ما عددتُ"[1]. أيْ: ليس سببه إلا قوالب النحو الرّاسخة في الدّماغ.

– ومن أمثلته على فساد النظم أيْ: انحراف القول الظاهري عن البنية الداخلية، أي: انحراف الأداء عن الكفاية (الفرق فرق اصطلاحات وليس فرق حقائق) قال: مثال قول المتنبي:

.. وفاؤُكما كالرّبْعِ أشجاهُ طاسِمُهْ	بأن تُسعدا والدمعُ أشفاهُ ساجِمُهْ

ومع أنه لم يحللَ البيت لكنه ضربه مثلاً على فساد النظم. ونظم البيت دون انحراف (وفاؤكما بأن تسعداني – أيها الصديقان – وتهتما بأمري كالربْع كلما كان أكثر عفاءاً كان أكثر جلباً للحزن، كما أن الدمع يشفي من الحزن إذا كَثُرَ انهماله).

---

(١) المرجع نفسه – ٨٥.

٦ – وقول تشو الأخير الذي أورده الدكتور العمايرة بأنه قد ينطق بالبنية السطحية المتكلم.. مقدّماً جزءاً من الجملة النواة على الآخر.. وهذا/ كُلُّهُ لا يُقَدِّم ولا يؤخّر في المعنى الذي في ذهن المتكلم أو في الكشف عنه[1].

- **أقول: قد نعذر تشو بهذا القول بعضَ العذر – لا كُلَّهُ – لأن تغيير الترتيب في الجمل في اللّغة الإنجليزيّة قليل، فهي، على الأغلب، ذات قوالب جامدة، خلافاً للغة العربيّة ذات القوالب المرنة.** ولكنّ الحق أن تغيير الترتيب يؤدي إلى تغيير في معنى التعبير (ظلال المعنى)، وإن لم يؤثر في المعنى (المركزي) أو الغرض، كما سمّاه الجرجانيّ أو المعنى (النّواة) كما سمّاه تشوم. اقرأ ما يقوله الجرجانيّ عن هذا التغيير، يقول: "لا يكون لإحدى العِبارتين مَزِيّة على الأخرى حتى يكون لها في المعنى تأثير لا يكون لصاحبتها"[2] ونمثل على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة: ١٧٩]، فلو قال أحد الناس: (ولكم حياة في القصاص) – لتغير المعنى كثيراً، لأن القرآن الكريم عندما قدّم (في القصاص) على (حياة) إنما كان ذلك ليوجه الأنظار إلى – القِصاص – لأهميته، لأن القِصاص يُقلّل نسبة القتل العمد كثيراً، فمن ينوي القتل يتردد كثيراً قبل أن يُقْدِم، لأنه يعلم أن مصيره القتل بالقِصاص. ولا شك أن الذي يعلم أنه إذا قتل رجلاً عمداً سيسجن ولن يُقتل قِصاصاً فإنه يكون أجرأ على القتل عَشْرَ مرات من الذي يعلم أنه مقتول لا محالةَ إذا قَتَلَ، فإذا أضفت إلى ذلك أن المتلقي للعِبارة (في القِصاص) يتوقع أن يكون تمام العبارة (قتلُ المقاتِل) ولكنه يجد كلمة تُسوِّغ قتل القاتل وهي كلمة (حياة) فيحسّ براحة وتعجب وعثور على كنز لم يكن يخطر له ببال. وليس شيء من هذا يكون لو قدمت (حياة) وأُخّرت (في القصاص). إن الفرحة المفاجئة التي لم تكن تنتظرها أو تتوقعها الآتية من عبارة القرآن تفتقدها في عبارتنا التي غيرنا بها ترتيب عبارة القرآن. لا شك أن المعنى المركزي لا يتغير، ولكن ظلاله تغيرت كثيراً كما عرّفت آنفاً.

- **إذن** – الجرجانيّ كان أكثر وعياً من تشوم إلى أن تغيير ترتيب ألفاظ الجملة (وهو ما سمّاه تشوم: التحويل) يؤدي إلى تغيير في المعنى، أي: في ظلال المعنى على الأقلّ.

---

(١) في نحو اللّغة وتراكيبها – ٥٩.

(٢) دلائل الإعجاز – ٨٧.

وأخيراً.. نُلخِّص ما سبق في النقاط الثماني الآتية:

١ – مُصطلح الفطرية والشمولية.. مضمونهما بديهي، إذْ لا يمكن أن يتعلم الإنسان شيئاً – لغةً أو غيرَ لغة – لولا أنه مزود باستعداد فطري لذلك ثم.. لا يمكن أن يأتي بجديد في الفكر والأدب لولا أن عقله قابل لتكوين قوالب لفظية محدودة.. قادرة على إنتاج عبارات غير محدودة. وهذا.. فَهْمٌ كان ابن خلدون قد سبق في توضيحه تشوم. والقرآن الكريم سبق في توضيح ذلك ابن خلدون وتشوم.

٢ – اللّغة اكتساب، كما يقول السلوكيون، لا يتم لولا أن في خلايا الدِّماغ ما يستقبل اللّغة ثم يتكون فيها قوالب قادرة على إنتاج اللّغة.

٣ – لا فرقَ كبيراً بين الفطرية والشمول من جهة وبين الكفاية والأداء من جهة أخرى، وهذان المفهومان سبق بهما الجرجانيّ تشوم بثمانية قرون.

٤ – أدرك الجرجانيّ أن للنفس علاقةً قويةً في استيعاب اللّغة وفي إنتاجها.. إلى جانب عمل العقل في هذين الأمرين.

٥ – عمل النفس وحفزها للعقل للاستيعاب ثم الإنتاج يَقْوي في مجال الأدب، ويقلّ في مجاليْ العلم والفكر.

٦ – مُصطلح البنية الداخلية والبنية الظاهرة.. أدق من مصطلحيْ البنية العميقة والبنية السطحية.

٧ – التطابق التامُ بين الأداء والكفاية لا يكون إلا في القرآن الكريم ويكون بنسبة عالية في الأدب الرّفيع، ويضعف في الأدب الرديء.

- وقد تكلم عن هذا الأمر اللغوي النّاقد الإمام الجرجانيّ.

٨ – ليس صحيحاً أن تغيير ترتيب الكلام لا يؤثر على ظلال المعنى. المعنى المركزي قد لا يتأثر، ولكن ظلال المعنى تتأثر. لقد أدرك الجرجاني هذا بوضوح، ولم يدركه تشوم.

الموضوع الثاني في نحو اللغة وتراكيبها // كتبه د. خليل أحمد عمايرة(*)

- تناولنا من هذا الكتاب (في نحو اللّغة وتراكيبها) القسم الذي يعرض نظرية (تشومسكي) في اللّغة.. في مقالة سابقة، حللنا فيها هذه النظرية وبيّنّا أن جوهر نظرية تشوم قد سبقه إليه عالمان عربيان.. الأول هو: الإمام عبد القاهر الجرجانيّ (ت - ٤٧٧هـ) اللغوي والناقد الشهير، والثاني هو المفكر الشهير عبد الرحمن ابن خلدون (ت - ٨٠٨ هـ) والفرق بينه وبينهما إنما هو في التفصيلات.

- وفي هذه المقالة نتناول بعض آراء كاتب الكتاب الدكتور خليل أحمد عمايرة المبثوثة في الكتاب كله، التي لم نوافقْه عليها، مُدعَّمين رأينا بالتحليل والتعليل والدليل:

- يقول المؤلف: الدكتور عمايرة: (ولعلّ الترتيب بين النّعت والمنعوت في العربيّة وعدم مراعاته هو الذي يؤدي إلى وجود بعض الجمل المُلتبسة التي يعتورُها الغموض، فنقول: بقالةُ الجامعة الجديدة، مدرسة جامعة اليرموك النموذجية. فينصرف ذهن السامع إلى أن المقصود في الأول هو البقالة. وفي الثانية هو المدرسة، وقد يذهب إلى أن المقصود في الأولى هو البقالة، وفي الثانية هو المدرسة، وقد يذهب إلى أن المقصود بالنّعت هو الجامعة في الأولى، وأنه جامعة اليرموك في الثانية، أيْ: أن النعت تابع للنكرة التي أصبحت معرفة بالإضافة، أو أنه تابع للمعرفة مع إبقاء النكرة.. نكرة في الذهن وفي المعنى الذي توحى بها الكلمة) ص - ٢١ .

- **أقول: أولاً** - قولُهُ: (وعدم مراعاته) جمله ناقصة، ويُفَضَّلُ: وعدم مراعاته للكلمة المنعوتة: أهي المضاف (=بقالة) أم المضاف إليه (=الجامعة).. يؤدي إلى شيء من الغموض.

وثانياً - قوله: (فينصرف الذهن..) يوهم القارئ أن عبارة: (أن المقصود في الأولى هو البقالة).. هو الاحتمال الوحيد. مع أن الكاتب يعرض احتمالاً آخر. ولذا.. فحق العبارة هو أن تكون: (فقد ينصرف الذهن..) ليدرك القارئ بدءاً أن ثمة احتمالاً آخر.

وثالثاً - الدكتور خليل يتحدث عن العربيّة وكأنها لغة غير مشكُولة كالإنجليزيّة التي لا شكل فيها. ولهذا.. يرى أن القارئ يحار بين أن يكون النعت

(*) - كتبت سنة - ٢٠٠٣م.

للمضاف أم للمضاف إليه، والحق أن القارئ لا يحار في العربيّة، لأنها مشكولة، فإذا أردنا أن نجعل النعت للبقالة مرفوعاً بعلامة الضمّ.. ضممنا (الجديدة)، وإذا أردنا أن نجعله للجامعة المكسورة بعلامة الكسر كسرْنا (الجديدة) فيزول اللّبس زوالاً تاماً.
إذن لا يحسن أن تقيس العربيّة على الإنجليزيّة، لأنهما لغتان مختلفتان، كلٌّ منهما لها نهجها وطريقتها في التعبير.

– **ويقول:** (فقد كان الشعراء يدركون أن هناك اختلافات في اللهجات بين القبائل، وكان أحدهم إذا أراد أن ينظم شعراً للمنافسة به في الأسواق نظمه باللّغة الأدبية المشتركة بين القبائل، وإذا ما قال شعراً في قبيلته جاء به متفقاً مع لهجتهم وعاداتهم اللغوية.. فتناقلوه (أي: الشعر) إلى أن وصل إلى النُّحاة الذين حكموا عليه بالشذوذ، لأنه مُخالف لما عندهم من قواعد، ولأنه كان قليلاً.. ولكن النُّحاة اسقطوا كثيراً من الأشعار التي وردتهم مخالفة في تراكيبها أو حركات الإعراب فيها لما كانت عليه قواعدهم التي أخذت تستقر مأخوذة من لهجات قبائل بعينها) ص – ٣١.

– **أقول: إن الشعر للقبائل السبع التي اختيرت لهجاتها لِتُمثّلَ الفُصحى** – تكاد لهجاتها تخلو من الفروق الكبيرة التي تجعلها لهجات مُتباينة، بل كانت متقاربة جداً.. بينها فروق طفيفة هي التي نجدها في المعاجم وفي كتب النحو: مثلاً.. عندما نجد معجم لِسان العرب يقول: (رجل عزب ومِعزابة: لا أهل له، ولا يقال: رجل أعزب، وأجازه بعضهم) فإننا نُدرك أن عزباً (لهجة قبيلة (لعلها قريش) وأن أعزب "لهجة قبيلة أخرى .(أمّا أن "ما" في لغة بني تميم لا تعمل شيئاً، فيقول بنو تميم: "ما زيدٌ قائمٌ".. ولغة أهل الحجاز تُعلمها كعمل "ليس" لشبهها بها في أنها لنفي الحال عند "ما زيد قائماً"..) – شرح ابن عقيل : ٣٠٢/١ – فهذه فروق طفيفة، لا تُباعِدُ بين اللهجتين.

– **أمّا أن اللّغة أخذت تستقر** مأخوذة من لهجات قبائل بعينها.. فهو عين الصواب. وهي سبع قبائل على رأسها قريش، (وأكثر اللّغة من لهجتها)، لأن القرآن الكريم نزل على سبعة أحرف، كما قال رسولنا – صلى الله عليه وسلم – أي: وردت "بعض" الكلمات بلهجة، ووردت أخرى بلهجة أخرى، أو ورد في الكلمة قراءتان أو ثلاث، أي: لهجتان أو ثلاث، وهي قليلة على الإجمال، فإن قرّاءاً يقرأون في الفاتحة (ملك يوم الدين) وآخرين (مالك يوم الدين) مثلاً، وقراءاً يقرأون (الحمدُ لله) بضم الدال وآخرون

يقرأون (الحمدِ للهِ) بكسر الدال، على الإتباع، أي: إتباع حركة الدال لحركة اللام في لفظ الجلالة، وهكذا.. وهذا لا يُباعد بين اللهجات.

ولولا حصرُ جمع اللّغة في لغة قريش وستّ قبائل أخرى.. لأصبحت اللّغة العربيّة.. مباينة كثيراً للغة القرآن. وبهذا.. لا تكون اللّغة خادمة للقرآن بل تضحي مباينة له. وعندئذ.. لا يكون اللغويون والنُّحاة.. قد خدموا **القرآن الكريم الذي به الابتداء وبه الانتهاء**، فلولا هذا لا نفصل الناس شيئاً فشيئاً عن القرآن لانفصال لغتهم عنه. ومن هنا.. فالمُخلصون للقرآن ينكرون على الذين يتحدّثون في الدين باللّهجة العامية، حديثهم بها وهم قادرون على الفُصحى ولو مُسكنةً – المخلصون.. في القديم قصروا جمع اللّغة على اللهجات التي نزل بها القرآن الكريم، فأحسنوا.. والمخلصون اليوم.. ينكرون على القادرين على الحديث بالفصحى أن يتحدثوا عن الدين بالعاميّة، والله تعالى يقول: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [الشعراء: ١٩٢ – ١٩٥] فاللّسان العربي المُبين مطلوب من العلماء، لأنهم ورثة الأنبياء. **وقول الكاتب**: (فتناقلوه – أيْ: أبناء اللهجة التي قيل فيها الشعر المُفارق للفُصحى – إلى أن وصل إلى النُّحاة الذين حكموا عليه بالشذوذ. لأنه مخالف لما عندهم من قواعد " – **قوله هذا غير دقيق**، لأنه يصور لك أن هناك مرحلتين: مرحلة.. جُمعت فيها اللّغة الفُصحى، ومرحلة تالية.. ورد على اللغويين والنَّحويين فيها الشعر المُخالف للفُصحى لارتباطه بلهجات القبائل، وهذا تصوُّر غير دقيق، لأن القبائل السبع التي أخذت الفُصحى من لهجاتها، والقبائل الكثيرة الأخرى التي لم يؤخذ من لهجاتها شيء. لتأثرها بلغات الأعاجم، في الشمال والشرق والجنوب.

– كانت لهجاتها قد وُجدت في وقت واحد معاً، لكن اللغويين والنحويين اطّرحوا تلك اللهجات البعيدة عن لغة القرآن.. بدءاً. ولم تَرِدْ عليهم متأخرة. ولم يرد شعر بلهجات القبائل السبع، قيلَ في كل قبيلة للقبيلة نفسها لا للأسواق الأدبية..فما حكموا عليه بالشذوذ – إذن – لم يكن من لهجات القبائل المطرحة لهجاتها بدءاً، وإنما كان خطأ أو شذوذاً على جمهرة اللّغة في اللّهجات السبع المختارة، وما قول الشاعر:

أن أباها وأبا أباها ... قد بلغا في الفخرِ غاياتها

إلا من الشذوذ الذي وقع في مادة اللهجات السبع المختارة، إمّا من باب "**التظرّف**" أو تغليب الموسيقى على التركيب اللغوي، مثل قولهم: (أوضح كلام وأخْصرُهُ) فبنَوا (أخصره) على وزن (أوضحُ)، مع أن الأصل فيها (**أكثر اختصاراً**)، لأنها من فعل خُماسي. **والعرب تجيز في الصرف ما لا تجيز مثله في النحو**. ولهذا.. قبلت (أخصر) ولم تقبل (وأبا أباها)، ألا تراهم يقولون في الصرف: (ويْلُمِّهِ) فيجعلون من كلمتين كلمة واحدة، ولكنهم لا يدمجون بين حركتين إعرابيتين، مُكوِّنِينَ منهما حركة جديدة؟ ذلك.. لأن الحركة إذا تغيَّرت غيّرت المعنى، أمّا التغير الصرفي، مثل الذي سبق، فلا يغير المعنى.

— ويقول (حتى إن من كان يستمع إليهم — أي النُّحاة الذين قَدِموا إلى حلقة أحد النُّحاة وسمعهم فقال: ما لي أراكم تتحدثون في لغتنا بشئ ليس من لغتنا. وربما كان هذا هو الذي دفع عبد القاهر الجرجانيّ إلى إعادة النظر في النَّحو الذي هو عنده.. التعليق أو النّظم. والذي يضمّ عنده كذلك المعنى بالإضافة إلى سلامة المبنى. ولو حاولنا استخلاص طريقة لتحليل الجملة في ضوء ما يراه الجرجانيّ لقلنا: ضرب موسى عيسى، صباحاً أمام المسجد تأديباً له.

".. عيسى، هو الشخص الذي وقع الضرب عليه. — موسى: هو الشخص الذي أوقع الضرب على عيسى. — الضرب: هو الحَدث الذي أوقعه موسى على عيسى. — صباحاً: هو الزمان الذي أوقع موسى فيه الضرب على عيسى - . أمام المسجد: هو المكان الذي أوقع موسى فيه الضرب على عيسى. — تأديباً له: هو الغرض الذي أوقع موسى الضرب له على عيسى" ص - ٣٤.

- **وأقول: هذا.. كلام لا يُسلَّمُ به**. بل هو فهم خاصّ لمقصد الجرجاني من النظم، ومعاني النحو: وقد أغراه بهذا الكلام الجرجاني عن معاني النحو.

أمّا أن الأعرابي لم يفهم ما يقوله النحويّ.. **فأمر بديهي**، لأن الأعراب (وساكن المدينة الذي لم يتعلم) يفهم اللّغة.. **استعمالاً، ولكنه لا يفهم مُصطلحات النّحو**، كما لا يفهم أيضاً مُصطلحات البلاغة، أو مُصطلحات العروض. أفنلغي مُصطلحات هذه العلوم التي تُضبَط حركتها بها.. لمجرد أن الإنسان العادي لا يُدرك معناها أو المقصود منها؟ إنّ البديهي أن لكل علم وفن مُصطلحاتِهِ، وكونُ الإنسان الذي لم يدرس علماً لا

يفهم مُصطلحاته – لا يعنى ذلك أن يدفعنا إلى إلغاء مُصطلحات هذا العلم.. الذي لا يثبت ولا ينمو إلا من خلال قواعده وقوانينه التي يضعها العلماء[1].

- أمّا عبد القاهر الجرجانيّ فلم يُعِدْ النظر في النَّحو، ولم يغيّر مُصطلحاته أو يُفكّر في ذلك – بل لم يكن من أصحاب النحو - أصلاً. وإنما استخدم مُصطلحات النّحو التي وضعها النُّحاة قبله كمُصطلحات يعبر من خلالها عن إعجاز النظم في القرآن الكريم، وعن جمال النُّظم في القول البليغ. وتعلّقُ الكَلِم بعضها ببعض، لا يعني إلغاء الإعراب، لغريب أن يفهم رجل يكتب في اللغة هذا الفهم! وإنما يعني انه لا يقع تعلّقٌ بين الكلم.. يعقل، أو يكون جميلاً، إلا إذا رُتّب الكلام في النطق، حسب ترتيب المعاني في النفس.(ص - ٥٦) خُذ توضيح الجرجانيّ لقوله تعالى عن اليهود: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾ [البقرة: ٩٦].

يقول:

- (إذا أنت راجعت نفسك وأذكيت حسّك وجدت لهذا التنكير وأن قيل "على حياة" ولم يُقَلْ: (على الحياة) حُسناً وروعة ولطف موقعٍ لا يُقادَرُ قَدْرُه، وتجدك تَعدَم ذلك مع التعريف، وتخرج عن الأريحية والأنس إلى خلافهما..) ص – ٢٨٨.

- فأنت ترى أن الجرجانيّ استعان بمصطلحين نحويين هما: التنكير والتعريف، لكي يوضح بهما الجمال في هذا النظم. فلم يكن جمالٌ (=إعجازٌ) في هذا التعبير لولا ورود لفظ الحياة مُنَكّراً، أي (حياة)، وليس الحياة.

أهذا الذي ذكره الجرجاني من (التعريف والتنكير) تغيير لمصطلحات النحو، أم – تأكيد لها؟ (ولكن، تأخذ الألبابُ منهُ – على قدْرِ القرائحِ والفُهومِ)

أما توضيح الكاتب لجملة (ضَرَبَ موسى عيسى، صباحاً أمام المسجد تأديباً له) فهو توضيح للمعنى وليس إعراباً، لأن الإعراب يجب أن يتضمن الإشارة إلى الحركات.. رفعاً ونصباً وجراً وجزماً. وإلاّ .. فكيف نعرِف أن ها هنا كلمة مرفوعة وكلمةً منصوبة وكلمةً مجرورة وكلمةً مجزومة ؟

(١) - لا شكَ أن الخليل – رحمه الله – قد بالغ في تكثير مصطلحات العروض، حتى كان كثير من مصطلحاته لا يحتاجه الشاعر، ولا يصنع شاعراً ممن ليس موهوباً.

فعقد السهل وقريب من العروض كثرة مصطلحات البلاغة، وعدم جدواها في تعليم البلاغة. أما النحو.. فشيء مختلف جداً، إذ لا يكاد يستغني عنه أديب، أو كاتب.

- أما ظن الكاتب أن الجرجانيّ أراد أن تكون الجُمل على غِرار الجملة التي ذكرها (الكاتبُ) – فهو نقيض – منهج الجرجانيّ، لأن الجرجانيّ رأي أن البلاغة هي في ترتُّب الألفاظ في النُّطق حسب ترتيب المعاني في النَّفس، ولهذا.. لا يمكن أن يُضاهيَ قولُنا(حياة لكم في القصاص).. قول الله تعالى، وقوله الحق: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [البقرة: ١٧٩] ذلك "بسبب الفارق في – التقديم والتأخير – الذي اهتم به عبد القاهر كثيراً. واهتمامه بالتقديم والتأخير. يعني أنه يرى بلاغةً عاليةً في التقديم والتأخير، على شرط أن يقع موقعه. الجرجاني كان ما رآه توضيحاً لبلاغة الكلام. أمّا مثال الكاتب "فَعِيٌّ" من الكلام.

- عبد القاهر.. استعان بمُصطلحات النحو في تحديد البلاغة في النظم: بِمَ تكون؟ أبالتقديم أم بالتأخير، أبالتعريف أم بالتنكير، أبالإفراد أم بالتثنية أم بالجمع؟.. استعان كما يُستعان بمُصطلحات البلاغة في باب المجاز، وباب البديع، دون أن يخطر بباله تغييراً لأيّ مُصطلح نحوي. وبديهي أنّ إعرابنا للآية السابقة ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ ليس له أيُّ تعلُّقٍ بالبلاغة، وإنما البلاغة تأتي من نظم الكَلِمِ بطريقة مخصوصة متفقة مع ترتيب المعاني في النفس. فليس كل تقديم يؤدي إلى بلاغة، وليس كل تنكير يؤدي إلى بلاغة، وليس كل أفراد أو تثنية أو جمع يؤدي إلى بلاغة. بل هذه وأمثالها تؤدّي إلى بلاغة إذا وقعت مواقعها في النُّظم المتسق مع مواقعها في النفس. ولكنها تؤدي إلى خلل في التعبير ورداءة إذا لم تقع في النُّظم كما وقع ترتيبها في النفس.

- ومن هنا.. فقد تكون البلاغة العالية في نظم الكلام (ترتيبه) حسب الترتيب البسيط، أي: يأتي فِعْلٌ ثم فاعل ثم مفعول به. وقد تكون في نظمه بطريقة يقع فيها التقديم والتأخير. فإذا قال تعالى:﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ ﴾ [النصر:١] فإن الكلام ترتب ترتيباً بسيطاً: الشرط (إذا) ثم الفعل (جاء) ثم الفاعل (نَصْرُ الله)، ثم جاء الجواب: فسبِّح، **فهذا ترتيب بسيط ولكنه في الغاية من الروعة، أولاً** – لأن هذا الترتيب البسيط جرى على أساس تساوق المعاني وترتيب - تأثيرها – في النَّفس (ترتيب تأثيرها لأن الكلام ليس نابعاً من النفس البشرية وإنما هو كلام الله تعالى).

وثانياً – لأن الله تعالى أضاف النّصر إلى نفسه مما أعطى الكلام شرفاً ليس له لو قيل: (إذا جاء النصر والفتح)، ولأنه تعالى لم يُضف (الفتح) إلى نفسه مباشرة، مما يؤدي إلى تكرار غير ضروري، فليس مما يحسن أن يقال: (إذا جاء نصر الله وفتح الله) بل إن العظمة جاءت من إيراد الألف واللام في كلمة (الفتح) التي سدّت مسد الإضافة، أي: الفتح المعهود الذين تشاهدونه عن طريق انثيال الوفود الراغبة في الإسلام.. إلى المدينة المنورة انثيالاً. ثم.. كانت العظمة تأخير الجواب، فقد فصل بين جملة (إذا جاء..) والجواب جملة أخرى معطوفة عليها وهي ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝﴾. ثم جاء الجواب: "فسبّح..".

ولكن قال تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾ [البقرة: ١٣٢] فأخّر يعقوب – عليه السلام – وهو فاعل كإبراهيم – عليه السلام – أخّره بعد المفعول[1] (=بنيه).. فبذلك بانت مزية النظم: إذ لو قيل: (ووصى بها إبراهيم ويعقوب بنيهما) لكان في التعبير غمط لحق إبراهيم. فإبراهيم أبو الأنبياء ويعقوب.. حفيده. فليس من حفظ المقامات أن يتبع يعقوب إبراهيم مباشرةً، وإنما من حفظ المقامات أن يؤخر الحفيد بعد المفعول به، وبعد أن يتم المعنى، وأن يقدم الجدُّ قبل المفعول به. وهكذا.. يكون التعبير.. عادلاً، لأنه وضع كلاً من الرجلين في موضعه. ومن هنا جاء جمال التعبير، لأنه اتبع منهج العدلِ.. والعدلُ.. جمال لا يعلوه جمال. أرأيت أن التزام التعبير البسيط في سورة (النّصر) كان سبب الجمال والرّوعة. وأن التقديم والتأخير في آية (البقرة) كان سبب الجمال والروعة – لأن كلاً من التعبيرين وقع موقعه الملائم؟

– ويقول الدكتور عمايرة: (الاقتصار في تقعيد للغة وتقنينها على اللّغة المكتوبة بينما الأصل في اللّغة أن تكون منطوقة، وبالنطق يستطيع المتكلم أن يعبر بتركيب جُمْلي واحد عن معانٍ متعددة. ولما كان النُّحاة قد أهملوا في تقعيد القواعد كل ما يتعلق بالنبر والتنغيم، نتيجة اعتمادها على اللّغة المكتوبة، فإننا لا نجد لهذين العنصرين اللذين أخذا يبرزان بوضوح في الدراسات اللغوية المعاصرة، وبخاصة في

---

(١) فضّلت أن أكتفي بكلمة (المفعول) من غير أن يلحقها (به) – لأن اصطلاح النُّحاة هذا ليس دقيقاً، (فالمفعول به) هة الذي يُفعَل به، فإذا قيل: (سَفَدَ ذكرُ الحمامِ الحمامةِ) كانت الحمامة (مفعولاً به) – حقاً. أما إذا قيل: قطف المزارعُ الثمرَ/ (فالثمرَ) ليس مفعولاً به، وإنما هو (مفعولٌ) فحسبُ.

الغرب/ لا نجد لهما أثراً عند نُحاة العرب إلا فيما يتعلق بالاستفهام محذوف الأداة..) ص - ٣٤.

أقول: أرجو ألا نقلّد الغرب في كل شيء حتى لو خلوا جُحر ضبٍّ خربٍ.. دخلناه للأسباب الثلاثة الآتية:

الأول – أن العرب أساساً اعتمدوا على اللّغة المنطوقة (لا كما يقول المؤلف) لأن الكتابة، أصلاً، كانت شبْهَ معدومة عند العرب قبل الإسلام. ومن المعروف أن اللغويين جمعوا معظم اللّغة من الفُصحاء في المدن والبادية، من خلال المشافهة.

والثاني – أن الغربي يلجأ إلى – التنغيم – للتمييز بين معنى وآخر للتركيب الواحد، لأن اللّغة الإنجليزيّة – مثلاً – لغة نمطيّة أي: جامدة التركيب.. غالباً، فليس أمام الغربي إلا التنغيم ليجعل الجملة الواحدة تعبر عن غير معنى واحد. أمّا العربي فأمامه للتعبير الواحد أكثر من صِياغة واحدة، وذلك.. يجعله يستغني بتنوع الصياغة عن تنويع التنغيم. ولا شك أن جُمود التعبير وتنوع التنغيم قصور في اللّغة، وأن تنوع الصياغة للتعبير الواحد يُعد غني في اللّغة، عندما يعبر كل تنوع عن ظلال للمعنى تختلف عما في الوضع الآخر.

خذ مثلاً في الإنجليزية هذه الجملة:

If Jim hadn't Lent me the money, I wouldn't have been able to buy the car.

فأنت لا تستطيع أن تقدم (Jim) على (If) ولا (hadn't) على (Jim) ولا (the money) على ما سبق ولا (to buy the car) على (I wouldn't).

بينما كل هذا.. ممكن في العربيّة، نقول" إذا – جم – لم يقرضني النقود.. فلن أكون قادراً على شراء السيارة، ونقول: ..إذا لم يقرضني جم.. أو .. جم إذا لم يقرضني.. أو .. النقودَ إذا لم يقرضنيها جم فلن أكون قادراً على شراء السيارة، أو – النقودَ، إذا لم يقرضنيها جم – فعلى شراء السيارة.. لن أكون قادراً.

أهذه اللّغة التي هي بهذه المرونة الفائقة.. أفي حاجة إلى أن تعتمد التنغيم؟ ثم.. إن كل تغيير في التعبير يؤدي إلى تغيير في المعنى، حسب نظرية عبد القاهر الجرجانيّ في – النُّظم – أي: تغيير ترتيب الألفاظ في العبارة، هو التغيير في التعبير.

والثالث – أن التنغيم المتنوع للعبارة الواحدة في الإنجليزيّة.. جعل فيها شرخاً بين المنطوق والمكتوب لا يمكن رأبُهُ، لأن حروف كثير من الكلمات جاءت بناءاً على تنغيم واحد، وأضحت مفارقة لأنواع التنغيم الأخرى للكلمة نفسها، ولكي يتغلب الإنجليز والأمريكان على ذلك.. يحاولون أن يكتبوا الكلمة في معاجمهم مرتين: مرة.. تبعاً للصورة التي كانت عليها الكتابة، أيام كانت تنطق نطقاً معيناً قبل عدة قرون. ومرة.. بين قوسين تبعاً لما تطور له النطق في الحاضر، خذ مثلاً.. (Emulate) ومعناها: تَشَبَّهَ به لفظها المكتوب (إمْيولَيت)، ولكنها تلفظ هكذا، كما كتبت بين شرطتين /Emuleit/ !! ولفظها: إمجوليت، ولفظها الحرفي (أميولاتي)!!.

– هم واقعون في (حَيْصَ بَيْصَ)، يعزّ عليهم أن يَطّرحوا الخط القديم وأن يكتبوها كما ينطقونها، حسب الحروف التي بين شرطتين. وهم غير قادرين على إعادة أصواتهم كما كانوا عليه من قبل قرون أو عقود!

– ونحن ننطق كما نكتب – على الإجمال – ونكتب كما ننطق، بفضل القرآن الكريم – الذي أحدُ علومه، وهو علم التجويد، حفظ الصوت العربي نقياً في الفُصحى كما كان في الجاهلية، وكما نزل به القرآن الكريم على قلب رسولنا – محمد صلى الله عليه وسلم – ينطقه بلسانه الشريف الذي أخذه عنه الصحابة – رضي الله عنهم – بالمُشافهة. وهكذا، ينتقل صوت الحروف من جيل إلى جيل بالمُشافهة حتى يوم الناس هذا.. بل حتى يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، دون تحريف.

– **أنعدل – إذن – عن تنوع التعبير إلى التنغيم، لأن الغرب ينغّم، والتنويع باقٍ ثابت ومن طبيعة لغتنا، والتنغيم متغير لا يستقر على حال، مما يجعل اللّغة تنتقل، مع الزمن إلى لغة أخرى، أصواتاً وحروفاً؟** – التنغيم.. مُتغير، لأنّ منحى الصوت يتغير، حسب البيئة والظروف، وطبيعة الحياة.. فيتغير الصوت، وتتغير اللّغة، أو تنحرف عن أصولها، وهذا.. نجت منه **العربيّة – لغة القرآن**. ثم.. أَنتبع تنغيم الجزيرة العربيّة، على تعددة، أم مطّ الصوت الشامي أم خطفه في اللهجة المصرية، أم انحباسه ثم اندفاعه في المغربية؟ أم تُحْمَلُ كل هذه البيئات على تنغيم أهل مكة فنكلّفهم ما لا يُطاق؟

– ويقول: (ولعل في هذا.. ما يفسر لنا بوضوح اتساق لغة – أكلوني البراغيث – مع اللّغة العربيّة السليمة. ولا يحول دون قبولها، مع كثرتها في كتب التراث، ومع وجودها

في القرآن الكريم وفي الحديث الشريف، يقول تعالى: ﴿ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ﴾ [المائدة: ٧١] ويقول: ﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ [الأنبياء: ٣]، وجاء في الحديث: "يتعاقبون فيكم – ملائكة بالليل وملائكة بالنهار" ص – ١٩٢.

- وأقول: **أولاً** لم يأتِ الكاتب بجواب: (ولا يحول دون قبولها، مع..). وهو غالباً.. إلا لأن النُّحاة اعتبروها شاذة ساقطة.

وثانياً: خلط الكاتب بين نوعين من الاستعمال: الأول – (أكلوني البراغيث). والثاني: "وأسرّوا النجوى الذين ظلموا".

فعبارة (أكلوني البراغيث) تختلف اختلافاً جوهرياً عن عبارة القرآن: لأن (البراغيث) لا يستعمل معها (واو الجماعة) عادةً، كما لا تستعمل مع كل جمع مذكر لغير العقلاء **إلا لغاية البلاغة**، وإنما تستعمل مع العقلاء فقط. – وهنا نقول: لا يجوز أن أقول: (أكلوني – اللصوص) قياساً على الآية السابقة بدون غاية بلاغية، أما الآية فاستعمالها صحيح، لأن (الواو) تردُ مع العقلاء (الذين ظلموا)، ولأنها جاءت لغاية بلاغية.

- بيد أني لا أوافق الكاتب إذ يقول: (فما كانت الواو في "وأكلوني البراغيث" إلا لتوكيد الفاعل) ص:١٩٣ – بعد أن أجرى عدداً من صور التحويل على العبارة التي تبدأ بقوله: (أكل البراغيثُ هم إياي) – أقول: لأن التوكيد لم يرد في اللّغة سابقاً المؤكَّد – بفتح الكاف – وتحويلاته هذه – إلى خطئها – أكثر تعقيداً من (علل النحو) التي اعترض هو عليها، يقول المؤلف: (فتكون الجملة التوليدية التي تتضمّن المعنى القريب (أكل البراغيثُ إياي) - VSO – تتحول إلى: (أكل البراغيثُ البراغيثُ إياي VSSO -) أو: (أكل البراغيثُ إياي)، فالتحق الضمير بالفعل، ولكن برسم آخر، وهو – الواو – التي هي لاحقة تعبر عن (البراغيثُ إياي)، ثم جرى في الجُملة تحويل آخر، طِبقاً لقواعد النّحو التحويلي، فأصبحت: (أكلوني البراغيثُ) بإضافة نون الوقاية التي لها وظيفة صوتية نصّ عليها عُلماء العرب في كثير من أعمالهم، فما كانت الواو إلا لتوكيد الفاعل في هذه اللهجة) ص - ١٩٢.

- بالله عليك: هل صحيح أن ذِهن العربي الأمُّي يتّسع لكل هذه التحويلات المُعقدة؟ وإذا اتسع.. أتظن أن أحداً يُطيق أن يتعلّم لُغة، بعضُ عباراتها تمرّ بكل هذا

التعقيد، ولو كان هذا الأحد هو الخليل ابن أحمد الفراهيدي في القديم.. صاحب العقل الرّياضي العبقري، أو أنشتاين في الحديث.. صاحب النّظريّة النّسبية؟!

- بلى، لا أوافقه، لأنّ التوكيد لم يَرِدْ سابقاً للمؤكد - كما أسلفنا - ولأن الواضح لا يؤكد بالغامض. إن الضمير غامض والاسم واضح، فلا يمكن أن يؤكد الضميرُ (=الواو) الاسمَ الظاهرَ.

- والحق عندي أن (البراغيث) في هذه العبارة هي (خبر) لمبتدأ محذوف (في نحو اللّغة) تقديره: (هي)، فعندما قال: (أكلوني).. تنبه إلى أن العبارة غامضة أيْ: أَخصُّ البراغيثَ: البراغيث.. أي هي البراغيث، أو جاءت - البراغيث - للتوكيد، أو هي منصوبةٌ على الاختصاص.

أمّا لماذا لا تصح الواو مع البراغيث أصلاً، عندما تُستعمل استعمالاً حقيقيّاً، ولا يصح هذا النوع من الاستعمال، لغةً معتمدةً.. وإنما صحت هنا؟ فذلك.. لأنّ الأعرابي استعمل الواو استعمالاً - مجازياً - (من باب الاستعارة التصريحية)، فلما أكثرت البراغيثُ لدغهُ كبرت في إحساسه حتى تصورها رجالاً يُقرِّصونه، فقال ملهُوجاً: (أكلوني) ثم تنبه أن ليس من رجال، فأردف: البراغيث، أي: هي البراغيث، أو - أخصُّ البراغيثَ، ومع أن هذا التحليل طويل في الكلام " **غير أن العبارة الأصلية والجواب يلمعان في ذهنه في طرفه عين**".

- وقريب من هذا التعبير ما ورد في القرآن الكريم، قال تعالى عن الكافرين:

﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾

[فصلت: ٢١] - فلِمَ يقولوا: (لِمَ شهدتِ؟) وإنما خاطبوها خطاب العقلاء، لأن الله تعالى أنطقها.. فشهدت عليهم، فصارت في شعور الكافرين عاقلةً. والبراغيث.. تصرّفت تصرُّف العُقلاء الأعداء، فأكثرت من تقريص هذا الأعرابي الذي لا عهدَ له بالبراغيث، فتضخّمت مشاعره بها، فشكا ما أصابه منها، وكأنه يشكو من رجال اعتدَوْا عليه بالضرب أو بالتقريص.

- **ومن حيثُ شخصنةُ غير المشخصن أصلاً، وتحويلُهُ إلى عاقل يخاطب** (سواءٌ أجاء مفرداً - أم جاء جمعاً) - لا يختلف قول الأعرابي هذا عن قول ابنة طريف التي تضخم في وِجدانها الحزين الحسّاس أشجارُ الخابور، فأحسّت أنها أحياء عاقلة، ولذا عتبت على هذه الأشجار التي لم تُسقط أوراقها، حُزناً على أخيها - ابن طريف، الذي

قُتل في معركة من المعارك، قالت: (فيا شجر الخابور)، فشخصنته، وأعطته سِمة العقلاء، وما ينتظر من العقلاء، من تعاطفٍ، تعاطف بعضهم مع بعض، ومواساة بعضهم لبعض.

– إذن.. القضية هي قضية بلاغية أصلاً، وليست قضية لغويّة، ومع ذلك.. فصدر اللّغة يتّسع لمثل هذه التغييرات اللغوية التي تقتضيها حاجات بلاغية، لأنّ اللّغة ذات منطق مَرِن، فهي (أي – اللّغة العربية) تَعي أن دورها الحقيقي – الوظيفي أن تعبِّر عن معاني العقل، وعن خلجات النّفس، ولهذا.. فهي ترى من وظيفتها وواجبها أن تكون مُستعدة للتّعبير عن كِلا وجهي حياة الإنسان. أما تراها اتسعت للتعبير عن العقل الكلي والوجدان الكلي – المتمثّلين في القرآن الكريم – أولاً، وفي الحديث النبوي الشريف – ثانياً – أبلغَ تعبير وأدقَّ تعبير، فكان التعبير في القرآن مُعجزاً، وفي الحديث النبوي، بلاغة تنزل دونها بلاغة الشعراء والبلغاء؟[1]

– والآن – أظن أنه قد وضح أن عبارة القرآن: "وأسروا النّجوى – الذين ظلموا" وعبارة الحديث: "يتعاقبون فيكم – ملائكة بالليل وملائكة النهار"، تختلف عن عبارة (أكلوني البراغيث) اختلافاً جوهرياً.. فالعبارتان لغة معترف بها، لأنّ (الواو) في (أسروا) هي واو الجماعة قد استعملت على وجهها، ولأنّ عبارة (الذين ظلموا) هي خبر لمبتدأ محذوف هو (هم) أي: جاء الضّمير (هم) جواباً لسؤال مقدرٍ ولازم: (من هم الذين أسروا النجوى؟) والجواب: "هم" أو هي توكيد، أو في محل نصل على الاختصاص).

– ومثلها تماماً عبارة الحديث: (ملائكة بالليل وملائكة بالنهار) فهي خبر لمبتدأ محذوف جاء جواباً مُقداراً لسؤال مُقدّر وهو: (من هم الذين يتعاقبون؟) – وأما (الواو) في (أسروا) وفي (يتعاقبون).. فهي ضمير متصل في محل رفع فاعل. أو هي توكيد، أو منصوب على الاختصاص.

– وكما ترى.. فإنه يجوز إعرابان ضعيفان لكل من (البراغيث/ الذين ظلموا/ ملائكة بالليل) الأول – هو البدل، فالبراغيث.. بدل من الواو – والذين.. بدل من الواو – و(وملائكة) بدل من الواو. وكلها.. بدل مطابق. والإعراب الثاني: النّصب على – الاختصاص – أي: أكلوني (أعني البراغيث)، و"أسرّوا النّجوى" (أعني: الذين ظلموا)

---

(١) في كتابي (منابعُ الشعر، ومكانةُ الشاعر) – استخلصت إحدى عَشْرَةَ – خاصيةً، يتفوق فيها الحديث الشريف على أجود الشعر (ص – ٧٠ – ٧٥).

ثم.. يتعاقبون فيكم (أعني: ملائكة بالليل). مع وجوب حذف الفعل (أعني) في اللفظ، إنما هو يذكر تقديراً، شأنه دائماً مع النصب على الاختصاص، أي – مع نصب الاسم المخصوص.

- أما "ثم عموا وصموا – كثير منهم" فهي مختلفة ومُتّفقة مع "وأسروا النجوى.." لأنّ (كثيرٌ) هي بدل بعض من كل، أيْ: هي بدل من الواو في (عموا) وفي (صموا)، لأنك لا تجدها جواباً مكافئاً لسؤالك: من هم الذين عموا وصموا؟ إذْ لا يصح أن يكون الجواب كثيراً منهم، وإنما جواب السؤال هو: هم بنو إسرائيل، فتأكّد بذلك بدلية (كثيرٌ منهم). والله تعالى أعلم.

ملاحظات لغوية:

في الصّفحات السابقة ناقشنا أفكاراً لغوية، والآن نُناقش بعض الاستعمالات اللغوية التي جانَبَها الصّواب، وهي:

١ – **يقول الكاتب:**(ولكنني كنت أنتظر لحظة منه لأفرغ لذوي الحقوق شيئاً من حقوقهم)ص٨.

– **وأعتقد أن كلمة (لأفرغ)** استعملت في غير موضعها، والصواب مكانها (لأقدم) لذوي الحقوق شيئاً من حقوقهم). أو أن كلمة سقطت، وهي (لإعطاء) – ذوي الحقوق - ...

٢ – **ويقول:** (وإنما استخدم لمصطلح عِلم اللّغة! ليُشير إلى البحث في أصل اللّغة ونشأتها وما إن كانت توقيفاً أو اصطلاحاً أو تقليداً ومحاكاة) ص - ١٥.

– **وأقول: إنّ (إنْ) هذه شرطية،** ولا معنى للشرط هنا.. ولذلك فالصواب أن يقال: (ليشير إلى البحث في أصل اللّغة ونشأتها.. أكانت توقيفاً أم اصطلاحاً أم كانت تقليداً ومحاكاة؟ أي: الصواب.. استعمال الاستفهام، أما الشرط.. فلا شرط هنا، وإلا.. فإذا كان يصح الشرط - هنا - وفعله هو (كانت).. فأين جوابه ولو تقديراً؟ إن هذا استعمال خاطئ يُستعمل كثيراً في العصر الحاضر.

٣ – **ويقول:** (ولكن أحداً من هذين لم يشرح معنى مصطلح فقه اللّغة) ص - ١٧.

– يدلُّك على خطأ هذا التعبير أن تكمل بعده: (ولكن شَرَحَهُ الآخر). والصواب: (ولكن هذين الرجلين لم يشرح أيّ منهما معنى مصطلح فقه اللّغة) هذا التعبير. ينفي

الشرح عن (من كلٌ منهما)، أي: ينفيه منهما الاثنين، ولكن تعبير الكاتب ينفي الشّرح من أحدهما، ولذا.. ويجوز أن يكون وقع من الآخر.

٤ – ويقول: (ويعتمد هذا البعد على أن الوحدات التي تكون اللّغة تكتسب قيمتها الدلالية اللغوية بتميّزها عن بعضها، اعتماداً على ما فيها من فروق) ص - ٤١.

أقول– والخلل في (عن بعضها) والصواب (بتميزها.. بعضها عن بعض) لأن معنى (بتميزها عن بعضها) (بتميّزها كلها عن بعضها)، وليس هذا هو المعنى، بل المعنى.. بتميّز كل واحد منها عن الآحاد الأخرى، أو بتميّز بعض الوحدات عن الوحدات الأخرى.

٥ – ويقول: (كتب كتابه الذي اشتهر به وعُرف كما لو لم يكتب غيره) ص٤٢.

أقول – معروف أن (لو) لها معنيان في العربيّة ليس غير. **الأول** – أنها للشرط، مثل: لو اجتهدت لنجحت. أو :﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢]. **والثاني – التمني**، ومثاله:﴿ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝ ﴾ [القلم: ٩]، فهل (لو) عند الدكتور المؤلف لها أحد هذين المعنيين؟ طبعاً، لا. وإنما استعمالها عنده هو ترجمة لتعبير إنجليزي. وصواب التعبير هو: (كأنه لم يكتب غيره).

٦ – **ويقول**: (ونرى أن في بعض هذه الأسس أو الجوانب غموض وتعميم) ص٦٨.

– الصواب: (غُموضاً وتعميماً)، لأن (غُموضاً) هي اسم (أنّ) مؤخّر، و(تعميماً) معطوف عليه. وقد يكون خطأ في الطباعة.

٧ – **ويقول**: (فمِمّا هو واضح من الأمثلة السابقة.. أن الترتيب أمر يُراد به سراً من أسرار العربيّة) ص - ٩٢.

والصّواب: (سِرٌّ) لأنه نائب فاعلٍ للفعل المبني للمجهول (يُراد). والله تعالى أعلم.

انتهى القسم الأول – نحمد الله تعالى على – ما – مَنّ به علينا

القِسمُ الثاني

العربيّة الفُصحى – لُغَةٌ إلهامِيّةٌ

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ﴾

(سورة البقرة: ٣١)

- ملاحظة : هذه ثلاثة بحوث، أوردت فيها أدلة كثيرة (لاتقِلُّ عن عشرين دليلاً) تثبت أن اللغة العربية الفصحى "إلهامية" وهذه الأدلة لم تَرِدْ في كتاب، فالقدامي والمحدثون، سواءٌ منهم الذين اعتبروا العربية إلهامية – والذين اعتبروها وضعية – لم يُوردو –لها– أدلّة تُذكر.

إنما كانوا يعبرون عن "قناعاتٍ" غيرِ مُعلّلةٍ.

الموضوع الأوّل

في فقهِ العربيّة وبلاغتِها... (١)

اللّغة العربيّة - أإلهامٌ هي أم مُواضعَةٌ واصطلاحٌ؟

- أنا أجزم أنّ اللّغة العربيّة "إلهام" وليست مُواضعة واصطلاحاً، لأسباب كثيرة سنذكرُها خلال هذا البحث، شيئاً فشيئاً، نامَ العربُ قبل الإسلام - ليلةً - ثم استيقظوا صباحاً، وإذا هم قد نسوا لغتهم التي كانوا يتكلمونها نِسياناً تاماً، وأخذوا يتكلمون العربيّة الفُصحى، وقد يستغرب القارئ ذلك، ولكني أُذكّر بشيئين لنُخفّف الغرابة:

الأول: قوله تعالى: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٠٦]، إن قوله تعالى ﴿أَوْ نُنسِهَا ﴾ يعني أن الله تعالى أنزل بعض الآيات، لغاية مؤقتة، ثم أنساها الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام رضوان الله عليهم، فلم يعد الرسول الكريم ولا صحابته الأبرار يذكرون شيئاً منها. ولو كلمةً واحدةً، بل لم يعودوا يذكرون أن شيئاً من الآيات نزل، ثم أنساهم الله تعالى إيّاه.

- أما ما نُسِبَ إلى مجاهد بأنه فَسَّرَ ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ ﴾ أي: ما نمحو من آية، فَسَّرَهُ بأنه مثل محو آية: "الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتةَ"(٢) فليس قولاً موثقاً، أي هو قول مردود، لأن نظم القرآن الكريم أعلى بكثير من هذه الجملة التي لا تخلو من ركاكة، فالقرآن كلّه ليس فيه كلمة "ألبتةَ"، هذا فضلاً عن أن "ألبتةَ" قلقلة في هذا الموضع، فهي غالباً ما تستعمل مع النفي، وليس مع الإثبات.

- يضاف إلى ذلك (للدلالة على فهاهَةِ هذه الجملة) أن القرآن الكريم قال: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ [النور: ٢]، فقدّم الزانية على

---

(١) - كتبت سنة - ٢٠٠٥م.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ١/١٠٣، دار القرآن الكريم ١٩٨١، اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني.

الزاني (لأسباب ليس هنا مقام ذكرها). فكيف قدّم القرآن الزانية على الزاني فلو كان هذا القول صحيحاً لما قدم الشيخ علي الشيخة؟ إن ذلك خُلْفٌ من القول، لا يمكن أن يقع في كلام الله جلّ وعلا، ثم جاء في هذه العبارة المردودة: (إذا زنيا) والمعروف أن "إذا" تأتي للاحتمال الكبير، أمّا التي تأتي للاحتمال القليل فهي "إن"، ومن المعلوم – بالضرورة – أن احتمال زنى الشيخة والشيخ قليل جداً، فلو أن الكلام من الله تعالى، لما كان يمكن أن يأتي في هذه العبارة إلا "إنْ" التي تدل على التقليل، لأن القرآن الكريم تتصاقب فيه الألفاظ والمعاني على أكمل وجه وأتمّه، ولهذا كان معجزاً.

- حاصلُ القول، أن ما يُنسيه الله تعالى رسوله الأعظم صلى الله عليه وسلم وصحابته، لا يعودون يذكرون منه شيئاً، لا لفظاً ولا معنى.

- **والشيء الثاني الذي يُخفّف** من الغرابة أن الإنسان قد يفقد ذاكرته، نتيجة مرض أو حادث، فلا يعود يذكر شيئاً مما مضى، ولكنه يُدرك ما يَمْثُلُ في الحاضر فَحَسْبُ. ومثله الإنسان المُصاب ببعض أنواع "الصّرع".. فهو يأتي أعمالاً وأقوالاً، في حال الصّرع، وعندما يُفيق لا يذكر من الأعمال والأقوال شيئاً.

- **وهكذا كان حال العرب، نسوا لُغتهم السَّابقة، واستيقظوا على الفُصحى، ولعلّ لُغتهم السَّابقة هي "العربيّة البائدة" التي نسيها العرب**، وقد يُسأل": ألم تترك آثار من العربيّة البائدة؟ فأجيب: بأن لا، أما تعلم أن الله تعالى هيَّأ كل ظروف الجزيرة العربيّة لتكون (مِهاداً) للإسلام ينطلق منها إلى بقاع المعمورة آنذاك؟ فلم يبق شيء من هذه اللّغة البائدة، لكي لا تُزاحم العربيّة الباقية، هذه التي ألهمها الله تعالى العرب، قبل الإسلام بحوالي مائة وخمسين إلى مائتي سنة، ولعل تلك العربيّة البائدة هي لُغة عاد وثمود الذين قال الله تعالى فيهما: ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝ ﴾ [الحاقة: ٥ – ٨].

فمعنى قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝ ﴾ ؟ هو النَّفي المُطلق أن تكون بقيت لهم باقية، من لغة أو شعر أو علم، والنَّفي جاء عن طريق الاستفهام لكي يلفت الاستفهام المتلقي لفتاً قوياً لحقيقة هذا النفي ووكادته.

- بلى، هيّأ الله تعالى ظروف الجزيرة العربيّة، لتكون مِهاداً للاسلام، ينطلق منها إلى بقاع المعمورة آنذاك، أفلم يجعل الله تعالى من العرب أقواماً شجعاناً أشداءَ (عن طريق التغازي بينهم) لكي يكونوا أهلاً لحمل رسالة الإسلام إلى العالم؟ لاشك أن الإسلام ضاعف ما في نفوسهم من شجاعة ونجدة، ولكن الإسلام بُنيَ على نفوس عامرة بالشجاعة والنَّجدة، لأن الله تعالى أرادت مشيئته، أن تتم الأمور من خلال واقع ملموس أصلاً، أما قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ [ق: ٣٨]، وهو تعالى قادر على أن يخلق السموات والأرض، وما بينهما في لحظة واحدة، و﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس: ٨٢]، ذلك لكي يعلّمنا أن الأشياء لا تتم – ما عدا ما كان مُعجزاً – إلا من خلال تفكير، وعمل ووقت.

- ولهذا، كان سهلاً على قدرة الله تعالى أن تنقل رسوله الأعظم صلى الله عليه وسلم في طَرْفَةِ عين من مكةَ المكرمةِ إلى المدينة المنورة، آنَ الهجرة، كما أسرى به في ليلة واحدة، بل في بعض ليلة، من مكة المكرمة إلى القدس الشريف، ثم عَرَجَ به إلى السموات العلا، ثم أعاده إلى مكة المكرمة في بعض تلك الليلة.

- بلى، جعل العرب على ما وصفت، لكي يكونوا أهلاً لحمل الإسلام، ولكن تخيّل – على سبيل الافتراض – لو أنزل الله تعالى الإسلام في أمة الفُرس، تلك الأمة التي وصلت من التَّرف إلى درجة من التَّرهُّل، لا تمكنها من نشر الإسلام في بقاع الأرض، فلم يعد رجالها أشداء كالرجال العرب، وكانت من الانحدار الأخلاقي والقيمي، بحيث لم تعد نفوسها قادرة على الإشراق بالإسلام، وعلى أن تكون عامرة بأنواره السّاطعة، ودلالاته العظيمة، وروحانيّته التي تصل بين الأرض والسماء، بين الإنسان العامر الفؤاد، وبين ربّه تعالى خالق الكون كله والعباد، لمعاش ثم معاد.

- إذن، لن يثبت الإسلام في الأرض، ولن يعبد الله تعالى فيها لو أُنزل على الفُرس، ومثل الفُرس.. الروم، حَذْوَكَ النَّعل بالنَّعل.

- ثم.. لماذا لم يحتل الفرس أو الروم مكةَ المكرمةَ، وهما أكبر قوَّتين في العالم آنذاك؟ أوْ لماذا لم يحتلها الغساسنة أو المُناذرة؟ هناك.. أسباب طبيعية – لا مجال

لذكرها – هيأها الله تعالى لتصدّهم عنها.. يُضاف إلى ذلك أن الله تعالى أعمى قلوبهم عنها، لكي تظل بكيفية صالحة، لكي تكون "مهاداً" للإسلام العظيم.

ثم ألم تعلم أن من تهيئة ظروف الجزيرة العربيّة – بمشيئة إلهية – أن جعل جيل الصَّحابة - رضوان الله تعالى عليهم- . أفضل جيل، حتى تقوم القيامة، تطبيقاً لفهمهم الصّافي للإسلام، وأفضل جيل إيماناً وأخلاقاً، واجتهاداً في العِبادات، وجهاداً في سبيل الله؟ كل ذلك، وهم من أمة أميّة تقل بين أفرادها معرفة القراءة والكتابة ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ [الجمعة: ٢]، أُميّة حرف، وأُميّة هِداية.

- وأن جعل من تهيئة ظروف الجزيرة العربية - كبار الشعراء (كشعراء المُعلّقات) من البادية، أما الذين يعيشون في مكة والمدينة (ما عدا حسّان ابن ثابت)[1]، الذي أعده ربه لكي يكون المنافح عن رسالة الإسلام) فقد كانوا شعراءَ صغاراً، من الدرجة الثالثة، كابن الزِّبَعْرى الذي كان –لشقوته- يهجو الرسول صلى الله عليه وسلم الكامل، ذلك لأمرين: الأول: أن يكون قول مُشركي مكةَ المكرّمةِ تافهاً فاسداً، واضح البطلان، إذ يقولون – كما ورد في كتاب الله تعالى - : ﴿ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الصافات: ٣٦].

- فلو كان شعر قريش شعراً عظيماً كشعر البادية، لكان قولهم مما يُلْتَفَتُ إليه إلى حَدٍّ ما، لأن القرآن الكريم على كونِهِ كان معجزاً، (فإنه يرتفع ثلاث درجات على شعر المعلقات)[2]، فإن ذلك يجعل من ادّعائهم بأن القرآن الكريم شعر.. شيئاً يلتفت إليه، أما وشعرهم، على ما هو من تدني المستوى، فإن كل – مُنصفٍ من أيامهم وحتى تقوم الساعة – يحكم بأنهم يمارون ويماحكون ويكابرون، ويقولون ما ليسوا على قناعة به، أو ما يشبه القناعة.

---

(١) أكتب "ابن" دائماً بألف وإن وردت بين علمين، لأن عدم وجود الألف نقص في الإملاء، إذ لا مُبرر مُقنع لعدم وروده حتى وإن كانت "ابن" بين علمين، وبهذا نُخفّف على المتعلّم فنجعل "لابن" قاعدة واحدة. وقد سلف القول بمثل هذا.

(٢) الشعر الجاهلي، هو أعظم نص أدبي بشري، في اللّغة العربيّة، ويرتفع فوقه درجة الحديث النبوي الشريف، فالحديث يعلو على الشعر الجاهلي بإحدى عشرة خاصية، كما أوردت ذلك في كتابي "منابع الشعر، ومكانة الشاعر" (ص- ٧٠- ٧٥) ثم تكون فوق الحديث درجة فارغة. ثم يأتي بعد هذا الفراغ القرآن الكريم، لأن الحديث أعلى نص بياني، وهذا.. معنى أن القرآن يرتفع على الشعر الجاهلي ثلاث درجات، درجةً يحل فيها الحديث النبوي، ودرجة فراغاً، والدرجة الثالثة هي درجة القرآن الكريم المعجز.

- وهذا مشهور ومعروف من قول الوليد ابن المغيرة، أحد زعماء قريش، الذي استمع للقرآن الكريم يتلوه رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما ورد في سيرة ابن هشام، **فلم يقبل – في حديث مع قومه – أن يصفه بأنه شعر، أو سجع كُهّان، أو سحر**، وإنما تواطأ معهم على أن يقولوا لوفود القبائل بأنه "سحر" يفرق بين المرء وزوجه، وبين الأب وابنه والأخ وأخيه[1].

- لأن ظاهر الأمر واحد، فالرجل الذي كان يُسْلِم كان يُفارق زوجته –إذا بَقِيَتْ على الكفر– ، والزوجة التي كان تُسْلِم كانت تُفارق زوجها، والأب الذي كان يُسْلِم كان يتباعد عن أبنائه، والإبن الذي كان يُسْلِم كان يتباعد عن أبيه غير المسلم، **الظاهر واحد والجوهر مختلف، اختلاف النّقيض للنّقيض**، ولكنهم كانوا يُخطّطون لإبعاد قبائل العرب التي تَفِدُ على مكة المكرمة في المواسم، عن الإسلام بهذا الظاهر.

- **بل – لماذا أرسل الله تعالى طيراً أبابيل – (جماعات)، فرمت أبرهة وجيشه بحجارة** من سجيّل فقضت عليهم، وجعلتهم كعصف مأكول؟ أليس ذلك من المُمهِّدات **للإسلام العظيم**؟ ومن إدخال الشّعور إلى رُوع العرب جميعاً، وقريش خصوصاً أن مكة المكرمة ذات شأن عظيم، وأنها أهل لأن تكون قِبلة العرب ومحجَّهم، ثم.. قِبلة العالم الاسلامي، بعد انتشار الإسلام العظيم؟

- **وآخرُ ملاحظة بهذا السيّاق**، أن اللّغة العربيّة لو كانت قد نمت نمّواً طبيعياً لما وصلت إلى ما وصلت إليه من الغِنى في المُفردات والمُرونة في التعابير (التي تتجاوب مع أدق الخلجات النفسية) بحيث أصبحت **بهذا الغنى الإلهامي، قادرة على التعبير عن معاني القرآن العظيمة**[2]، وليس هذا شأنَ اللُغات التي تنمو نمّواً طبيعياً، لأنّ اللّغة – في هذه الحالة – **تأتي تجاوباً** مع معاني البشر –التي هي أضيق من معاني القرآن الكريم، **التي لا تحملها إلا لغة ألهمها الله تعالى للبشر**[3].

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٢٧٠.

(٢) سيكون الحديث عن غنى كلمات اللّغة العربيّة، عن طريق الاشتقاق الذي لا تضاهيها به لغة أخرى، وعن مُرونة التعبير التي تتفوق به على كلّ اللُغات، سيكون موضوع مقالة لاحقة إن شاء الله تعالى.

(٣) قولي: (لا تحملها إلا لغة ألهمها الله تعالى البشر...) كقول الخليفة عثمان – رضي الله عنه – عندما انتدب لجنة تضع القرآن بلغة مُوَحَّدة، وفي مصحف واحد، قال لهم: (إذا اختلفتم في شيء فردّوه إلى لهجة قريش، لأن القرآن بها أنزل).

أما ترى أن شعر البادية في الجاهلية كان أغنى الشّعر العربي منذ فجر الإسلام، وحتى يوم الناس هذا، بل وحتى تقوم الساعة، وإن كل الشّعراء في كل عصور الإسلام، كانوا يتطلّعون دائماً –لا إلى تقليد صوره، وتشابيهه واستعاراته التي كان عليها طابع البيئة البدوية (فلو كان هذا ما يتطلعون إليه لنزل بمرتبة الشاعر، لأن الشّاعر – والأديب عامة – لا يُبدع إلا إذا عبر عمّا يحسّ به من موجودات بيئتِهِ)، وإنما أعني أنهم كانوا يتطلّعون إلى أسلوبه في "كيفية" اختيار الألفاظ في سياقها، واختيار الصور والتشابيه والاستعارات.. لكي تقع موقعها المُناسب في سياقها، مع ضرورة تعبيرهم عن بيئاتهم ومعانيهم، وبغير هذا.. لا يعظّم الأدب.

- ومن المعلوم – بالضرورة – أن البيئات البدويّة الفقيرة بمفردات الحياة – عادةً – وبالمعاني هي فقيرة – عادة أيضاً – بالمفردات اللغوية، وبالأدب الرّفيع، لأنّ الأدب الرّفيع لا يكون إلا إذا كانت البيئة غنيّة باللّغة، غنيّة بمُفردات الحضارة – فكيف جاء الشّعر الجاهلي.. مُناقضاً لهذه البديهية، لو كان ناتجاً عن لغة وُجِدت بالنّمو في بيئةٍ فقيرةٍ – فقيرةٍ باللّغة وفقيرة بالمعاني، إذ المعاني تتبع المُستوى الحضاري، فكلّما كانت البيئة ذات حضارة راقية كانت معانيها أغزر، وكلما كانت البيئة فقيرة بمُفردات الحضارة كانت معانيها أنزر؟.

جاء الشعر الجاهلي مُناقضاً لهذه البديهيّة، لأن لغته هي لغة ألهمها الله تعالى العرب، لكي تَشرُف بحمل القرآن الكريم، وألهم أهلها في البادية، المعاني الشعرية

- هذان القولان (اللذان كرّر مثلهما ما لا يحصى من المسلمين) – هما أقرب إلى "التشبيه" الذي حُذِف أحد "رُكنيْه" وحُذِف طرفاه. مثال ذلك.. أننا نقول: (رجل شريف)، للرجل ذي الأخلاق العالية – تشبيهاً له – في الأصل – بالمكان – المشرف – من الأرض. مع حذف هذا الركن الثاني من التشبيه، وهو المشبه به، ولكن هذا المشبه به، قد لوحظ ذهنياً، وإن لم يورد، لفظياً.

- والحق أن اللغة العربية لم "تحمل" القرآن. وأن القرآن لم ينزل بها..! لأن القرآن كلام الله تعالى قديم، أمّا اللغة العربية.. فحادثة. إذنْ، عندما يقال حملته اللغة العربية – أو أُنزل باللغة العربية.. فليس ذلك بأكثر من "تشبيه" حذف منه – المشبَّهُ به – وهو لغة القرآن، وأبقيَ – المشبه – وهو اللغة العربية.

- وقد صح هذا الحذف بسبب – التماثل – بين ألفاظ القرآن، وألفاظ من ألفاظ اللغة العربية. (وتفصيل ذلك كله، في القسم الرابع من هذا الكتاب – تعليقاً على عنوان كتاب للدكتور عودة أبو عودة، والعنوان هو: (التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي، ولغة القرآن).

- إذن، أينما ورد في كتابي أيُّ عبارة تحمل المعنى السابق – الذي أورده الخليفة عثمان، أو الذي أوردته، أو ما شابهه – فإنما المقصود به عندي معنى – المشابهة – أو المماثلة – ليس أكثر.

الراقية (التي لا تصدر عادةً إلا عن حضارة، لا بداوة)، لكي يصل العرب في مُستوى المعاني والتفكير إلى ما يجعلهم أهلاً لفهم القرآن الكريم، وَحَمْلِ رسالة الإسلام العظيم.

- وإن ما يدعيه علماء الطبيعة من "الطفرة" تحدث أحياناً، وهم يلجأون إليها لتفسير ما لا يجدون له تفسيراً ليس دقيقاً، فالطفرة لا وجود لها في حركة الحياة ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝ ﴾ [الفرقان:٢].

- **ولهذا.. فما كان يمكن (من باب الفَرَضِ التوضيحي) أن ينزل القرآن المُعجز بفصاحته وبلاغته، على أمة ليست ذاتَ فصاحة وبلاغة، وليست ذات أدب على مُستوى عالٍ من الفصاحة والبلاغة، إذْ كيف تقفز عقولهم قفزاً إلى فهم القرآن، ما لم يتعوّدوا على فصاحة وبلاغة، هما خطوة ضرورية لصعود سُلَّم الفصاحة والبلاغة إليه؟**

- لاشك أن القرآن المُعجز يعلو الشعر الجاهلي بثلاث درجات في الفصاحة والبلاغة، كما أسلفنا القول، ولكن، لا شك أن العرب لن يفهموه لو كانت المسافة بينه وبين لُغتهم عَشْرَ درجات مثلاً.

- **بل كيف "يقفز" وجدانهم قفزاً إلى "تذوّق" جمال القرآن، لو لم يكن لديهم شعرٌ راقٍ، ولد في البادية، ووصل عن طريق الأسواق الأدبية إلى مكة المكرمة، شعرٌ راقٍ هذّب وجدانهم، وصقل أذواقهم، بحيث أصبحت قادرة على تذوّق ما في القرآن من جمالٍ عالٍ، يملأ النفس متعة وروحانية؟**

- وبهذه المناسبة نتذكر إنكار طه حسين (ت١٩٧٣م) في كتابه "في الشعر الجاهلي" صحة نسبة هذا الشعر العظيم إلى الجاهلية!! ومع أن الأدلة التي تنقض رأي طه حسين هذا. كثيرةٌ، غير أن هذا السياق ليس مجال إيرادها، لذا فإننا نكتفي بذكر ما نَبَّهَ له السياق، وهو أن القرآن المُبين يستحيل أن ينزل على أمة ليست بذات بيان رفيع، ولن يوصف بيانها بأنه رفيع حقاً، إلا إذا كانت ذات أدب رفيع (وأدبها الرفيع هنا هو الشعر)، **لأنّ الطفرة في الحياة غير معروفة**، تبعاً لما اقتضته سُنّةُ الله تعالى في الكون، كما نوَّهنا بذلك آنفاً. **فإنكار طه حسين – بسبب هذه العلة وحْدَها – يصبح إنكاره "تافهاً" قلّدَ بهِ أستاذه المستشرق – مَرْجليون – فكيف، إذا ضَمَّتْ لها أكثر من عَشْرِ علل أخرى؟**

- وإن كونَ الشّعر هو الفنُّ العظيمُ الوحيدُ، الذي عرفه العرب في الجاهلية يقودنا إلى تساؤل هو: لماذا لم يكن للعرب عراقة في النَّثر كما كانت عراقتهم في الشعر؟ بل لماذا لم يكن لديهم فَنٌّ روائي (وهو فنُّ القصة الطويلة) كما كان لديهم فن الشعر؟

- **الجواب هو: لم يكن لديهم نثر فَنِّيٌّ كرقيِّ الشّعر، لأن النثر مهما كان راقياً، لا يصل في دسامته الفنية إلى مُستوى الشّعر الرّاقي،** لأن الشّعر هو مزيج من الوجدان الموهوب، ومن العقل والخيال، ونصيب الوجدان فيه والخيال.. كبير، وأما النَّثر، فنصيب العقل فيه عادة يكون أكثر من نصيب الخيال والوجدان، مما أقلَّ تأثيراً في النفس البشرية وإغناءاً[1] للوجدان من الشّعر، ولهذا لم يكن لازماً ليكون مِهاداً لا غِنى عنه لفهم القرآن والتأثر بجماله، خِلافاً للشّعر لما ذكرنا له من خصائص.

أمّا الرواية (القصة الطويلة)، فهي أقل لُزوماً من النَّثر الفني، على أنه غير لازم، لأن الرواية، عادة تعتمد على التّخطيط العقلي، لأحداثها وشخصيّاتها، ولبدايتها ووسطها ونهايتها، وما يهدف إليه الرّوائي منها، أما لُغتها، فغالباً ما تكون بسيطة غير غنيّة بالخيال، (على مُستوى التشابيه والاستعارات والكِنايات)، غير غنية بكثافة التعبير المؤثر في الوجدان (العواطف والمشاعر والأحاسيس)، لأن من طبيعتها أن تكون كذلك.

- **هنا.. قد يقال:** لكن ظروف الجزيرة العربيّة الفقيرة بتنوع المناظر، الفقيرة بمظاهر الحضارة، هي التي منعت من وجود الفن الروائي فيها، فأجيب: بأن ذلك صحيح، لأن الرِّواية تحتاج – لوجودها – إلى بيئة غنيّة بالمناظر، غنيّة بالحضارة، لهذا

---

(١) "إغناءاً" أكتبها دائماً بألف منونة بتنوين الفتح بعد الهمزة، لأنها لا تختلف في صورتها ووزنها عن مثل "إنجازاً" أو "إرجاعاً" فالزاء والعين حرفان صحيحان، والهمزة حرف صحيح مثلهما، فلماذا نورد الألف المنونة بعد مثل الزاي والعين ولا نوردها بعد الهمزة؟ ليس لذلك علة معقولة، إذ هم يقولون ان أصل الهمزة ياء، لأنها من بنى يبني، والياء من حروف العلة والألف التي تسبق الهمزة حرف علة، فإذا وضعنا بعدها ألفاً توالت ثلاثة حروف علة والعربيّة تنفر من توالي الأمثال.

وهذه على لا منطق فيها، لأنه لو ورد حرف العلة نفسه وهو الياء، _وليس ما انقلب إليه وهو الهمزة) لأثبتناه فقلنا: "بناياً" فكيف نثبته – لو اعتمدنا وروده. وهو جائز- ولا نثبت ما انقلب إليه، والأصل أقوى من البديل، خاصة ان هذا البديل ليس في صوته حرف علة؟ هذا إصلاح إملائي واجب.

لم توجد الرّواية في الغرب إلا في القرن الثامنَ عَشَرَ للميلاد، ولم توجد في البلاد العربيّة إلا مع مطلع القرن العشرين.

- كل ذلك صحيح، ولكن لو كان الفن الرّوائي مِهاداً طبيعياً لنزول القرآن الكريم، لهيّأ الله تعالى الجزيرة العربيّة لتكون على مُستوىً من غِنى المناظر ومن غِنى الحضارة يسمحان، بل يدفعان إلى وجود الفنّ الرّوائي ولكن، **لأن هذا الفن ليس ضرورياً لنزول القرآن – كمهاد له –** جعل الله تعالى الجزيرة العربيّة على ما كانت عليه، وجعلها مؤهلة بسبب وجدان البدوي المُرهف، وخياله اللّمّاح، لقول الشعر الرَّفيع الذي لا بد منه، لكي يكون مِهاداً للقرآن المعجز البيان، حتى يفهم العرب ويتذوقوا بيان القرآن الذي **"يعلو ولا يُعلى عليه"**.

- **وبعد؛ فهذه أدلة عامة على أن اللّغة العربيّة إلهام، وليست ناتجة عن اصطلاح ومُواضعة. وهناك أدلّة خاصّة "نابعة" من خصائص هذه اللّغة، تؤكد ما وصلنا إليه تأكيداً لا يدع مجالاً للشّك في كونها إلهاماً، ولكن هذا مُرْجأ إلى مقالة لاحقة إن شاء الله تعالى.**

- ويبقى سؤال هامّ سنُجيب عليه في المقالة اللاحقة، وهو: ما رأي عُلماء اللّغة القُدامى في أمر هذه اللّغة الشّريفة، أإلهام هي أم مواضعة واصطلاح؟ فأجيب على ذلك في البحث الآتي.. إن شاء الله تعالى.

الموضوع الثاني

في فقهِ العربيّة وبلاغتِها[1]:

★ أقوالُ اللّغويين العرب القُدامى في العربيّة

★ فِريَةُ اللّغويين الغربيين بأنّ العربيّة.. ساميّة![(*)]

يقول الدكتور صبحي الصالح: "فإذا استثنينا رأي هذا العبقري – ابن جني – الذي سبق إلى القول بوضع اللّغة.. واستثنينا أيضاً آراء من تابع ابن جني على هذا المذهب السّديد، وجدنا أئمة العربيّة الباقين، يكادون يطبقون على أن اللّغة (يقصد العربيّة) إلهام وتوقيف"[٣].

ويقول الدكتور صبحي أيضاً: "أما مباحث القوم حول أصل اللّغة: أإلهام هي أم اصطلاح؟ فكانت ذات وجهين.. كلاهُما يخرج عن المنهج الوصفيّ، ثم يَتَلَوَّنُ باللون المُناسب له، أما أحدهما ففيبي "ميتافيزيقي" لا يخلو من سذاجة، كقول ابن فارس: (إن لغة العرب توقيف، ودليل ذلك قوله جل ثناؤه: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾، فكان ابن عباس يقول: علّمه الأسماء كلها، وهي هذه التي يتعارفها الناس، من دابة وأرض، وسهل وجبل وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها..). وأما الآخر: فمنطقي في تعابيره واستنتاجاته، لتأثّره بالعلاقة بين اللّفظ ومدلوله"[٤].

أقول: قول صبحي الصالح عن الرّأي الأول، بأنه لا يخلو من سذاجة.. فهو رأيه الشخصي المتأثر بما قاله عُلماء اللّغة في الغرب عن أصل اللّغات، وليس هو أول من استسلم لآراء الغربيّين، وسيتبيّن خلال هذه المقالة والتي تتبعها، أن هذا الرّأي الأول هو الرّأي الصواب، وأن اعتباره للرّأي الثاني بأنه منطقي في تعابيره واستنتاجاته، هو تأثر

---

(١) المرجع السابق، ١٧، ورأي ابن فارس وارد في كتابه "الصاحبي في فقه اللّغة وسُنن العربيّة في كلامها" ٥/ القاهرة، المكتبة السلفية، ١٣٢٨هـ، ثم المزهر في علوم اللّغة وأنواعها، ط٣، القاهرة، دار أحياء الكتب العربيّة، د.ت.

(*) – كتبت سنة – ٢٠٠٥م.

(٣) دراسات في فقه اللّغة، ٢١ دمشق، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٦٠م.

(٤) المرجع السابق، ١٧، ورأي ابن فارس وارد في كتابه "الصاحبي في فقه اللّغة وسُنن العربيّة في كلامها" ٥/ القاهرة، المكتبة السلفية، ١٣٢٨هـ، ثم المزهر في علوم اللّغة وأنواعها، ط٣، القاهرة، دار أحياء الكتب العربيّة، د.ت.

برأي الغربيّين أيضاً، وسيُبيِّن خلال هذه المقالة والتي نتبعها المقالات، خطأ هذا الرّأي، في تطبيقه على العربيّة الفُصحى خاصة.

ولكن، قبل أن ننتقل في مقالة لاحقة إلى "خصائص العربيّة" المُتميّزة – بوضوح – عمّا في اللّغة الإنجليزيّة من خصائص والمقارنة بينها وبين العربية، لأنها أسْيَرُ اللُّغات اليوم، قبل هذا، لا بدَّ من أن نُسقِط "فِرْيَةً" قال بها علماء نقوش لغوية من الغربيين.

هذه الفِرْيَةُ هي أن اللُّغات التي وُجدت في الجزيرة العربيّة، وفي العراق، وبلاد الشّام "سورية والأردن وفلسطين ولبنان" إنما هي لُغات "ساميّة"، وأنها انبثقت عن أصل لغوي واحد، هو اللّغة "الأم"، وهذه اللُّغات هي: العربيّة الجنوبيّة، والعربيّة الشماليّة "في شبه الجزيرة العربيّة"، والأكّادية "في العراق"، والكنعانيّة وفروعها "في سورية الطبيعيّة"، والآرامية وفروعها "في جنوبي سورية الطبيعية".

وقد سموها "اللُّغات الساميّة" نسبة إلى ما ورد في التوراة "في سفر التكوين – الإصحاح العاشر" من أن أبناء نوح عليه السلام هم: سام وحام ويافث، وأنه من سُلالتهم تكوّنت القبائل والشعوب[1].

وإنه لمعلوم أننا نحن – المسلمين – لا نأخذ بما ورد في التوراة من الأخبار، إلا بما يماثل ما ورد في القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف، لقول رسولنا صلى الله عليه وسلم: "لا تُصَدِّقوا أهلَ الكتاب ولا تُكذِّبوهُمْ، وقولوا آمنّا باللهِ وما أنْزَلَ"[2].

ورواية أن ساماً وحاماً ويافثَ، هم أبناء نوح عليه السلام، روِي فيها حديث ضعَّف بعض رجاله البخاري ويحيى ابن معين رحمهما الله، ونصه: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليهم وسلم: "ولد نوح سام وحام ويافث، فولد سام العرب وفارس والروم، والخير فيهم، وولد يافث يأجوج ومأجوج والترك والصقالبة، ولا خير فيهم، وولد حام القبط والبربر والسودان" (رواه البزار، وفيه محمد ابن يزيد ابن سنان الرّهاوي، عن أبيه محمد.. وثَّقه ابن حبَّان. وقال: أبو حاتم صدوق، وضعَّفه يحيى

---

(١) أنظر المرجع السابق (دراسات في فقه اللغة) - ٣٦.

(٢) صحيح البخاري ٩٥٣/٢.

ابن معين والبُخاري، ثم يزيد ابن سنان، وثّقه أبو حاتم فقال: محلّه الصدق، وقال البخاري: مُقارب الحديث، ولكن ضعّفه يحيى وجماعته)[1].

وما ورد في كتب التاريخ، كتاريخ الطبري والمسعودي، وابن خلدون غير مُوثّق، لأنه مأخوذ من مثل هذا الحديث السابق الضعيف، ومن التوراة كما سبق، وهذه الكتب التاريخية، محشوّة بالخرافات عن نشأة الأقوام السّابقة، وعن تسلسل أنسابهم، فأقوالهم تخمينية أو أقرب إلى الرجم بالغيب، وإلا فأي كتاب وجدوه معتمد في أنساب الأمم؟

ونتيجة هذا.. أن تسمية لغات هذه البلدان التي سبق ذكرها "باللُّغات السامية" إنما هي فِرْيَةٌ لا تقوم على أساس، وكل الذين اصطلحوا على هذه التسمية هم غربيّون[2] من علماء النُّقوش اللّغوية. (راجع تفصيل ذلك في بحث سابق هو: فرضية الشعوب السامية واللغات السامية – فرضية خرافية).

فالأقرب إلى القبول –كما أرى - أنها في معظمها شعوب عربية، مهدها هو الجزيرة العربيّة، ثم خرجت منهم موجات إلى البلدان القائمة شمالَ الجزيرة العربيّة، كالعراق وسورية الطبيعية، بحثاً عن الخصب، وسعة العيش، أما النسب إلى آدم أو نوح عليهما السلام، فرجم بالغيب. وقد يكون بيننا وبينهما مليون سنة - !

- أما زعمهم بأن لغات هذه الشعوب العربيّة، ترجع إلى لغة "أُمّ" انبثقت عنها هذه اللُّغات، فزعم ليس عليه ولا دليل واحد، كما ستُبيّن من خلال عرضنا لما ورد في كتاب الدكتور محمود حجازي عن اللّغة:

١ – يقول الدكتور محمود فهمي حجازي: "فعندما يقال: بأن العربيّة والآراميّة لغتان ساميّتان، فالمقصود أن اللّغتين من أصل واحد، وأنهما تطورتا عن لغة واحدة هي

---

(١) أنظر مجمع الزوائد ١٩٣/١، وإن الواقع لا يصدق هذا الكلام، فهل صحيح أن الخير في العرب والفُرس والروم؟ وإن التُّرك والصّقالبة لا خير فيهم؟ ثم إن علم السُلالات البشرية لا يجمع بين العرب والفُرس والرُّوم في عرق واحد، بل الروم غربيون، والفرس شرقيّون، والعرب جنس بشري قائم برأسه. (راجع: تفصيل ذلك في بحث سابق هو: (فرضية الشعوب السامية – واللغات الساميّة –فرضية خرافية).

(٢) أنظر محمود فهمي حجازي، علم اللّغة العربيّة، مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللُّغات السامية، ١٣٩.

اللّغة السامية الأولى، وقد افترض العلماء وجود هذه اللّغة في عصور مغرقة في القدم، لتفسير انتماء اللُّغات العربيّة والآرامية والحبشية.. الخ"[1].

- **لاحظ قوله**: "وقد افترض العلماء.." فالأمر مجرد افتراض لا دليل عليه -ألبتّةَ، أي هو رجم بالغيب، والأقرب إلى القبول -كما أرى - أن اللُّغات التي قامت في بيئة واحدة أو بيئات متقاربة، جرى بينها تقارض في الألفاظ، وقواعد الصيغ، أي الصرف، وأحياناً في حركات الإعراب، وفي الأصوات، لأن البيئة الواحدة لها دخل كبير في تكوين جهاز النّطق عند الإنسان، بحيث يستطيع أهل بيئة، نطق أصوات لا يستطيع نُطقَها أهل بيئة مختلفة، أما ترى أن غير أهل البلاد العربيّة، لا يستطيعون نطق العين والحاء.. مثلاً، كما ينطقها العربي؟

أما العلماء الذين ذكرهم حجازي.. فكلهم علماء غربيون والغربيون الذين أخرجوا الدين من "تفسير" الحياة على الأرض، لا يخطر ببالهم، ولا يستسيغون أن يفسّروا قيام لغة ما، على أساس الإلهام! فإذا أضفت إلى ذلك أن معظم الغربيين "مستشرقين وغير مستشرقين" يتبنّون موقفاً معادياً للإسلام، ولهذا.. فهم يرفضون أن تكون لغة القرآن الكريم "إلهاماً" لأنهم، لو قبلوا هذا الرأي لكانوا في هذا، قد اعترفوا بأن القرآن الكريم كتاب منزل من عند الله تعالى، وربما أنه آخر كتاب، "هكذا يقودهم المنطق" فهو أحدث كتاب، وإذن فلا مَناصَ من الإيمان به من كل من لا يكابر، ولا يجادل بالباطل ليدحض به الحق، وهذا ما لا يريدون، بل هذا ما يفرّون منه فِراراً. وحكاية (العلماء) هذه يتكئ عليها المؤلفون لإقناع الناس بآرائهم. والعلماء هؤلاء ليسوا أكثر من مُنجمين، في مثل هذا الموضوع.

٢ - **ويقول حجازي**: "فإن قارن أحد اللّغة الأردية باللّغة الفرنسية، لم يستطع أن يتبين أوجه شبه يذكر، ولكن أوجّه الشبه تتضح بمقارنة اللُّغات الفرنسية والإيطالية والأسبانية والرومانية، "لأنها" ترجع إلى أصل واحد هو اللاتينية"[2].

---

(١) المرجع السابق، ١٢٠، وأنظر فيليب حتّي - تاريخ العرب ٩/١ الذي يشك في أن الجزيرة العربيّة أصل الساميّين.

(٢) المرجع السابق، ١٢١، وإن ما بين القوسين المعقوفين هو توضيح منّي.

أقول: لماذا تتضح أوجه الشّبه بين هذه اللُّغات؟ الجواب واضح: لأنها ترجع إلى أصل واحد معروف، هو اللاتينية، واللاتينية لغة معروفة بكل تفاصيلها: ألفاظاً وأصواتاً وصرفاً ونحواً، وهناك من يدرسها الآن، ويتخصص في علومها.

- **أيُقاس** - لأن- عليها ما لا يستطيع هؤلاء العلماء الغربيون أن يجدو له أثراً، ولو كان جملة واحدة؟ اللاتينية، حقيقة ماثلة، أما ما زعموه من لغة "أم" للغات البلدان العربيّة.. فرجم بالغيب، وافترض قاد إليه ما ذكرناه في الرقم السابق، من موقف الغربيين من الدين، والدين الإسلامي خاصة. وبَانَ خطؤهُ في مبحث خرافة الشعوب السامية، واللغات السامية الذي أشرنا إليه أكثر من مَرّة.

٣ – **ويقول**: "أصوات الحلق.. وأصوات الإطباق.. وهي أصوات تشترك في سِمة واحدة "يعني أصوات الإطباق" الواقع أن هاتين المجموعتين موجودتان بدرجات مُتفاوتة في اللُّغات السامية المختلفة، فليست كل لغة سامية تضم كل الأصوات الحلقية والمطبقة، الموجودة في العربيّة"[1].

- **أقول**: إن كون اللُّغات التي كانت قائمة في البلاد العربيّة، لا تضم أيٌّ منها كل أصوات الحلق والإطباق الموجودة في العربيّة **يؤدي إلى نتيجتين**: **الأولى**: أن اللُّغات ذات البيئة الواحدة، يسهل تفهم اشتراكها في بعض الحروف الصعبة في النطق كحروف الحلق وحروف الإطباق كما أشرنا في الرقم الأول.

والثانية: أن تفوق العربيّة على لغات المنطقة الأخرى بكثرة حروف الحلق والاطباق، يشير إلى **"فرادتها"** بين هذه اللُّغات، وتفوّقها عليها.

وإن اشتراكها مع لغات المنطقة ببعض حروف الحلق والإطباق وتفردها ببعض حروف الحلق والاطباق **لا يضعف من الرأي القائل بأنها لغة إلهامية**، لأن الله تعالى أراد للأشياء جميعاً أن تحدث في **إطار سياق واقعي**، فليس في الحياة طفرات، في أي شيء، وما يفسّره العلماء من الأمور المادية بأنه طفرة، إنما هو تعبير عن عجزهم عن أن يجدوا تفسيراً مادياً مقبولاً، فيلجأون إلى هذا التفسير الذي هو في حقيقته **"لا تفسير"**. بل –إنّ كلّ لغات الدنيا تشترك في نسبة كبيرة من الأصوات – خلا أصوات الحلق.

---

(١) المرجع السابق، ١٤٠.

- **وأقول:** أما كان الله تعالي قادراً على أن يجعل رسولنا محمداً صلى الله عليه وسلم، ينتقل عند الهجرة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة في بعض ليلة، كما كان في حادثة الإسراء والمعراج؟ بلى كان قادراً! ولكنه لم يشأ، جلّت قدرته، ذلك لأن مشيئة الله قضت بأن تتم الأشياء – ما عدا المعجزات – من خلال تفكير وتدبير وتخطيط وزمن وعمل. أما كان الله تعالى قادراً على أن يهلك كفّار قريش في لحظة عندما تراأوا لجيش الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم، في معركة بدر؟ بلى، ولكن لم يشأ للسبب السابق نفسه، وهكذا..

- **إذن..** بديهي أن الله تعالى كان قادراً على أن يجعل اللّغة العربيّة تخالف في خصائصها كل خصائص لغات المنطقة، ولكنه لم يشأ للسبب السابق، بحيث لا تأتي العربيّة "طفرة" بل تكون مندمجة في السّياق العام للغات المنطقة، بل للغات العالم في كثير من أصوات الحروف، وفي بعض الألفاظ وبعض الخصائص الصرفية، وفي بعض الخصائص النحوية، وخصائص التركيب، ثم تعلو عليها، بعد هذا فيكون لها تفوقها في كثرة المفردات، وفي ثراء الاشتقاق الذي تتولد منه مئات الآلاف من الألفاظ، قبل أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، وتفوّقها في بناء الجملة التي يساعد في مرونتها على هذا النحو المحكم الإعراب، والإعرابُ المضطرد ميزة من مزايا العربية.

- **وبهذا الاندراج لا تكون طفرة**، وبهذا العُلوّ تكون ذات بيان رفيع، وتكون قادرة على حمل القرآن الكريم **إلى العرب أولاً**، ثم إلى العالم أجمع، **ثانياً**- وشيء بديهي في العقول **أن المعنى الكوني الذي يصلح لكل زمان ومكان، لا تحمله إلا لغة** منفردة في خصائصها، تعلو على لغات البشر، ولن تعلو على لغات البشر إلا إذا كانت من رَبِّ البشر، لأن اللُغات البشرية تنتقل من حالة إلى حالة بلا استثناء، خلال بضعة قرون، بحيث لا يفهم اللاحق السابق إلا عن طريق الترجمة، واللّغة الإنجليزية من أوضح الأمثلة على ذلك، فشاعر الإنجليز العظيم **"شكسبير"** لا يفهمه الإنجليز اليوم إلا بالترجمة، وليس بينهم وبينه إلا أربعة قرون. أما العربيّة فشعرها في الجاهلية فنفهم معظمه اليوم، مع الاستعانة أحياناً بالمعجم، أنظر إلى **معلقة زهير ابن أبي سُلمى** التي ما يزال كثير من المثقّفين يرددون حكَمَها، وانظر إلى عمر ابن أبي ربيعة الذي عاش في القرن الهجري الأول، وإلى سهولة شعره حتى لتخلط بين شعره وبين الشعر الغزلي لنزار قباني الذي مضى قبل بضع سنوات.

بل إن المسلم الذي لم يتجاوز في تعليمه الصف السادس، ولكنه قد بلغ الرشد يستطيع أن يقرأ القرآن بيسر وسهولة، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [القمر: ٢٢] وبيننا وبين نزول القرآن أربعةَ عَشَرَ قرناً، ونيِّفاً.

- **وهذا شيء لم تَحْظَ به أي لغة على وجه الأرض – حاشا العربيّةَ – هذه اللّغة الشريفة التي شرّفها الله تعالى مرتين، إذْ كانت إلهاماً من عنده تعالى ألهمها العرب، وإذْ أنزل بها القرآن الكريم، فشرّفها بنزوله لها.**

ومثل لغات البشر، فكر البشر، فكل فيلسوف مثلاً، يموت من فكرة شيء ويبقى شيء، لأن الفيسلوف يَحْكُمُ تفكيره الزمان والمكان، ففلسفته نابعة منهما، والزمان والمكان متغيّران، ولذا تتغير جوانب كثيرة من فلسفته، ولا يبقى إلا ما هو مشترك بين الفِطَرِ البشرية، وهو هذا الذي يتجاوز الزمان والمكان.

ومن هنا فتصوّر أفلاطون اليوناني لجمهوريته خضع لزمانه ومكانه، وفي إطارهما كان مجتمعه مقسّماً إلى أربعة طبقات: الحكّام والأشراف والفلاسفة طبقة، والجند طبقة، والفلاحون طبقة، والعبيد هم الطبقة الرابعة. وهكذا جاء تصوره لجمهوريته ولكن هذا التصور لم يطبق في الواقع لأن الحياة البشرية تجاوزته، ولما في بعض جوانبه من الخطل كالإباحية الجنسية. وَجَمْعُ الصغار في محاضن، فلا يعرف طفل أمّه، وإنما ترضعه أيُّ امرأة وهل ينشأ مثل هؤلاء إلا قساة عدوانيين؟

والمنطق الصوري الذي بناه أرسطو "تلميذ أفلاطون"، ومخالفه في اتجاه الفكر، فأفلاطون مثالي وأرسطو واقعي يؤمن بالمحسوس"، هذا المنطق قد تجاوزه الزمن لأن المنطق الأجدر أن يؤخذ به هو المنطق النابع من الأشياء ذاتها، في ضوء العقل هذا في منظور بعض الفلاسفة الغرب، أمّا في منظور الإسلام فهو المنطق نفسه، ولكنْ، مع إضافة هامة وهي جريان كل ذلك في ضوء نُصوص الإسلام، وإذا لم توجد النصوص ففي ضوء مبادئ الإسلام. لأن القرآن هو (العقل الكلّي)، وعقل الإنسان هو (العقل الجزئي) – وكلاهما من الله العليم الحليم، فهما لا يتناقضان، وإن كان العقل الكامل لا خطأ فيه، أما العقل الجزئي فقد يخطئ – لما أراده الله الحكيم من عدم الكمال في طبيعة الإنسان[1].

(١) انظر: تفصيل ذلك في كتابي (نداء الحق) – فقد فصّلت ذلك، قبل المقدمة تحت عنوان **(تأصيل)**.

ومثل أفلاطون وأرسطو كل الفلاسفة المحدثين، **فماذا تبقّى من وجودية "سارتر"** الفرنسي؟ هذه الوجودية التي ترى أن الإنسان هو الذي يصنع قيمته ومستقبله، غير مقيد نفسه بأي قيمة أو عُرف سابق؟ أقول: والفرد ليس وحده ليضع حياته وحده إذن.. كل هذا هو فكر غير ثابت بلغة غير ثابتة.

- **ولكن حقائق الدين ثابتة لا تتغير، فلا بد من لغة ثابتة لا تتغير ولن تكون كذلك إلا إذا كانت بإلهام من الله تعالى، لها خصائصها الباقية على الزمن: قد يقال:** ولكن العربيّة طرأت فيها ألفاظ جديدة، غالباً عن طريق قانون الاشتقاق، ومعانٍ جديدةٌ لألفاظ قديمة، واستعملت "المُعَرَّب" وبعضه ورد في القرآن الكريم، فكيف تعدّها ثابتة؟

- **والجواب: أنها ثابتة في قوانينها العامة، فقوانين في توليد الكلمات الجديدة "الاشتقاق" ثابتة، وقوانين تطور معاني الألفاظ ثابتة، إذ لا بد من علاقة معقولة بين المعنى القديم والمعنى الجديد للكلمة.** وقوانين التعريب ثابتة، وما هو أهم من هذا كله، فهو ثابت، وهو "النحو" الذي يضبط قواعد التركيب، من ناحية، ويضبط حركات الإعراب من ناحية أخرى، ثم يكون من ذلك ما لا يحصى من التعابير.

- وبهذا فلا يفقدها شخصيتها ما يَجِدُّ من ألفاظ ومعانٍ للألفاظ، ومن مُعَرَّب، لأن الأصول ثابتة يسهل رَدُّ الفروع إليها، ولأن النحو يحفظ لها كيانها العامّ من التغير والانتقال إلى كيان آخر.

هذا معنى **"ثباتها"** وهذا (بما يقوم عليه من قوانين) لا تجده بتمامه، في لغة أخرى، ولهذا تتحول اللُّغات الأخرى من كيان إلى كيان آخر، خلال بضعة قرون وسنقارن بين العربيّة والإنجليزية في مقالات لاحقة، وإن قولي بثبات العربيّة لثبات معاني القرآن الكونية – هو رأي لم يَرِدْ في كتاب سابق - .

٤ – **ويقول حجازي:** "وهناك لغة سامية فقدت أكثر أصوات الحلق، وهي اللّغة الأكادية في العراق القديم، ولذا لم يبق في اللّغة الأكادية من أصوات الحلق إلا صوتان حلقيان هما: الهمزة والخاء، فقد حدثت في هذه اللُّغات تغيرات قللت عدد أصوات الحلق. أما اللّغة العربيّة فقد احتفظت بالمجموعة كاملة، ولذا تُعدُّ العربيّة من هذا الجانب امتداداً مباشراً للغة السامية الأم"[1].

---

(١)- علم اللغة العربية – حجازي – ١٤١.

- أقول: لاحظ أن العربيّة الفُصحى، لم تقُمْ إلا قبل مجيء الإسلام بقرنين فقط، أي: في منتصف القرن الرابع الميلادي، فكيف تحتفظ بأصوات الحلق التي وجدت في اللّغة السامية الأم "المزعومة" ذات القدم السَّحيق؟[1]

إن الدكتور حجازي لا يَبْسط هنا رأيه الشخصي - شأنُهُ (للأسف) شأنُ كل علماء العربيّة الذين تقبّلوا آراء المستشرقين بلا نقاش، بل - للأسف مرّة أخرى - اكتفوا بأخذ آرائهم، ولم "يتفكّروا" فيها، وإنما يَبْسط وجهة نظر علماء النقُوش اللغوية الغربيين، وهؤلاء عرفت رأينا فيهم.

- **إن بين قيام الأكادية والعربيّة ستةً وثلاثين قرناً**، أعني أن الأكادية عرفت في شَمال العراق قبل الميلاد باثنين وثلاثين قرناً[2]، أما العربيّة فلم تعرف إلا في منتصف القرن الرابع الميلادي، وكانت الأكادية مكتوبة، فلو صحّ زعم الغربيين من أن هناك لغة سامية أمّاً، لكان المعقول أن اللغة التيتحتفظ بأصواتها هي الأكادية، وليس العربيّة.

- **أولاً**: لقِدم الأكادية: **وثانياً**، لأن الأكادية لغة مكتوبة، واللّغة المكتوبة أقدر على حفظ الصوت من التغير من اللّغة غير المكتوبة، لأن الأصوات في اللّغة غير المكتوبة عرضة للتغير السريع، فليس لها رمز يضبطها. أمّا الحرف... فهو عاملٌ مُهمّ في حفظ الصوت دون تغيير، - أو -دون تغيير يُذكر - على الأقلّ.

- **أمّا الرأي القائل بأن اللّغة العربيّة الفُصحى قديمة، فرأي ليس عليه ولا دليل واحد، لأنها لو كانت قديمة، في مكة المكرمة والمدينة المنورة لكانت مكتوبة، منذ زمن الأكادية على الأقل، أي قبل ستة وثلاثين قرناً أو حولها، قبل ظهورها في الشعر الجاهلي، وهذا ما لم يكن. ويستحيل أن تعيش لغة ستةً وثلاثين قرناً، ولا تخترع أو تستعار - لها - حروف تكتب بها.**

هذا دليل أول على أنها ليست قديمة، أما الدليل الآخر، فلو كانت قديمة، لَحُفِظَ شيء مما قيل فيها من شعر، على توالي العصور، ولو مقدارَ ألفِ بيت على الأقل من كل قرن، ولو على شكل مقطعات صغيرة يسهل حفظها. ما بالُ العرب حفظوا

---

(١) راجع تفصيل ذلك في (التمهيد).

(٢) انظر المرجع السابق، ١٥٧.

المعلقات، وحفظوا عشرات الآلاف من أبيات الجاهلين الثانية التي سبقت الإسلام، ولم يحفظوا شيئاً من الجاهلية الأولى، لو كانت الفُصحى هي لغة هذه الجاهلية الأولى؟!! هذا القَطْعُ المفاجيء مستحيل.. في الطبائع البشرية.

- وبعد، فلقد أوردنا في هذه المقالة أربعة أدلّة تُثبت أن الزعم بأن اللُّغات القديمة في هذه المنطقة هي لغات "سامية" لَهُوَ مَحْضُ فِرْيَةٍ فإذا أضفنا إليها كل الأدلة التي "فنَّدنا" بها خُرافة فرضية الشعوب السامية، واللُّغات السامية، في مبحث (التمهيد) — تبين لنا أنها مجرد لغات متقاربة في خصائصها، لأنها لغات بلدان متجاورة يسهل أن تطبع هذه البلدان الإنسان بطبائع وطوابع متقاربة تجعل جهاز النطق لدى أفراده متشابهاً — وأن الزعم بأن العربيّة الفُصحى قديمة، وأنها لغة سامية قريبة من اللّغة الأم السامية المزعومة بخصائصها، فهو محضُ فِريةٍ أيضاً، ليس عليها، ولا دليل واحد.

ولدينا أدلة أخرى سنوردها في مقالةٍ لاحقة إن شاء الله تعالى، لكي يَبينَ الحقُّ وتتقمعَ تُرَّهات الباطل. وبالله العليم الحكيم نستعين.

الموضوع الثالث

في فقهِ اللّغة العربيّة وبلاغتِها.... (٢)

★ **ليس هناك من لغةٍ سامية أم للغات المنطقة(*)**

★ **العربيّة الفُصحى لغة إلهامية، وقامت قبل الإسلام بقرنين فقط.**

في المقالة السابقة أقمنا أربعة أدلة تُبَيِّنُ أنه ليس من لغة سامية "أم" للغات القديمة في المنطقة العربيّة، لأن الزعم بأن نوحاً – عليه السلام – كان له ثلاثة أبناء هم: سام وحام ويافث – ومن سام جاء مصطلح السامية) – ليس عليه ولا دليل واحد يُوثق به.

ومثله الزعم بأن العربيّة الفُصحى، لغة ضاربة في أعماق التاريخ القديم، وأنها أقرب اللُّغات السامية إلى هذه اللّغة الأم السامية. فالعربيّة، في الحق لا يزيد عمرها على مئتي سنة قبل الإسلام، وفي هذه المقالة سنُضيف الأدلة الثمانية الآتية:

ونحن نأخذ هذه الأقوال التي نعلق عليها من كتاب الدكتور محمود فهي حجازي، الذي جاء ما فيه من معلومات مما زعمه علماء النُّقوش اللغوية الغربيون، في موضوع ما سمَّوْهُ (اللُّغاتُ السامية):

١ – يقول الدكتور حجازي: (.. تظهر عروبة "النَّبَط" من استخدامهم اللغوي، فهناك ألفاظ تأتي بمعانيها العربيّة في نقوشهم مثل: "آل" للدلالة على الانتماء العربي القبلي) – ولد (بمعني أبناء) – آخر (بمعنى ذرية) – ضريح (بمعنى حجرة) إحدى (بمعنى واحدة) – غير (بمعناها العربي الحالي)، والأفعال: هلك – صنع – لعن (بمعناها في العربيّة)[1].

– **أقول**: ظاهر هذا القول، أنه ينصر زَعْمَ علماء النقوش الغربيين، بأن العربيّة الفُصحى "أقدم مما أنا قلته آنفاً، لأن لغة الأنباط لم تتوقف عن الحياة إلا مع أواخر القرن الثالث الميلادي".

– بَيْدَ أن الحقيقة غير ذلك، لأن وجود ألفاظ من العربيّة الفُصحى في لغة الأنباط – بمعناها في الفُصحى أو بمعانٍ مخالفة – لا يعني بحال من الأحوال، بأنها مُشتقّة من

(*) – كتبت سنة – ٢٠٠٥م.

(١) حجازي: علم اللّغة العربيّة – مدخل تاريخي مقارن، في ضوء التراث واللُّغات السامية – ١٨٢. وانظر صفحة ٢٠٩- ٢١٢.

الفُصحى، لأنها – **أولاً**: (لهجة آرمية كتبَ بها النَّبط نقوشهم حتى أواخر القرن الثالث الميلادي)[1].

وثانياً – لأن أمامي كتاباً "عنوانه: (اللّغة العربيّة – أصل اللُّغات كلها)[2] – يعتبر (كما يظهر من عنوانه) أن اللّغة الإنجليزية مُشتقة من اللّغة العربيّة، وقد أشرت إلى مضمونه سابقاً. ومع أني لا أرى ذلك (وأن كل ما أقوله هو رَدٌّ عليه). غيرَ أن فيما أورده من مفردات "**متشابهة**" بين العربيّة والإنجليزية ما "**يؤكد**" أن وجود عشرات الكلمات بل وجود مئاتها متشابه بين لغتين لا يعني بحال من الأحوال، أنهما لغتان ترجعان إلى أصل واحد، أو أن إحداهما أصل الأخرى، فكما تتشابه كثير من أفكار الاقتصاد الاشتراكي (الشيوعي) مع أفكار كثير من الاقتصاد الرأسمالي، مع أفكار كثيرة من **الاقتصاد الزكويّ (الإسلامي)** كذلك تتشابه أفكارٌ في كل اللُّغات، وهذا التشابُهُ الاقتصادي دفع عالماً إسلامياً هو المرحوم مصطفى السِّباعي ليؤلف كتاباً عنوانه: (اشتراكيةُ الإسلام). **وهذا غير دقيق** – لأن الإسلام يقوم نظامه الاقتصادي – أصلاً – على طلب رضى الله تعالى، عن طريق السعي إلى مصلحة الجماعة **أولاً**، ومصلحة الفرد **ثانياً**، بل على التوفيق بين مصلحة الجماعة، **أولاً** ومصلحة الفرد **ثانياً**، بل على التوفيق بين مصلحة الجماعة ومصلحة الفرد، في إطار نصوص الإسلام ومبادئه العامة، فالفعل الاقتصادي الإسلامي هو "عبادة" لله تعالى، ومن هنا.. فهو يقوم في إطار موازين الحق والعدل. أما نظام الاقتصاد الاشتراكي.. فهو نظام اجتماعي **يقلّ فيه الاهتمام بالفرد تجاه الجماعة**، وليس له علاقة بأي **منظور غيبي**، والنظام الاقتصادي الرأسمالي يُعلي من شأن الحرية الفردية في الفعل الاقتصادي، حتى أضحت الثروة مجتمعة في **أيدي بضعة بالمئة من الأفراد والشركات**، وليس له علاقة **بأي منظور غيبيّ**، كالنظام الشيوعي. وآخر ما يُفكر فيه والرأسمالي هو الحق والعدل. وإذ ليس مثل هذا التشابه في مفردات في اللُّغات، وفي الأنظمة الاقتصادية المختلفة، وفي كثير من العادات والتقاليد والعواطف والمشاعر والأحاسيس، والمعاني الإنسانية – إلا نتيجةً للذي في "**الطبيعة" البشرية من تَوَحُّدٍ يكيِّفهُ**، ويُنَوِّعُهُ.. تنوُّعُ الظروف والبيئات، من غير أن تخرجه عن أصله الظروف والبيئات.

---

(١) المرجع السابق- ١٨٢.

(٢) هذا الكتاب من تأليف عبد الرحمن أحمد البوريني – عمان / دار الحسن للنشر والتوزيع – ١٩٩٨م.

– هذا الكتاب السابق (اللّغةُ العربيّةُ – أصلُ اللُّغات كلها) أورد من الألفاظ المتشابهة بين العربيّة والإنجليزية (١٥٠٠) ألفاً وخمسمئة كلمة تقريباً (مع شيء من التكلّف في رَدّ بعضها من الإنجليزية إلى العربيّة)، ولم يتناول من القاموس الإنجليزي إلا الكلمات التي تبدأ بالحروف التسعة الآتية: (R – P – M – L – E – D – C – B – A).

ومن هذه الكلمات: (فَرَسَ: Press، قَرَشَ، أي: قطع: Crush، يتأقلم: Acclimate، نكتة: Anedote، النعمة: Animate، يبرد: Abrade، يلي: Below... الخ)[1]. وطبعاً.. هذا تشابُهُ أصوات – يقع مثله كثيراً، أو تقارض في الألفاظ، وهذا يقع كثيراً أيضاً.

- **أبعد هذا.. يجوز لأحد أن يقول: إنّ تشابُهَ لغة مع لغة أخرى ببعض المفردات (واللغتان من بيئة واحدة) – يعني أن إحداهما مُشتقّة من الأخرى، أو – أنهما ترجعان إلى أصل لُغوي واحد قد انبثقا عنه؟!**

- **إن التشابه حتميّ** بين لغتين في منطقة جغرافية واحدة، وهذا التشابه يجب ألا يحملنا على افتراض أنهما من أصل واحد خاصّةً عندما لا يكون هذا الأصل معروفاً، وليس له آثار باقية، وهذا.. خلاف اللّغة اللاتينية واللُّغات الأوروبية المنبثقة منها، لأن اللّغة اللاتينية لا تزال موجودة، وماثلة في عشرات الكتب، وإن لم تَعُدْ لغةً حيّة يستعملها شعب من الشعوب.

أمّا افتراض وجود لغة سامية أُمّ ليس لها ولا نقش واحد – فهو افتراض لا يزيد على أنه رجم بالغيب، أو نوع من الخيال الواهم، من أناس لا يؤمنون إلا بالتفسير المادي للأشياء، ولا يؤمنون بتفسير "غيبي" أي – باعتبار لغة – ما – وهي لغةُ القرآن "إلهاماً".

٢ – **ويقول حجازي:** (وأول لغة في الفرع الجنوبي لها دور في التاريخ، هي اللّغة العربيّة الجنوبية القديمة، التي عُرفت قديماً باسم الحِمْيَرِيّة: وعندما قلّتْ النقوش الجنوبية في أواخر القرن السادس الميلادي، كانت العربيّة الشمالية قد بدأت تنتشر في المنطقة اللغوية الجنوبية)[2].

---

(١) المرجع نفسه، ٧٩، ٨٠.

(٢) حجازي: علم اللّغة العربيّة – ١٨٤- وأنظر صفحة ٢٠٩، ٢٢٢، ٢٢٣.

أقول: ما قلناهُ في الرقم السابق (الأول) وهو أن الفُصحى لغة، والنبطية لغة أخرى لما أسلفناه من تحليل، هو نفسه يقال عن الفُصحى وعن عربيّة جنوب الجزيرة العربيّة، أما قال أبو عمرو ابن العلاء، في القرن الهجري الثاني: (ما لسانُ حِمْير وأقاصي اليمن بلساننا، ولا عربيّتُهم بعروبيّتنا)[1] وهذا يؤكد ما نحن نراه. فتشابُهُ أصوات، ولو كثرت، وتشابه أصوات بعض الكلمات، بل وتشابه معانيها — لا يعني بأن إحداهما مشتقة من الأخرى أو أنهما ترجعان إلى أصل واحد.

٣ — **ويقول حجازي:** "ظلّت نصوص الشعر الجاهلي عدة قرون، أقدم نصوص عربية معروفة عند الباحثين (يقصد بنصوص عربية معروفة.. نصوصاً بالفُصحى) ولكن البحث الحديث، في القرن التاسعَ عَشَرَ، أوضح، بعد اكتشاف اللّغة الأكّادية، وبحث اللُّغات السامية بالمنهج المقارن أن خصائص البنية اللغوية للعربية (يقصد الفُصحى) ولهجاتها القديمة، يمكن أن تُؤرخ في ضوء علم اللُّغات السامية المقارن.

وبذلك.. أمكن عن طريق الدراسة المقارنة، تأريخ كثير من الظواهر العربيّة (يقصد الفُصحى) في مرحلة أسبقَ من الشعر الجاهلي بأكثر من ألفيْ عام، فالظواهر المشتركة في العربيّة والأكادية لا يمكن أن تكون إلا موروثة عن اللّغة السامية الأولى التي خرجت عنها كل اللُّغات السامية"[2].

- **أقول: أولاً** — بيّنّا في مقالة سابقة، أن الزّعم بوجود لغة سامية أُولى انحدرت عنها سائر اللُّغات المُسمّاة بالسامية — ما هو إلا خرافة، إذ ليس على هذا الزعم ولا دليل واحد.

وثانياً — إن الظواهر المشتركة بين العربيّة الفُصحى والأكادية — ليست أكثر من تلاقٍ يأتي عن طريق السِّمات المشتركة للبيئات المتقاربة وذات المناخ الجغرافي المتقارب، وعن طريق السِّمات المشتركة بين فِطَر الناس جميعاً، بَلهَ فطرَ الناس في بلدان متجاورة. **وقد فصّلنا هذه الأسباب في الرقم الأول**، فليست الظواهر المشتركة بين الفُصحى والأكادية مختلفة في حقيقتها، عن الظواهر المشتركة بين الفُصحى والنبطيّة.

---

(١) محمد بن سلاّم الجمحي، طبقات فُحول الشعراء، المقدمة، ص١١.

(٢) المرجع السابق- ١٩٣/ أنظر فيليب حتى: تاريخ العرب- ٩/١- الذي يُقرر أن الأبحاث العلمية لم تَعُدْ بفائدة حول أبناء نوح.

ثم.. لو كانت الفُصحى لها نُقوش (=نصوص) قبل ألفيْ عام من ولادة الشعر الجاهلي "لحفظت" الأجيال المتعاقبة شيئاً منها، أيعقل أن تنسى الأجيال كلّ نصوص الفُصحى، قبل الشعر الجاهلي، ثم.. طَفْرَةً تعظم حافظتهم فيحفظون عشرات الآلاف من الأبيات من الشعر الجاهلي؟ فأين التعليل لهذا القَطْع الحاسم؟

- ذلك يخالف المعقول، ويخالف العلم الضروري، إذ لم نجد أمة نَسِيَتْ كل ماضيها الأدبي، دَفْعَةً واحدة، لو كان لها ماضٍ أدبي، ثم تفتقت عبقريتها لتحفظ أدب مرحلة متأخرة، أو تحفظ أكثرهُ، لو كان لها ماضٍ أدبيّ حقاً، متصلٍ بما جاء في الفُصحى من شعر رفيع. ثم.. هل يعقل أن ينبثق شعر رفيع في الفُصحى في العصر الجاهلي، وليس له مقدمات، تدرّجت في النضج حتى وصلت إلى النضج الكامل فيه، لو كانت الفُصحى نمت نمواً طبيعياً، كما تنمو اللُّغات؟

- **إن الفُصحى إلهام وتوقيف، وليست تواضعاً واصطلاحاً.**

—الفصحى ... إلهام - لكي تكون قادرةً على حملِ معاني الكون — معاني القرآن الكريم[1]. ولو لم تكن إلهاماً، لتغيّرت كلٌّ بضعة قرون — كما تتغير سائر اللُّغات. وهي لا يعقل أن تتغير، وإلا اضطر المسلمون أن يترجموا القرآن الكريم، ولو ترجم القرآن إلى غير لغته "الأصلية".. لما عاد "قرآناً" —حاشاه- بل أضحى كلام بشر، يدخله الخطأ في اللفظ والمعنى، الجلال والهيبة. والروحانية، والإعجاز في تَعَدُّد المعاني — هذه الأربعة القائمة فيه، قبل الترجمة. وهذا.. لم يُقَدِّرْهُ الله تعالى، بل قَدَّرَ تعالى نزوله بلغة إلهامية "خالدة" ليكون خالداً — مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝ ﴾ [الحِجْر: ٩].

٤ — **ويقول حجازي:** (وبمقارنة الكلمات الأساسية المشتركة في كل اللُّغات السامية، يستطيع الباحث أن يتبين مجموعة من السمات المشتركة المغرقة في القدم، فكل اللُّغات السامية لا تتمايز أو تختلف أيَّ اختلاف من ناحية أصوات الراء واللام والنون والتاء والدال)[2].

---

(١) يراجع في تفصيل هذا الإجمال ما ورد في المقالتين الأولى والثانية .

(٢) حجازي، علم اللّغة العربيّة- ١٩٥.

- **أقول:** شيء مضحك! وهل كل لغات الدنيا تخلو لغة منها من هذه الأصوات وأكثر منها؟ إن جهاز النطق عند كل الناس في كل عصر ومصر متقارب. أيها العربُ المخدوعون بما يقوله هُواةً من الغرب لا علماء – أفيقوا من نوم لا تزالون في سُباته، منذ قرنين كاملين"!

٥ – **ويقول:** (وعلى العكس من هذا تكون الظواهر التي تختلف من لغة سامية لأخرى وذلك مثل ظاهرة أداة التعريف، فهي في العربيّة (ال) سابقة على الاسم وهي في العبرية (الهاء) تسبق الاسم، وفي الآرامية (فتحة) طويلة تأتي بعد الاسم واختلاف هذه الظاهرة من لغة سامية لأخرى.. معناه أنها غير مورثة عن اللّغة السامية الأم، وأن كل لغة طورت لنفسها أداة للتعريف، فاختلفت بذلك أداة التعريف في اللُّغات السامية المختلفة)(١).

- أقول: شكراً لك يا دكتور حجازي، فأنت رجل – كغيرك من العرب – تقدس ما يقوله هواةُ من الغرب، وتقلده. والتقديس والتقليد – ينتهيان بالكاتب ألاّ يستخدم عقله – للشكّ والنقد – وإنما يستخدمه "للتبرير" – كما يفعل رجال الدين الإسلامي بعد القرن الرابع الهجري، فقد أمْسَوْا مُقدّسين مقلدين – لما قاله السابقون، فباتُوا – مُبرّرين – لا شاكين، ولا ناقدين. والله الهادي – يوفق الجميع إلى حُسْن التبريز.

- **أقول:** هذا الاختلاف في أداة التعريف "دليل واضح على أن هذه اللُّغات لا ترجع إلى لغة "أم"، وإنما هي لغات نشأت في منطقة جغرافية، يجاور كل شعب فيها الآخر، فكان هناك اقتراض، وكان هناك اختلاف، ولو كانت منبثقة عن "أم" واحدة لما اختلفت أداة التعريف بينها هذا الاختلاف البَيِّن. بل لما كان لكل بنت "قَرْنَانِ" (أي: أداة تعريف) على حين كانت الأم المسكينة قرعاء!

❖ ومثل هذا الاختلاف.. اختلاف الضمائر، فضمير المتكلم المتصل بالماضي هو في بعض هذه اللُّغات "التاء" وفي بعضها الكاف(٢).

---

(١) المرجع السابق- ١٩٧.

(٢) المرجع السابق- ٢٠٤.

❖ ومثله: أن "الكاف" ضمير المخاطب في اللّغة السامية الأم، وأن "التاء" كانت ضمير المتكلم، ثم استخدمت العربيّة "التاء" لكلا المتكلم والمخاطب[1].

- **أقول: أين هي هذه السامية "الأم"؟** هاتوا لنا نقشاً واحداً يدل عليها، لنصدق هذا الخيال الواهم، ثم "إن العربيّة (المقصود الفُصحى) بنت "عاقلة" فلم تلتزم بتراث أمّها المزعومة في صوغها للضمائر!!

٦ – **ويقول:** (وقد أثبت البحث المقارن في اللُّغات السامية، أن الأصل الثلاثي كامن وراء أكثر كلمات اللُّغات السامية، وفي نفس الوقت ظهر عن طريق المقارنة أن مجموعة من الكلمات يمكن أن ترد إلى أصول ثنائية)[2].

- **أقول:** وهل أكثر لغات الدنيا على غير ذلك؟ إن جهاز النطق "متقارب" وليس متماثلاً عند البشر كلهم، وليس من مجموعة بشرية أصول معظم الكلمات عندهم ستة حروف. فلماذا نخصّ لغات هذه المنطقة العربيّة بهذه الظاهرة العامة؟ لا يحمل على ذلك إلا عناد علماء النقوش الغربيين في أن نظريتهم عما سموه اللُّغات السامية و"أمهن" صحيحة، وهي - في الحقيقة - محض هراء. ثم .. لا يحمل عليه إلا تقليدنا نحن - العربَ - لهم، وكأننا، وقد تخلينا - أولاً - أخلاقياً عن المساهمة في الحضارة، ثم عملياً، بالتقديس والتقليد والتبرير - قد حَرَمنا أنفسنا من موهبة الثناء والنقد - !.

٧ – **ويقول:** (ووفق هذا المعيار يؤرخ أقدم النقوش الثمودية بالقرن الخامس قبل الميلاد، ويؤرخ أحدثها بالقرن الرابع الميلادي)[3].

- **أقول: على هذا النصّ أربع ملاحظات هي:**

الأولى – أن القرآن الكريم يذكر عن بلاد ثمود (في شمال الجزيرة العربيّة) أنها كانت ذات عيون وجنات؛ قال صالح نبيهم عليه السلام: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَـٰهُنَآ ءَامِنِينَ ۝ فِي جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ۝ ﴾ [الشعراء: ١٤٦ - ١٤٨]. معنى ذلك أن بلادهم كانت في القرن الرابع - لو صحت قراءة النقوش -ذات جناتٍ وعيون، فكيف لم يذكر ذلك عربُ الجاهلية في نصوصهم؟ بل كيف لم يذكر ذلك

(١) المرجع السابق- ٢٠٥.

(٢) المرجع السابق- ٢٠٥.

(٣) المرجع السابق- ٢١٩.

امرؤ القيس في شعره، وقد كان ولد في مطلع القرن الخامس قبل الميلاد؟ فليس بينه وبينهم سوى قرن واحد، لو صحّ تاريخ النُّقوش؟ أمْ أن امرأ القيس الذي توجه تلقاء بلاد الروم، بعد قتل أبيه يريد أن يعينوه بما يثأرُ به لأبيه، لم يلتفت إلى بلاد ثمود التي كانت على (مَرْمَى العصا) منه؟

الثانية – إن بين القرن الرابع قبل الميلاد، وبين مطلع نور الإسلام قرنين فقط، فكيف اختفت هذه العيون، وهذه الزروع خلال قرنين فقط؟ هل يتم تغير المناخ من مناخ خصب إلى مناخ جدب صحراوي، خلال قرنين فقط؟ الجواب... نعم. لأن هذين قرنين من قرون هواة الغرب، والذي لا يصدقهم هو متخلف... والذي يجحد ما يقولونه ... يكفر.

الثالثة – أن الناقد – محمد بن سلام (ت: ٢٣١) ينكر على ابن إسحاق (ت ١٥١هـ) أن يذكر شعراً لعادٍ وثمود، فلو كانوا بهذا القُرب الزمني من مطلع نور الإسلامي لما أنكر ابن سلام عليه ذلك، (إذا أورده ابن إسحاق في السيرة النبوية العطرة) ولكان شعرهم مشهوراً مذكوراً بين عرب الفُصحى.. ولوجدت من ردَّ على ابن سلام وصوّب قوله هذا[1] فأين هذا الردّ – أيها الجهابذة – الذين معكم كامل الحق أن تقلدوا جهابذة الغرب.

الرابعة – أن ما قاله الدكتور حجازي – نقلاً عن هواة النقوش اللغوية الغربيين – ليس فيه أي إشارة إلى أن لهذه النقوش علاقةً بالعربيّة الفُصحى، ولكن لو وجدت علاقة "فهي كعلاقة الأكادية أو الآرامية بالفُصحى، أي: هي علاقة تقارض الألفاظ، أو تشابهها، أو تشابه الأصوات ليس أكثر كما فصّلنا ذلك في الرقم الأول، من هذه المقالة.

٨ – ويقول: (إن الخصائص اللغوية للنقوش الثمودية والصفوية واللحيانية تثبت أن كُتّابها كانوا من البيئة اللغوية العربيّة، وتثبت أسماء الأعلام الواردة في هذه النقوش أن كُتّابها عرب جاهليون وثنيون نجد فيها أسماءاً عربية مثل: حبيب وهذيل وقيس ومطر، كما نجد فيها أسماءاً مركبة منسوبة إلى معبودات الجاهلية، مثل: عبدُ مناة، وزيدُ شمسٍ، وعبدُ أيل، وعبدُ يَغوثَ.. وهكذا تثبت الخصائص اللغوية لهذه النقوش،

---

(١) طبقات فحول الشعراء ص١١.

وأسماء الأعلام الواردة فيها، وسلاسل النَّسب فيها أن كتاب هذه النقوش عرب، وأن لهجاتهم اليومية تدخل في إطار اللهجات العربيّة)[1].

- أقول: أولاً – إن وجود أسماء عربية في هذه النصوص، ووجود أسماء معبودات جاهلية فيها – لا يعني، بحال موجبة، أن لهجات هؤلاء الأقوام تدخل في إطار اللهجات الجاهلية – المنسوبة إلى الفُصحى لثلاثة أسباب:

أ – لأن الله تعالى عندما "أنسى" عرب الفُصحى لغتهم التي كانوا يتكلمونها، وأثبت مكانها الفُصحى (كألفاظ غالبة وكأصول)[2] لم يُنسِهم أسماء قبائلهم، ولا أسماء ما كانوا يعبدون، وإنما أنساهم اللّغة كألفاظ تعبّر عن الأفكار والوجدان، وكنظامين: صرفيّ وتركيبيّ.

ب – ولأن تشابُهَ ألفاظ أو تماثلها.. لا يعني أن اللهجتين (أو اللغتين)، مشتقةٌ إحداهما من الأخرى، أو متولدة إحداهما عن الأخرى، (كما فصّلنا في الرقم الأول والرقم الثاني من هذه المقالة).

ج – ولأن لهجات الفُصحى السبع التي جَمَعَ منها اللّغة الفُصحى علماءُ اللّغة إنما هي "لغة واحدة" لا تختلف بأكثر من واحد بالمئة من الألفاظ، كأن تُسمَّى قبيلة القمر "حنطة" وتسمِّيه أخرى "بُرًّا"، وتكون تسمية ثالثة له "قمحاً". وكل ما بينهما من اختلاف –بعد هو في "منحى" الصوت، كأن تقول قبيلة: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾ [الفاتحة: ٤] باستطالة الألف، والأخرى بالميل به نحو صوت الياء، كما يلفظ الألف في لبنان حتى الآن، أو أن تقول قبيلة: سَقْرٌ، وأخرى: زَقْرٌ، والثالثة: صَقْرٌ، وهذا النوع الأخير قليل جداً جداً.

- أما ما كان في لهجات هذه القبائل من (الكشكشة أو العنعنة..)[3] فلم تأخذ به الفُصحى، وإنما سجله العلماء كرصد علمي ولكن لا تستسيغه الفُصحى التي استقر أمثلُها في مكة عند قريش، والتي نزل بها القرآن الكريم – نزل بها أكثره،

---

(١) حجازي- ٢٢٣، ٢٢٤.

(٢) أنظر مقالتنا الأولى تحت عنوان "اللّغة العربيّة أإلهام هي أم مواضعة واصطلاح؟"

(٣) الكشكشة.. وهي في قبيلتي ربيعة ومضر، مثل: عيناش، بدل: عيناك، والعنعنة في قبيلة تميم، مثل: (أعن ترسّمْتَ من أسماءَ منزلةً) أي: أأَنْ ترسمت، إذ يُبدلون بالهمزة عيناً. وهي لهجات مذمومة.

لأن مكة كانت حاضرة الشمَال، وكان العرب يَفدون إليها في مواسم الحج، وعلى هامش موسم الحج كانت تقوم تجارة، وأسواق للشعر، كسوق عُكاظ، فكانت قريش – المتحضرة – تأخذ من القبائل الوافدة، أعذبَ الألفاظ، مما جدَّ عندهم من اشتقاقات (لأن أصل اللهجات في الشمال هو لغة واحدة ألهمهم الله تعالى إيّاها كما قرّرنا)، وكانت القبائل تحاول ألا يبتعد منحى أصواتها عن منحى صوت قريش (= لهجة قريش)، لأنهم لا يستغنون عن التعامل معها.

- فكان التقارب كبيراً، يدل على ذلك أن القبائل العربيّة كانت تتناشد أشعاراً في سوق عُكاظ لا يختلف بعضها عن بعض، بدليل ما وصل إلينا منها، وهو كثير، فهو بلغة واحدة، بشكل عامّ، وبدليل أن هذه القبائل كان يُفهم بعضها أشعار بعضها الآخر، دون أدنى لَبْس. أعني .. قبائل عَرَبِ الشَّمال.

- بل.. وبدليل أن القرآن الكريم كان مفهوماً للجميع، مع اختلاف قليل في منحى الصوت أحياناً، وفي قليل من الكلمات مثل قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ﴾ لهود: ٤١، فقد (قرأ مجاهد: مجريها ومرسيها) بلفظ اسم الفاعل.

- أليس هذا: "كافياً ليقنعنا أن لهجات الأقوام الأخرى – في جنوب الجزيرة العربيّة، وعلى أطرافها – إنما هي لهجات أخرى تختلف عن لهجات الفُصحى؟ ومابينها وبين الفُصحى أو لهجاتها، إنما هو من باب التقارض أو التقارب – الذين يقعان حتى بين اللُّغات المتباعدة، كما بيّنا في الرقم الأول، فكيف بلغات منطقة جغرافية واحدة؟

وكونُ الفُصحى لم تختلف ألفاظها –اختلافاً كاملاً– من ألفاظ هذه اللُّغات المحيطة بمنطقتها فهذا.. ما أجبنا عليه بالتفصيل في المقالة الثانية – من هذا القسم من هذا الكتاب، وهو أن إرادة الله تعالى قضت ألاّ تأتي الأشياء على الأرض، (ومنها اللّغة الفُصحى الواقعة إلهاماً)، قفزةً في فراغ، وإنما تكون شبيهة بالواقع، وإن كانت – بخصائصها – تعلو على الواقع تعلو على خصائص اللُّغات الأرضية كلها، وإن كانت لا تفارقها مفارقة النقيض للنقيض، وهل القرآن الكريم – المعجز – نزل بألفاظ غير ألفاظ الفُصحى التي يستعملها العرب وإن لم تكن مأخوذة من الفصحى؟ وجاء بها بطريقة – مخصوصة – يعجز عنها الإنس والجنّ، القرآنُ من الوجهة الأولى عربيّ اللّغة

وإن لم يأخذ ألفاظه من العربية الفصحى – لأنّ القرآن كلام الله تعالى، وكلام الله قديم، واللغة العربية حادثة من حيث وجودها على الأرض. ومن الوجهة الثانية مفارق لما يستطيعه العرب (والإنس والجن عامةً) في استعمالهم للغة. من حيث طريقة ضمّ الألفاظ، بعضها إلى بعض.

- هذه هي مشيئة الله تعالى في أمور الدنيا كلها، نستثني بعض المعجزات.

- وبعد، فإني أرى أن ما سبق في هذه المقالة، كافٍ لدحض مزاعم علماء النُّقوش اللغوية – الغربيين الذين يرون أنه كان في زمن سحيق يسبق التاريخ لغةٌ سامية أُمُّ اللُّغات السامية، ومن الساميات العربيّة، لأن حكاية أن نوحاً عليه السلام كان له ثلاثة أبناء هم: - سامٌ وحامٌ ويافث – لا تقوم على خبر صحيح مُوثّق. وما في التوراة من أخبار، وقد كتبت في معظمها، بعد وفاة موسى عليه السلام، بسبعة قرون، لا يصح أن يكون مصدر علمٍ يقينيّ وإلاّ .. فليأتوا بنقش واحد من هذه اللغة الأمّ – المزعومة - !.

- فالعربيّة الفُصحى هي لغة ألهمها الله تعالى عرب الشمال، لكي تكون قادرة على حَمْل القرآن الكريم. ونسبتها هي إلى العرب والى الفصاحة، لا إلى ما يُسمى "ساماً" ويُزْعَمُ أنه من أبناء نوح عليه السلام.ولكنّ الأمّة التي عَشْعَشَ والتقليد للقدامى في أعماقها.. ونتيجة لذلك كان "التبرير"، ونسيَتْ الشكّ والنقد – اللينْ أمرهم بهما القرآن، فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾، أجل عشعشت هذه المدمرات الثلاثة – التقديس والتقليد، والتبرير، منذُ نهاية القرن الرابع الهجري، في أعماقها – ثم عشعشت، منذُ مطلع القرن التاسع عَشَرَ – تقديساً وتقليداً، للغرب، وتبريراً لما يزعمونه، عن العرب والإسلام، وإن كان باطلاً صُراحاً، وكُفراً بَوّاحاً - !، والتقديس – هنا – هو لغير مقدس، فالقدوس هو الله تعالى – والمقدس هو الرسول والقرآن فحسب!

- هذه الأمّة.. صدّقت أكذوبة قالها رجل مُتَصَهْيِنٌ، بُعَيْدَ منتصف القرن الثامن، سماها (نظرية) – وما هي إلا حُلْمٌ باطل، وخيال واهم، وتنكُّب للحق التاريخي – في حقيقة اللغة الفصحى – المبين.

انتهى القسم الثاني – بتوفيق الله وفضله

القسمُ الثالث

التّعَرُّفُ على عبقريّةِ العربيّةِ الفُصحى
من خلالِ الاشتقاقِ وتوليدِ المعاني

﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾

(النحل: ١٠٣)

(ملاحظة – عربي، في الآية، تعني: (فصيح) – كما سنعرف في القسم الرابع).

الموضوع الأول

عبقريّة اللّغة العربيّة(*)

مثالٌ: الفعلُ "فَرَجَ"

- نبحث في هذه المقالة الفعل "فَرَجَ" ومشتقاتِهِ من الأفعال والأسماء والصِّفات.. لنُدلِّلَ بذلك على أن هناك ثلاثة أشياء ذات أهميّة بالغة هي:

الأوّل – أن اللّغة العربيّة لغة العقلاء، ولذلك فهي تقوم على اشتقاق معقول لا اعتباطيٍّ، لانّ كُلَّ المُشتقات من الأصل اللغوي الواحد يكون لها كُلِّها معنىً "مركزيٌّ" واحد، ثم تحمل كلُّ صيغة معنىً جديداً، إضافةً إلى المعنى المركزيِّ.

الثاني – أنَّ هناك صيَغاً وردت في المعاجم لا يسهل قَبولها – من حيث الاشتقاقُ – للوهلة الأُولى. ولكن عند النظر المدقّق والبحث عن السبب الذي جعلها تأتي على هذه الصورة.. يُمكّنُ من قبولها، ولكن، من باب الاستعمال الاستثنائي الذي أدى إليه معنىً مخصوص ولّدَهُ ظرفٌ مخصوص. وستتضح أمثلةُ ذلك خلال هذه المقالة.

الثالث – أنَّ الأديب أو اللغويَّ يُمكنُ أن يأتي باشتقاقات لم تَردْ في المعاجم للتعبير عن المعاني الجديدة. بل يمكننا أن نُولّد اشتقاقات "استثنائية" لم يَعتَدْ أهلُ اللّغة استعمالها، ولم ترد في القديم، تأتي تعبيراً عن حالة خاصة ولّدتها الظروف. كأن نأتي باسم الفاعل من فعل – لا إرادي – لا يأتي منه اسم فاعل في المعتاد وإليك التفاصيل:

- فَرَجَ: هذا هو الجذر اللغويُّ، وهو فعل ثلاثيٌّ.

ومعناه: انكشف واتسع. فَفَرَجَ الشيءَ: كشفه.

وفُرِجَ الشيءُ: اتّسع وانكشف.

والفَرْجُ: الخَلَلُ بين الشيئين، أيْ: هو منطقةٌ مكشوفة بينهما. والفَرْجُ: هو عورةُ الرجل والمرأة. وسُمِّيَ فَرْجُ المرأةِ هكذا: لأنه ينكشف عنه الوركان، ولأنه ينفرج ما بينَ شُفْرَيْهِ أيْ: يتّسع عند الجماع أو الولادة. أما الرجل فقد أُطلق على عورته الفَرْجُ لسببين: **الأول** – أنه ينتشر فينكشف أو يكاد أو يكونُ واضحاً وبارزاً في موضوعه فكأنه مكشوف. والثاني – أنّ الوَرِكينِ ينفرجان عنه وله أيْ: ينكشفان. والفَرْجُ:

(*) كتبت سنة – ٢٠٠١م.

الثَّغرُ المخُوفُ لأنـهُ منكشف للعدوّ لقربِهِ منـه. والفَرْجُ: سِوارُ الرجل والمرأةِ. لأنّ فيه فراغاً، والفراغُ نوع من الانكشاف والاتّساع.

وفُروج الأرض: نواحيها المتّسعة المكشوفة. ومفردها: فَرْج.

والفُرْجَةُ: الخَصاصة بين الشيئين، كما يقول معجم لسان العرب. والخصاصةُ: الاتّساع والانكشاف.

والتّفاريج: الفتُحاتُ التي بين الأصابع، وما بين الأصابع منطقة مكشوفة. ويقول ابن الأعرابيّ: مفرد التفاريج.. تِفْراجٌ. وأنا أرى أنَّ هذا الجمع من الجموع التي لا مفردَ لها، مِثْلُ: تقاطيع الوجه.. فليس لها مفرد، سواءٌ أقلنا: تِقْطاع أو تقطيعة، ومثلُ: تقاسيم.. فليس لها مفرد، سواءٌ أقلنا: تِقْسام أو تقسيمة. والإتيانُ بمفردٍ لكلٍّ من هذه الجموع أو مثلها.. إنما هو "صناعةٌ" لُغَوِيَّةٌ.. لم يتكلم بها العربُ. ولا بأس في استعمال المصنوع إذا اقتضاه معنى جديد.

والفَرْجَةُ -بالفتح- .. بالأمر. والفُرجة (بالضم) .. في الجدار والباب. أيْ - هو الاتّساع والانكشاف في كلٍّ منهما. ولكن من دِقّة اللّغة العربيّة أنها تستعمل – غالباً – صيغةً لكلِّ معنىً، وإنْ تقارَبَ المعنيان. فالانكشاف في الأمر أو المشكلة معنويٌّ وليس مادياً. ولهذا.. جاءت الفاء مفتوحةً. أمّا الانكشاف في الجدار والباب إنما هو ماديٌّ، ولذلك ضُمَّ أوَّلُهُ ليختلفَ مبناهُ عن مبنى المعنويّ. وهذا.. نوعٌ من الاشتقاق بالحركات. كما أننا نُفرّقُ في المعنى باستعمال الاشتقاق بالحروف. ولذلك.. نجمع عيناً على عيون، عندما نريد العيونَ المبصرةَ أو عيونَ الماء. في حين نجمعها على أعيان، عندما نريدُ التعبير عن عِلْيَةِ القوم. ومن المطّرد في اللغة أن الماديّ يُضمُّ أوّلُهُ – وأن المعنوي يُفتح أوّلُهُ.

وَمِثْلُ: الفَرْجةِ والفُرْجةِ: غَرْفَةٌ وغُرْفَةٌ. فالغَرْفة هي أنْ تغرِفَ بيدك أو بإناء من الماء مرّةً واحدةً.. أمّا كميّةُ الماء المغروفة مرّةً واحدةً.. فهي: غُرْفَةٌ. قال تعالى ﴿ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

ومِثْلُ غُرْفةِ الماء.. الغُرْفةُ التي هي جزءٌ من بناء تُتَّخذُ مسكناً أو مكتباً. لأن هذه وهذه شيئان "ماديّان". وجمع الغُرفة: غُرَفٌ وغُرُفاتٌ، كما ورد في القرآن الكريم، قال تعـــــــالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا.. ﴾ [العنكبوت: ٥٨]، وقال ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ

وَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ [سبأ: ٣٧].

- وبالمناسبة: لماذا جاء في الآية الأولى "غُرفاً" وفي الآية الثانية "الغُرُفاتِ"؟

مفهومٌ أنّ الجمعين لمفرد واحد هما اشتقاقان لهذا المفرد، ولا يجوز أن نُستعمل فيما نكتبُ إلاّ أَحَدَ الاشتقاقين، إلاّ إذا اختلف المعنى. عندئذٍ من الدِّقةِ أنْ نأتيَ بكلِّ جمع في موطنه. وهكذا كان في القرآن – الكتاب المعجز – فقد استُعْمِلَتْ "غُرَفاً" وهي جمع تكثير مع المؤمنين الذين يعملون الصالحات. واستُعْمِلَتِ "الغُرُفات" وهي جمع يَدُلُّ على القليل مع المؤمنين الذين آمنوا وعملوا الصالحات مع أنهم أصحاب أموالٍ وأولادٍ. والأموالُ والأولادُ، غالباً ما تصرفان عن بعض العبادة والعمل الصالح. أما قال الله تعالى: ﴿إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾ أمَا اعتبر الحقُّ تعالى أنَّ كثرة المال لرجلٍ وكثرة الوالد.. إنما هما نعمتان يجب على الإنسان أنْ يعبد ربه كِفاءَ ما قَدَّمَهُ له منهما، فإذا لم يفعلْ غَضِبَ عليه وتهدَّدَهُ وتوعَّدهُ؟ قال تعالى في هذا السياق: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ ﴾ [المدثر: ١١ – ١٣]. ولكنه لم يؤمن، فَوَجَّهَ اللهُ تعالى له هذا التهديد الشديد.

ولذلك.. فالذين يؤمنون ويعكفون على عمل الصالحات من أصحاب الثروات والعدد الكبير من الأبناء.. أقلةٌ. لأن الثرواتِ والأبناءَ تدفع كثيراً منهم إلى أن تأخذهم العِزّةُ بالإثم. ولذلك.. جاء التعبير بالإيمان والعمل الصالح من باب الاستثناء. وبعد أن سبق أن الأموال والأولاد لا تقرّب المرءَ من الله تعالى.

وعلى ذلك فالمؤمنون منهم أقلة.. فالكثرة المؤمنة استعمل معهم جمع الكثرة، والقلةُ المؤمنة استعمل معهم جمعُ القِلّةِ.

- ومما يُمَثَّلُ به على أنّ جمع المؤنث السالم، غالباً ما يَدُلُّ على القِلّة، قولُ حسّان بن ثابت – رضي الله عنه – يفتخر بكرم قومه:

"لنا الجَفَناتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحى" فقال: "الجفنات" ولم يقُل: "الجِفانُ". ولذلك انتقده النابغة الذبيانيُّ في سوق عُكاظٍ الذي كانت تُضرَب له فيه خيمةٌ من أَدَمٍ أيْ: من جلدٍ.. ليحكم بين الشعراء – انتقدهُ باستعماله الجفنات وليس الجفان، لأنَّ الجفنات تَدُلُّ على القليل. ولذلك.. عندما أراد الحقُّ تعالى أنْ يُبيّنَ فضلهُ على سليمانَ – عليه السلام – بأمْرِهِ الجنَّ بأنْ يُطيعوهُ قال: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ

﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾ [سبأ: ١٣] فاستعمل جمع التكسير "جفانٍ"[١] للدلالة على الكثرة ولم يستعمل: الجفناتِ، جمعَ المؤنث السالم، لدلالتها على القلة.

- والفَرْجَةُ: الراحة من حُزنٍ أو مرضٍ، والراحةُ منهما إنما هو انكشاف لهما أيْ: زوال. وهو انكشافٌ معنويٌّ لا ماديٌّ. وجمع الفَرجة: فُرُجاتٌ وفُرُجٌ. وأرى أنه يمكن أنْ يضاف: فُرَجٌ بضم الفاء، وفتح الرّاء. لأنه يمكننا أنْ نُضيف من المشتقّات ما تدعو إليه الحاجة. بل إن كثرة الجموع التي تأتي من مفرد واحد تُسَهِّلُ الاستعمال، فسواءٌ ضَمَمْتَ أو فتحتَ – مثلاً – فالكلام صحيح. وهذا ناتج عن أنَّ العربيّة مُستقراةٌ من سبْع لهجات، بينها اختلاف في "قليل" من اللفظ.

- والفَرِجُ: ورجُلٌ فَرِجٌ: لا تزال تتكشف عورته. وذلك في الحال التي يحدث فيها ذلك بغير قصد منه، وإنما هي عادة. وأرى أننا نستطيع أن نقول: رجل فارِجٌ: إذا كان "يقصد" كشف عورته. وفَرِجٌ على وزن فَعِلٍ إنما هو صفة مشبّهة سَدَّتْ مسدَّ اسم الفاعل، لأن الأفعال "اللاإراديّة" لا يأتي منها اسم فاعل غالباً، لأن من يتّصف بها ليس فاعلاً لها وإنما هو مُتَلَقٍّ لها. فإذا قصدَ أن يقوم بها، إرادياً، جازَ أن يأتي منها اسم فاعل لأنه، في هذه الحال، يكون فاعلاً لها، وإن كان هذا يقع من باب الاستثناء. ومن هذا الباب نستطيع أنْ نقول: رجلٌ مَفْروجٌ (أيْ: اسم مفعول) إذا كشف آخرُ عن فَرْجه، رغماً عنه. وإنْ لم يقعْ هذا الاشتقاق في الماضي. لأن المعنى يستدعي اللفظ، أو بعبارة أخرى: لأن المعنى ولفظه ينبثقان إلى الوجود معاً دائماً، فقد يكون موجوداً، وقد لا يكون، فيقوم الأدباء واللغويّون باشتقاقه. لأن اللّغة التي لا تستجيب لتطوّرات الحياة والمعاني المتجدّدة بتجدُّد الظروف والأحوال.. تنتهي إلى الانزواء أو الاضمحلال أو الانقراض. **واللّغة العربيّة من اللّغات المتدفقة بالحيوية التي تستطيع أن تستجيب للجديد**، عن طريق سبع طرق وأكثر، ذكرناها سابقاً.

- والأفْرَجُ: العظيمُ الألْيَتَيْنِ، لا تكادان تلتقيان. ويقول لسان العرب: "وهذا في الحبش" ولأنهما لا تلتقيان فهما تكشفان ما بينهما. والفعل: فَرِجَ يَفْرَجُ فَرَجاً. ولا أرى مانعاً من ضَمِّ الرّاء، لأن الضمّ يدل على الاتصاف الثابت.

---

(١) هذا لا يعني أن جمع التكسير يدلّ على الكثرة دائماً، بل هناك أربعة جموع تكسير تدلّ على القلة.. غالباً، وهي على وزن "أفْعُل، أفْعِلَة، أفعال، فِعْلَة".

ومن معاني الفَرَج كذلك الفَرَجُ بَعْدَ الشِّدّة: وهو انكشاف الهمِّ والغمِّ. ولذلك فهو اتِّساع معنويٌّ أو انكشافٌ معنويٌّ، وليس بماديٍّ، لأن الإنسان يحسُّ في مثل هذه الحالة بطلاقةٍ وانشراح.

- والفُرُجُ الفرِجُ: الذي لا يكتم السرَّ أيْ: الذي يكسف السرَّ. وهو انكشافٌ معنويٌّ كذلك.

والكلمتان: الفُرُجُ والفرِجُ.. لغتان لمعنى واحد أيْ: أنَّهما لهجتان عربيَّتان جاهليّتان، كلٌّ لهجةٍ لقبيلةٍ مختلفةٍ عن الأخرى. ومن المعروف أنّ اللّغة العربيّة لم تُجمع من لهجة واحدة وإنما جمعت من سبْع لهجات، في مُقدِّمتها لهجة قريش في مكة المكرمة. وهذا يعني أنّ لبعض المعاني لفظين؛ كلّ لفظٍ لقبيلة. وفي ذلك تيسير على المُتحدث أو الكاتب، فإذا قال – مثلاً – يكفُل – بضمِّ الفاء – فهو مصيب، وإذا قال: يكفَل – بفتح الفاء – فهو مصيب كذلك. ولكن اللهجات متماثلة في خمسٍ وتسعين بالمئة من الألفاظ. فالاختلاف بينها قليل جداً.

- وقوسٌ وفُرُجٌ وفارجٌ وفريجٌ: منتفخة السِّيَتَين (أي: منتفخة الطرفين) والانفراج يعني الانفجاج ويعني الانكشاف والاتّساع بين السِّيئين. أما فُرُجٌ وفَريجٌ.. فهما صفتان مشبَّهتان.. تشيران إلى أن المُتكلّم بهما يرى أن الانفراج يأتي بين طرفي القوس من عوامل خارجية، لأن القوس.. جماد ليس لها[1] يَدانِ فيما يحدث له. أما من قال: فارِجٌ.. فقد شخّص القوس، لأنه اندمج بها شعورياً، فبثَّ فيها الحياة. ولذلك.. تصور أنها هي التي تقوم "بإرادتها" بالانفراج. وتشخيص الجوامد يجري على ألسنة الشعراء. أما قال ذو الرّمة؛ شاعرُ الحُبِّ والصحراء في القرن الأول الهجري:

وعينانِ قال اللهُ: كونا، فكانتا   فعولانِ بالألبابِ ما تفعلُ الخَمْرُ؟

هو بذلك يبثّ الحياة في العينين، ويشخّصُهما، ويتعامل معهما وكأنهما شخص عاقل: يُؤْمَرُ فيطيع. ذلك أنه أسبغ على هاتين العينين.. مشاعرهُ وأحاسيسه وعاطفتهُ.

---

(١) القوس.. تُذكّرُ وتؤنثُ، فالوجهان جائزان.

- بل أما قال أبناءُ يعقوب – عليه السلام – لأبيهم: ﴿ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَـٰفِظِينَ ۝ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ [يوسف: ٨٠ – ٨١]. فلأنهم كانوا "صادقين" حَسَبَ ما ظهر لهم في واقعة السرقة فقد انعكست عواطفهم وأحاسيسهم الصادقة على القرية فحدث اندماج بينهم وبينها، بحيث خُيِّلَ إليهم أنها عاقلة، تُسأل فتُجيب، وأنها قادرة على الشهادة لهم أمام أبيهم، لقد أَنْسَنُوا القرية[1].

- بل إن الاندماج بين الشعراء وبين الجوامد، وبين أبناء يعقوب وبين القرية.. مِمَّا خُيِّلَ إليهم أنَّ هذه الجوامد ذات عقل.. أصبح حقيقة لسيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – فقد كان يخطُبُ في بدء بناء المسجد النبويّ على جِذْعِ شجرةٍ. وبعد حين بنى الصحابة – رضوان الله عليهم – مِنبراً للرسول الكريم ليخطب من عليه. وفي أوّل مرةٍ اعتلاه الرسول الكريم ليخطُب.. أخذ الجذع "يَحِنُّ" كحنين النِّيبِ (أي: النوقِ)، ولم يكُفَّ عن الحنين حتى نزل الرسول الكريم عن المنبر، وربَّت عليه وطيّب خاطرهُ.. فصمت. الله تعالى بثَّ الحياةَ في هذا الجذع اليابس ليحنَّ حنين النِّيب حُزناً على فراق الرسول – صلى الله عليه وسلم – له. إنه اندماج حقيقي وليس اندماجاً مُتخيّلاً بسبب صدق العواطف وَجَيَشَانها. وقانونَ بثّ الحياة في الجوامد من قوانين الكون. وما بَثُّ الحياةِ في طين آدم – عليه السلام – إلا من هذا القبيل.

- نخلص من هذا، في مجال اللّغة، إلى أن الألفاظ ذات المعاني اللاإرادية.. يمكن أن تُعطى معنىً إرادياً، إذا تمثّل المتكلم فيها المعنى الإداريُّ أو تخيّلَهُ المتكلم، لأنه اندمج في مادة الكلمة المعنوية أو الجامدة. ولهذا.. فمادة "فَرِحَ" مثلاً – مادة لا إرادية، ولذلك لا نقول بشكل عامٍّ، رجل فارح، وإنما نقول: رجل فَرِحٌ أو فَرْحانُ. لأن مصدر الفرح خارجيٌّ، فهو لا يفرح إذا أراد أو يغضب إذا أراد. ولكن على النادر نجد رجلاً

(١) ولا تلتفت إلى المفسرين الذين يقولون: "واسأل القرية" تعني: "واسأل أهل القرية".. فهذا تجاهل لحقيقة نفسية شعورية. وهي أنه إذا امتلأت النفس والمشاعر بالانفعال بدت لها الجمادات أو النباتات "عاقلة" وكأنها أفراد من الناس. أما قالت أخت ابن طريف عاتبة على شجر الخابور الذي لم يسقط وَرَقَهُ حداداً على ابن طريف:

.. فيا شجرَ الخابورِ مالكَ مُورقاً ... كأنكَ لم تجزعْ على ابنِ طريفِ؟

متفائلاً جداً بحيثُ يفرح لأقل المفرحات أو يتكلف الفرح حتى يشعر به، بحيث يمكننا أن تقول: كلما رأيتُ هذا الرجل وجدته.. فارحاً. أي: استعملنا معه اسم الفاعل. ونقول: محمود كان في حفلة الطرب مفروحاً (فنستعمل معه اسم المفعول) لأن قوة الطرب التي أحاطت به وهزّت أعماقه، فاستجاب لها وهو كالمجبر..، ولّدت في ملامح وجهه فرحاً. وهذا.. وَضْعٌ نادر جداً. ولكنه ليس مستحيلاً، **لأن الألفاظ تبعٌ للمعاني**.

- **فَرْجَةٌ**: هزيمة. ومثالها.. قولهم: "أذكروا القومَ على فرحتهم" أي: على هزيمتهم. وسُميت الهزيمة: فَرْجةً.. لأن المنهزمين ينفرج بعضهم عن بعض، إذ لا يبقى تنظيم يشدهم. وبذلك تكون الأرض بينهم "**مكشوفة**" لِتباعُدِ المسافة بين كل واحدٍ وآخر. وبذلك.. فهم خلافُ المنتصرين الذين يتقدّمون أو يرجعون بتنظيم. ومن تكتيك الحرب في القديم أن يتراصَّ المحاربون، ولا يكون بينهم تخلخل: أما قال الله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ۝٤﴾ [الصف: ٤] أيْ لا خَلَلَ ولا فُرَجَ بين صفوفهم. لأن ذلك أثْبَتُ للمحارب بالسيف أو الرمح واخلعُ لقلوب الأعداء. لأن رؤيته لزميله المقاتل ملاصقاً له يحمله على التقدم وعدم الفِرار. ولأن رؤية الأعداد لأعدائهم صفوفاً متراصةً.. يضعف من عزيمتهم على اقتحامهم واختراق صفوفهم.

ومن **فَرْجَةٍ.. فالفريج أيْ**: الظاهر المنكشف الذي أدّت الهزيمة إلى اتساع المسافة بينه وبين زملائه. وعلى هذا الفريج في المعركة هو المهزوم.. مثل قتيل أي: مقتول. ويقال: امرأة فريحج: للّتي أعْيَتْ من الولادة. وهي فريح، وليست "فارجاً" مثلاً، لأنّ الانفراج الذي حَدَثَ بين وركيها إنما كان رغماً عنها، لما تُسبّبه لها الولادة العِسرةُ من آلام مُبَّرحَة. وهذا الانفراج "**يكشف**" عورتها، بل ويباعد بين الشُّفرين، فتتّسع المسافة بينهما، وينكشف جُزءٌ من جسم الجنين. فالانكشاف يأتي من ناحيتين: الأولى — اتّساع ما بين الوركين. والثاني — اتّساع ما بين الشُّفْرين.

أمّا لماذا قيل: رجلٌ فريجٌ وامرأةٌ فريجٌ.. ولم **تلحق التاءُ المربوطةُ بصفة المرأة**؟ فذلك راجع إلى أن ما كان من الصفات على وزن "**فعيل**" بمعنى "مفعول" فإنها يستوي فيها المذكّر والمؤنّث. ولذلك نقول: رجل قتيل وامرأة قتيل. ورجل جريح وامرأة جريح. ولا نقول: فَريجة أو قتيلة أو جريحة.. إلا إذا جاءت الصفة دون ذكر للموصوف، كأن نضع عنواناً

فلا نضع فيه الاسم المؤنث، عندئذٍ نقول: "قتيلةُ الجوع". وهذا عنوان مقالة كتبها الأديب مصطفى لطفي المنفلوطي" عندما اكتُشف في جبل المقطّم – شرقيَّ القاهرة – جثةُ امرأة، تَبَيَّنَ من تشريحها أنّ سبب موتها هو: الجوعُ. وطبعاً.. لا يقع مثلُ هذا في مجتمع يسودُهُ الإسلامُ. أما قال تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝﴾ [البلد: ١١ – ١٦].

وكما نقول: امرأةٌ فريجٌ.. نقول: نعجةٌ أو ناقة أو عنز.. فريج: إذا أخذت بالولادة فباعدت ما بين وركيها فانكشف ما بينهما.

والمُفرَجُ: الرجلُ الذي لا عشيرةَ له. وقد يبدو لأوّل وهْلَةٍ عدمُ ارتباط معناهُ بمعنى المادَّة. ولكن الذي يدقق في أمر الرجل المفرَج.. يجد أنه لا أعوانَ له يحيطون به، لأنه لا عشيرةَ له. مما يؤدي إلى أن تكون الأرض منكشفة حوله. على خلاف من له عشيرة يحيط به رجالها، مما يُغطي ما حوله من الأرض ولا يكشفها، وقد جاءت الصيغة على اسم المفعول من الرباعيِّ، لأن كَونَهُ بلا عشيرة ليس من فِعله ولا من إرادته، وإنما هو مرغم عليه، وليس له حيلة في دفعه.

والمُفْرِجُ: اسمُ فاعل، ويقال: دجاجة مُفرِجٌ: ذاتٌ فَراريج. لأن الفراريج (ومفردها فرُّوجة وهي صِغار الدجاج) تُفرِج عن نفسها بنقر قشرة البيضة وكسرها والخروج منها عندما يكتمل نموّها. وفي ذلك "انشكاف" للفرُّوجة أيْ "الصوص"[1]. وأصل الفرّوجة صفةُ مبالغةٍ، أيْ: كثيرة التفريج عن نفسها بنقر قشرة البيضة. ولأنها – في أصلها صفة – فإنما جاز أن تأتي للمؤنث وللمذكر، مثل: داهية. فنحن نقول: رجل داهية وامرأة داهية. والتاء المربوطة، هنا، للمبالغة. ورجل علاّمة وامرأة علاّمة. وكما أننا نقول: جنينٌ للمذكر والمؤنث.. جاز أنْ نقول: صوص للذكر والأنثى من صغار الدجاج لأن الملامح التي تميز الذكر من الأنثى غير واضحة.

---

(١) الصوص: صغار الدجاج، بين يوم وعشرة أيام. وبعض اللغويين لم يقبل هذه الكلمة لهذا المعنى. لأن هذا الاستعمال لم يرد في المعجم بشكل مباشر. ولكن الجمهور الذي استعمل هذه الكلمة لهذا المعنى على صواب. لأن معناها في المعاجم: البخيل. والعلاقة قائمة بين صوص الرجال وصوص الدجاج.. فالأول حقير الفَعال والآخر حقير الحجم. فالحقارة.. هي العلاقة الجامعة بينهما. إذن، قل: صوص الدجاج.. ولا تُبالِ.

أمّا الفَرُّوج.. فلعله جمعٌ لفروجة، أما فراريج فجمع الجمع، غالباً، ومعروف في اللّغة أنّ حذف الياء المربوطة من بعض الكلمات يجعلها جمعاً، مثل: بقرة، وجمعها: بقرٌ، وشجرة، وجمعها: شجرٌ، ففرّوجة جمعها: فرّوجٌ، وجمع الجمع: فراريج.

وقد سُمِّيَت الدجاجة: مُفرِجاً، على اسم الفاعل، لأن لها عملاً لا يُنكر في تحويل البيض إلى فرّوج أو فراريج. فهي ترقد على البيض ثلاثة أسابيع أو حولها حتى تخرج منه الفراريج.

طبعاً، الفاعلية الأصلية لله تعالى (فعّال لما يريد) [البروج : ١٦]... لأن البيض يتحول إلى فراريج بقدرة الله. ولذلك فالدجاجة فاعل مجازيٌّ.

كما أننا نقول: عُشْبٌ نابتٌ. فنصرف الفاعلية للعشب، لأننا نراه ينمو أسبوعياً بعد أسبوع، دون أن نرى فاعلاً خارجياً يُنمّيه. مع أن الفاعلية، في أصلها، لله تعالى. فالله مُنبِتٌ – بكسر الباء – والنبات مُنبت – بفتح الباء – ولذلك فالفاعلية في النبات إنما هي فاعلية مجازية، ويسمى هذا مجازاً عقلياً.

المُفَرِّجُ: المِشْطُ. لأن بين أسنانه انفراجاً، أي: انكشافاً. ولأنه يجعل الشَّعرَ مُنساباً بعد أن كان متكتّلاً والانسياب صورة من صور الانكشاف أو الاتساع، لأنه يَمُدُّ الشعر إلى آخر مداهُ، ويجعل انفراج الشعرات.. بعضها عن بعض واضحاً.

والمُنْفَرِجَةُ: الزاوية المنفرجة في الهندسة هي التي تزيد على تسعين درجة. وبهذا ينكشف ما بين امتداد خطّيْها، بل يزدادان انكشافاً واتّساعاً كلما امتدّا أكثرَ فأكثرَ.

والمُتَفَرِّجُ: جَمْعُهُ: المتفرجون: وهم الذين يشاهدون الصور في السينما أو التلفاز أو الفيديو أو الإنترنت، أو يشاهدون المسرحيات والعروض.. الخ. وهم متفرجون لأنهم يُبقون المسافة بينهم وبين هذه الصور والمناظر "مكشوفة". وهو استعمال حديث غير موجود في المعاجم. ولكنه استعمال لا غُبارَ عليه، لأنه يجري على نفس القاعدة. أي: فيه المعنى المركزيُّ للفعل: (فَرَجَ)، ومعنىً جديدٌ تطلّبهُ التطوّرُ الحديث.

وفِعْلُهُ: تَفَرّج يتفرَّج. واسم المفعول: مُتَفَرَّج عليه. والمصدر: التَّفَرُّج، واسم المصدر: فُرْجَةٌ. والفُرْجَةُ أيضاً هي الشيءُ الذي يُتَفَرَّجُ عليه، أيْ: بينه وبين المتفرِّج مسافة "مكشوفة".

وأُفْرِجَ عن السجناء: أُطْلِقَ سـراحُهُم. والسجناء الذين أُطلق سـراحهم.. "انكشفوا" بعد أن كـان السِّجنُ يخفيهم. وأُفْرِجَ.. فِعْلٌ مبنيٌّ للمجهول. ويمكن أن نورده مبنياً للمعلوم، فنقول: أَفْرَجَ مديرُ السِّجن عن السجناء، أي: أطلق سراحهم. وقد فُضِّل الفعل المبنيُّ للمجهول هنا على الفعل المبنيِّ للمعلوم.. لأن هذا المعنى، الأصلُ أن يُعبر فيه بالفعل المبني للمجهول. لأنه ليس المهم الشخص الذي أطلق سـراحهم، وإنما المهم.. إطلاق سـراحهم. ولأن "**الإيجاز**" مقصد من مقاصد الفصاحة إذا استطاع أن يُؤدِّيَ المعنى.. المطلوب أداءاً تاماً. وهو هنا، مُؤَدٍّ للمعنى المطلوب وللمعنى المقصود.

وبعدُ: أرأيت أن هناك عشرات الكلمات التي تتولد من الجذر اللُّغوي الواحد، وتتحد معه في المعنى "المركزيّ" إضافةً إلى معنى آخر جديد. مما يُسَهِّلُ تعلم اللّغة، بحيث يكاد المتعلم أن يعرف معنى عشرات الكلمات إذا عرف معنى الجذر اللغوي لهذه الكلمات؟

وأن اللّغة العربيّة منطقية وليست اعتباطية، لأن اللفظ فيها لا يأتي مقدماً على المعنى، وإنما المعنى لا ينفكّ عنه اللفظ الملائم له. ولهذا.. يأتي المعنى غالباً جارياً على القواعد المتعارف عليها في اشتقاق الألفاظ. ولكنه يأتي أحياناً استثناءاً على هذه القواعد، لأن المعنى لا يتضح وضوحاً تاماً إلا بهذه الاستثناء والله ولي التوفيق.

الموضع الثاني

كَلِمَةُ (سَرَّ أو سَرَرَ)*

نعالج في هذه المقالة.. أصلاً لغوياً واحداً هو: " سَرَرَ" بفكّ الإدغام، وبالإدغام "سرَّ"، وما تفرّع عنه، مما يشير إلى عبقرية اللّغة العربيّة، وقدرتها على التنويع من حيث الصيغ، ومن حيثُ معاني هذه الصيغ. وهو كالآتي:

١ — سرَّهُ: فعلٌ ماضٍ، يسرُّهُ سروراً أي: أفرحه، والرباعيُّ منه: أَسَرَّ يُسرُّ الشيء أي: أخفاهُ وأظهرهُ. وهذا يعني أنّ" أَسَرَّ" من الأضداد. مثل: الجوْن، فهي تعني الأبيض والأسود. ومثل: جَلَل.. فهي تعني العظيم والحقير. ويتبين المعنى المقصود لهذه الكلمة التي لها معنيان متضادّان من "السياق". وسُمّيَ السِّرُّ سِراً.. لأنه يَسُرُّ، صاحِبَهُ عندما يكتمه، فالانسان يُسَرُّ عندما يجد أن إرادته من القوّة الكافية بحيثُ يتمكن من عدم إفشاء سرِّهِ. من ناحية أُخرى.. فإنّ الشخص الذي تُسارُّهُ أيْ: تُفشي إليه سِرَّكَ يُسَرُّ لانّ معرفة الأسرار ممتعة للإنسان الذي خُلِقَ بطبعه مُحباً للاستطلاع، ولأنه يُسَرُّ، أيضاً بأنْ يعرف السِّرَّ. والإنسان يسعد عندما يشعر أن الآخرين يثقون به فيطلعونه على أسرارهم.

هذا.. معنى الإخفاء. أما معنى الإظهار.. فهو آتٍ من أن الإنسان ينْدر أنْ يكتم أسراره. وإنما تضيق بها نفسه فيعلنها إلى صديقه، مما يؤدي إلى إظهارها. لأنك إذا كنت بسِرِّكَ ضيّقاً.. فصديقك به أشدُّ ضيقاً، مما يدفعه إلى إعلانه وإظهاره لأحد أصدقائه. وهذا الأخير لا يقوى على كتمه بل يُذيعه بلا تحفُّظ. وكلُّ سرٍ جاوز الاثنين.. شاع.

ولعل أفضل تفسير لقوله تعالى: ﴿وأسروا الندامة لما رأوُا العذاب﴾ أن بعض الكافرين أخفى ندمه وكتمه في نفسه، وأن بعضهم الآخر أظهر ندمه، وفضح نفسه أمام الناس. وبذلك.. اجتمع الضّدان في هذه الكلمة في موقعها من القرآن.. وهذا يشير — من ناحية أخرى — إلى إعجاز القرآن اللُّغويّ، فالكلمة فيه تحمل كلّ الشُّحنة التعبيرية الكامنة فيها.

(*) كتبت سنة — ٢٠٠١م.

٢ – وتساروُا: تناجَوْا. هذا معنى آخر لكلمة مشتقة من "سَرَرَ". وقد جاز أن يأتي من الأصل الثلاثي مُشتقٌ آخر بمعنى مقارب، وهو النجوى. لأن النجوى نوع من السرِّ، أو درجةٌ من درجات السرِّ، لأن المُتناجين يقصدون أن يُخفوا موضوع نجواهم عن غيرهم من الناس. قال تعالى عن المسلمين الذين يخفون سرَّهم عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ [المجادلة:٨].

هذا.. يعني من جهة أخرى، أن لكثير من الكلمات في اللّغة العربيّة أكثر من معنىً واحد. ولكنها كلها لها "صلة" من نوع ما.. بالمعنى الأصلي، فليس هناك اعتباطية في اشتقاق كلمات من الجذر اللغوي، في جميع الدّلالات التي تكتسبها هذه الكلمات خلال تطوُّر اللّغة، مما يدل على أن اللّغة العربيّة لغة "منطقية". أراد الله تعالى للعرب في الجزيرة العربيّة الذين يتكلمونها أن يكونوا عقلاء منطقيين في الدلالات التي يعطونها للألفاظ المشتقة من جذرها اللغوي، بحيث يكون هناك "صلة" تربط بين كل هذه الدلالات. وذلك.. مما يسهل تعلم اللّغة، فكل صيغة مشتقة من الجذر الفعل (وهو: سرر).. لابد من أن يتصل معناها بطريقة أو أخرى يدركها العقل بهذا الجذر اللغوي. فلنمض بإيراد هذه الصيغ المشتقة من الفعل الثلاثي: سَرَرَ أو سَرَّ، عند الإدغام.

٣ – استسرَّ الهلالُ آخر الشهر: خَفِيَ. فهذا الفعل المكون من ستة أحرف.. إنما هو متصل اتصالاً مباشراً بجذره اللغوي" سَرَرَ". لأن سرَّه: من ناحية أفرحه. والفرحُ ينبع من الخفاء، وهو ما يحسُّ به المرء في أعماقه. ومن ناحية أخرى فيه ظهور، وهو ما يبدو على أسارير وجه من انبساط فالخفاء .. واضح في المعنى الأول.

٤ – السرُّ: الجماع. لأن الرّجل والمرأة يعملان على إخفاء اتصالهما الجنسيّ.. ولكن آثار ذلك تظهر على ملامح الوجه. أما ترى الفتاة العانس يكون على وجهها من التجاعيد.. ما لا يكون على وجه من هي في مثل سنِّها. ولكنها إذا تزوّجت في العشرين مثلاً أو على الأكثر في الخامسة والعشرين من عمرها؟ فالخفاء والظهور (وهما المعنيان المتضادان في كلمة: أسرَّ، بل في الجذر: سرَّ) قائمان في علاقة الجماع. يُضاف إلى ذلك أنه يتمثّل في الجماع.. السرور وهو المعنى الأوضح في الجذر: سَرَّ.

٥ – السُرِّيَّةُ هـي الجارية المتخذة للمِلْكِ وللجِماع. وسُميت سُرِيَّةً.. لأن الجِماع فيه مَسرةٌ ولأن علاقة صاحبها بها خفية وظاهرة؛ خفية.. لأن من عادة الناس أن يخفوا عملية الاتصال الجنسي. وظاهرةٌ.. لأنه معلوم بالعُرف أن الرجل الذي يملك جارية جميلة.. يتخذها مكاناً لمتعته فهذا الأمر المعروف – ظاهر الحقيقة.

وبالمناسبة نقول: إن عهد الجواري قد مضى. لأن المصدرين الرئيسيين للحصول على الجواري إنما هما.. بيع العبيد. والعبيد قد حُرّروا في العصر الحاضر.. فلم يَعُدْ بَيْعُهُمْ مقبولاً أو وارداً. ثم الحروب. ولكن تطور الزمن وتقدم الحضارة، والإيمان بكرامة الإنسان وحقوقه اللذين دعا إليهما الإسلام منذُ القديم، وأخذت بهما المجتمعات الحديثة. وثبّتت ذلك في الوثائق التي تنص على وجوب احترام كرامة الإنسان والاعتراف بحقوقه. هذه الوثائق التي تبنّتها بعض الثورات الحديثة، وهيئة الأمم المتحدة التي تضم معظم العالم في عُضويتها. بذلك.. جُفِّفَ المنبعان اللّذان يأتي عن طريقهما الرِّقُّ، وما يتبعه من اتخاذ الجواري.

وبالمناسبة، مرةً أخرى، يقال: سُرِّيَّةٌ – بضم السين – وهي الجارية التي يمارس معها مالكها الجنس. وسِرِّيَّةٌ – بكسر السين – وهي "الحُرَّةُ" التي يمارس معها زوجها الجنس. وهذا.. دليل على دقّة اللّغة العربيّة في استعمال الألفاظ للمعاني.. فالمَعنيان المختلفان؛ غالباً، يكون لكلٍّ منهما "صيغة" مختلفة عن صيغة المعنى الآخر، ولو بالحركة والحركة هي نوع ممن أنواع الاشتقاق. وجُعِلَ اللفظ الأصعب عن طريق ضمِّ السين للجارية، والأسهل، عن طريق كسر السين للحرة، لأن امتلاك الحرة أقرب إلى الحق، وإلى الأمر الأصلي العام، من امتلاك الجارية.

٦ – السِرُّ: ذَكَرُ الرجل. لأنه هو العضو المستعمل في الجِماع.. بما ينطوي عليه الجماع من سِرٍّ أي: من إخفاء. وبما ينطوي عليه من إظهار، كما وضَّحنا ذلك سابقاً لأن العضو، عند الجماع، ينتشر، فيبرز في مكانه.

ثم.. من المعروف أن الرجل.. يُسَرُّ (يفرح) بعضوِهِ التناسلي. وتستطيع أنْ تقدر ذلك عندما تُدرك ما يعانيه الرجل من حُزن وكمَدٍ الذي يلد وليس له عضو.. خِلْقَةً، أو الذي يُجَبُّ عضوُهُ لسبب من عشرات الأسباب التي يمكن أن تؤدي إلى ذلك، أو الذي لا يُنعظ عضوُهُ لأنه هو الآلة التي توصله إلى السرور بالجماع.

٧ – **والسرير**: المضطجع الذي يُنام عليه. والجمع أَسِرَّةٌ وسُرُرٌ. ولا شكّ أن نوم السرير أطيبُ من النوم على الأرض أو على البلاط. ولهذا.. يجد النائم على السرير شيئاً من السُّرور. ثم.. إن السرير يُخفيهِ ويظهره، يخفيه لأن زَرَدَهُ يهبط به بعض الشيء لِثُقْله عليه، ويظهره.. لأنه يرفعه عن وجه الأرض إلى عين الناظر.

٨ – **وتسَرَّرَ الثوبُ**: تشقَّق. ولا شك أن تشقُّق الثوب يَظهر ويخفي. فمكان الشقوق يَظهرُ منه بعضُ جسم لابسه، ومالم يتشقّق يُخفي تحته بعض جسم لابسه. أمّا أنه يَسُرُّ فعلي معنين: الأول: يَسُرُّ لابسه لأن تشقق الثوب يعني – غالباً – الحصول على ثوب جديد. والثوب الجديد يجلب السرور إلى نفس لابسه.

والمعنى الثاني – التضادُّ (وهو تضادٌّ آخر – غير الظهور، والأخفاء – فهو تضادٌّ – لا في حذر المادة، وإنما في كلمة السرور – خاصةً) .. فكلمة "سُرورٍ" كما تعني الفرحَ قد تعني –قليلاً– الحزن . أما ترى أنه ورد في معجم "**لسان العرب**" قوله: سَرَّ البعيرُ يَسَرُّ – بفتح الياء والسّين – أصابه "السَّرَرُ" وهو داءٌ يأخذ بسُرَّةِ البعير؟ ولا شكّ أن البعير الذي يصيبه داءُ السَّرَرِ يكون منظره حزيناً، وجسمه منكمشاً ذوايا، لأن السَّرَرَ لو أصاب الإنسان (وهو يصيبه) لأحسَّ بالحزن والكآبة.

إنَّ "التضادّ" نوع من العلاقة كالعلاقة الإيجابية بين الألفاظ المشتقّة من أصل واحد. أما ترى أننا عندما يقال: لونٌ أبيضُ نقارنة باللون الأسود، فورياً وعفوياً، ولا يستطيع الإنسان أن يدرك البياض إن لم يدرك ضِدَّهُ السواد. إنه نوع من العلاقة "السلبية" الكامنة في الأشياء. فالحياة تنطوي على الموت، والشباب ينطوي على الشيخوخة، والربيع ينطوي على الخريف، وهكذا والتضاد .. قانون من قوانين تطوّر معاني الألفاظ.

وبعدُ: فمن الواضح (من خلال هذه الصيغة الأصلية التي عالجناها) أنّ الاشتقاق في اللّغة العربيّة ركنٌ أساسيٌّ، به نستطيع أن نشتقَّ عشرات الصيغ (الكلمات) من الأصل اللّغوي الواحد، وكلُّ صيغة مرتبطة بالمعنى "المركزيّ" الذي تدل عليه الصيغة الأصلية. ذلك.. يعني أننا نهتدي إلى معنى عشرات الصيغ، من خلال معرفتنا لمعنى الصيغة الأصلية (المركزية) وهي غالباً الفعل أو المصدر بل قد تكون الصيغة الأصلية ارتباط إيجاب، أو ارتباط سلب (تضاد). إسماً جامداً، مثلُ: استحجر الطين، من الاسم الجامد: الحجر. أو اسم استفهام مثلُ: كميّة من "كم" الاستفهاميّة، و"كم" الخبرية.

أو مثل: "ماهيّة" المشتقة من العبارة الاستفهامية: ما هي؟ أو حرف جرٌ مثل :عنعَنَ"[1] وما يُشتقُّ من فعل مضارع، ومصدر واسم فاعل واسم مفعول.. الخ.

وهذا يسهّل على اللغويين أن يولّدوا من – الأصول – ألفاظاً جديدة لتعبّر عن المعاني الجديدة التي تطرحها التطورات الحضارية كل يوم، في مجال العلوم والمعارف المختلفة.

وبذلك.. تستطيع اللّغة أن تنمو وتتطور وأن تُجاري التطور الحضاريّ. واللّغة العربيّة من أقدر اللُّغات على استيعاب المعاني الجديدة. لأنها.. لغة الاشتقاق ولغة المعاني "المركزيّة" التي تنبثق عنها معانٍ كثيرةٌ.. تستوعب مستخرجات الحضارة.

---

(١) والحديث المُعَنْعَن: هو الذي رواه الراوي بقوله: عن فلان عن فلان.. الخ.

الموضوع الثالث

تحليلٌ لُغويٌّ لكلماتٍ ثلاثٍ

فيما يلي كلمات ثلاث ننوي أن نعالجها، مسلّطين عليها نظراً فقهياً، سبر أغوارها ويوضّح دلالاتها اللغوية يسير والصرفية وبعض ما يشتقُّ منها مما لم توردْهُ المعاجم وهي – لوائح–:

١ – **لواقح**: ومفردها: لاقح. قال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ [الحجر: ٢٢]. والزّمخشري يقول في تفسيره "**الكشاف** لواقح بمعنى ملاقح"[١]. ونقول: أفضل من ملاقح.. مُلَقّحات. لأن جمع مُلَقّحة – بفتح القاف – على مُلَقّحات أفصح من ملاقح. كما أن جمع مشكلة على مشكلات أفصح من جمعها على مشاكل.

ولواقح بمعنى ملاقح– **أولاً** – لأن لاقحاً تستعمل لاسم المفعول. نقول: ناقة لاقح أي مُلقّحة – بفتح القاف وتشديدها – ونياق لواقح أي: مُلقّحات – بفتح القاف – والناقة اللاقح هي التي نَزَاعليها الفحل فأخصبها. وجاز أن يقال: لاقح ولواقح لأمرين: الأول – أن اسم الفاعل استعمل مكان اسم المفعول كما يقال: عيشة راضية بمعنى مرضيّة، كما ورد في الآية السابعة من سورة القارعة، فاسم الفاعل سدّ مسدّ اسم المفعول.

– **والثاني** – أن العيشة المرضيّة فيها معنى الفاعلية، لأنها هي التي تؤثر في أهليها فتجعلهم راضين. فهي اسم الفاعل في المعنى لا في الصرف. ومثلها لاقح ولواقح، فهي – أولاً – بمعنى مُلقّحة – بفتح القاف وتشديدها – وهي ثانياً – يُلْمحُ فيها معنى الفاعلية، لأن الفحل لا ينزو على الناقة إلا وهي ضَبِعَة أي: راغبة. ورغبتها نوع من الفاعلية في المعنى، أمَا ترى أن الله تعالى قال: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ [النور: ٢]، لأن معنى الفاعلية يلمح في المرأة الزانية، فلم يعلُها الزاني إلا وهي راغبة. ولذلك لا تُسمى المرأة المغتصبة – زانية، لانه يفعل بها وهي غير راغبة.

– **وهكذا الرياح**.. فهي لواقح بمعنى: مُلقِحاتٍ – بكسر القاف – لأنها هي التي تُخصب الغيوم بالمطر. وهي لواقح بمعنى اسم المفعول لأنها تتأثر رطوبتها بما تغشاهُ من الغيم. كما نقول: قضية لاغيةٌ أي: ملغية. وهذا.. يدلّ على غنى القرآن الكريم

---

(١) سورة (الحجر – ٢٢)

بالدلالة.. فقد استعمل: لواقع لتعطي معنى الفاعلية ومعنى المفعولية، لأن المعنين يُلمحان فيها.

– أما لماذا قلنا: ناقة لاقح – بصيغة المذكر – ولم نقل لاقحة بصيغة المؤنث؟ فالسبب أنه يُؤتى بالتاء المربوطة للتفريق بين المذكر والمؤنث، إذ نقول: رجل شاعر وامرأة شاعرة. وذلك عندما تكون الصِّفة صالحة للمذكر والمؤنث. أما عندما تكون الصفة صالحة للأنثى فقط.. فلا حاجة إلى تاء التفريق، ولذلك نقول: امرأة حامل، عندما يكون في أحشائها جنين، ولا نقول: حاملةٌ.. لأن الرجل لا يحمل جنيناً ولذلك نعدل عن – حامل – ونقول: حاملة عندما تحمل خبزاً مثلاً – لأن عمل الخبز تقوم به المرأة ويقوم به الرجل. ولذلك نقول: رجلٌ حامل خبزاً، وامرأة حاملة خبزاً.

– يبقى أنه يجوز أن نقول في غير نصِّ القرآن: الرياح مُلقحات – بكسر القاف – على اسم الفاعل، أو ملقحات – بفتح القاف – على اسم المفعول. لأن هاتين الصيغتين قياسيتان. ونحن يجوز لنا – لتيسير استعمال اللّغة – أن نقيس، مع ورود السماع في القرآن او في كلام العرب الذين يُحتج بلغتهم. والسماع أقوى، لأنه الأصل ولكنّ القياس –هنا– مشروط بأن نريد في الاشتقاق الجديد مَعْنىً جديداً. أما إذا كنا نعبر عن ذاك المعنى فما جاء عن العرب.. لا ينقاس، وإنّما ينقاس ما يُولّد لمعنىً جديد..

٢ – **شَمَّتَ:** عن أبي موسى الأشعري – رضي الله عنه – قال: سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول: " إذا عَطَسَ أحَدَكُمْ فَحَمِدَ اللهَ.. فشمِّتوهُ. فإن لم يَحْمَدْ اللهَ.. فلا تُشمِّتوهُ" رواه مسلم؟.

وقد رجعت إلى المعجم لأتأكد من معنى "شَمَّتَ" فوجدت المعجم الوسيط يقول: " شَمِتَ به أو بعدوِّهِ شماتةً: فرِح بمكروه أصابه، فهو شامتٌ، جمع: شُمَّاتٍ، وهنَّ شوامتَ. وأشمتَهُ اللهُ بعدوِّهِ:جعله يشمتُ به. وفي التنزيل العزيز﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾، وشمّته – بتشديد الميم – بمعنى أشمته. وشمّت العاطس وعليه: دعا له بالخير، كأن يقول له: يرحمك الله".

ومما ورد في: لسان العرب" :.والشوامت: قوائم الدابةِ، واحدتها: شامتة.. قال النابغة الذُّبياني: هذا بيت شعر فارتاع من صَوْتِ كَلاَّبٍ فباتَ لهُ: طوعَ الشوامتِ من خَوْفٍ ومن صَرَدِ.

والذي ارتاع هو الثور الوحشي عندما سمع أمرِ الصياد لكلابه لكي تلحق به.. فأسرع الثور الجري على شوامته (أي قوائمه) هارباً من الصياد ومن كِلابِهِ.

– إذن، كيف استُخدِمَتْ كلمة (شمّتَ) بمعنى الدعاء للعاطس، ومعناها في هذين المعجمين المعتبرين: فرح بمكروه يصيب العدو؟ استعملت بمعنى الدعاء للعاطس ذلك لأحد سببين أو.. لهما معاً وهما:

الأول: أن الرسول الكريم استخدم الكلمة بمعنى "السلْب" أي: سلب منها معنى الشماتة (الفرح بمكروه يصيب العدوّ)، وأعطاها المعنى الجديد – وهو المعنى النقيض– وهو الدعاء للعاطس بخير كطلب الرحمة له، وهذا السلب معروف في اللّغة، فقد سمّى أحد الخلفاء جاريةً – له – رائعةَ الجمال، وهي إحدى جواريه، "قبيحة" وذلك لأمرين: **الأول** – سلب القبح منها، ومن يُسلَبُ القبح منها وتعطى المعنى الضدّ فهي – غالباً – جميلة. **والثاني** – مواقاةً من العين. فالخليفة لا يريد أن يقال لها: الجميلة حتى لا تصاب بالعين.

ونحن نستخدم معنى السلب في مهنة من أهم المهن وهي "التمريض" فنقول: الممرض والممرضة. ومعناها في الأصل الذي يجلب المرض للناس. ولكن هذا المعنى "سُلِبَ" منهما، فتُعورِفَ على ان الممرض والممرضة هما اللذان يداويان المريض، فيسلبان منه المرض، بقدرة الله تعالى أو يحاولان.

والسبب الثاني في "شَمَّتَ".. أن القوائم تُسمى "شوامت" لأنها تستطيع أن تنجي الإنسان أو الحيوان من عَدُوِّهِ هرباً منه. فكأنها – بإنجائها صاحبها – تشمتُ بالعدو أو تشمتُ صاحبها بالعدوّ. وعلى هذا فمعنى "شَمَّتَهُ" ادعُ له بشوامت قادرة على إنجاء صاحبها من عدوِّه. ولا تكون الشوامت هكذا إلا اذا كان الإنسان أو الحيوان صحيح الجسم. أما يقول مريض القلب أو الكِلى أو المعدة.. للطبيب: "رِجْلاي لا تكادان تحملاني؟" فالرجلان أو الأرجل (الشوامت) تتأثر بصحة صاحبها، فتضعف في المرض، فلا تنجي صاحبها من العدوّ، وتقوى في الصحة.. فتُنجي صاحبها وقد تكون الرجلان للإنسان والأرجل للحيوان نفسها مريضة.. فلا تُنجيه من العدو بل تمكن العدو منه. وبذلك لا "تطيعه الشوامت المريضة، في حين كانت شوامت الثور الوحشي الذي وصفه

النابغة "**تطيعه، لأنه كان صحيحاً**، وكانت هي صحيحة كذلك" وهذا نوع من المجاز الذي أطلق فيه —الجزء— وأريد الكلُّ.

وبالمناسبة.. فإن الشعراء في الجاهلية؛ جُلّهم، كانوا يجعلون الحيوان ينجو من الصياد، نصراً للحياة على الموت. والصراع بين الصياد وكلابه وبين الحيوان.. يمثل الصراع من أجل الحياة في الجزيرة العربيّة التي كان أهلها — في الجاهلية — يعانون كثيراً من أجل العيش. لقد كانت تقوم الغزوات من أجل السيطرة على منابع الماء والكلأ.. طلباً لاستمرار الحياة وتشبُّثاً بالحياة.

— يبقى أن نقول: إن قول المعجم: شامتٌ جمعه شُمّاتٌ وهنَّ شوامتُ. لا يعني أنه لا يجوز أن تأتي بالجمع القياسيِّ وهو: للرجال شامتون وللنساء شامتات. أما قال أبو ذُؤيب الهذليُّ، عندما توفي له أربعة أبناءٍ، في طاعون فشا في مصر:

وَتَجلُّدِي للشامتينَ أُريهُم ... أنّي لريبِ الدّهرِ لا أَتَضَعْضَعُ

وهذا الجمع يأتي مرفوعاً بالواو ومجروراً بالياء، لأنه جمع مذكر سالم، وأبو ذئيب ممن يُحتَجُّ بلغته.

أما المعجم فقد اكتفى بذكر الجمعين اللذين أودرناهما لأنهما لا يخلوان من غرابة. وهذا دأب المعاجم.. تذكر من المشتقات ما ليس قياساً وما كان غريباً. وتترك القياسي والمأنوس — غالباً — اعتماداً على معرفة المهتمين باللّغة.

وإنه ليجوز لعامة القُرّاء أن يشتقّوا ما يشاؤون، لأداء معنى، ما دام الاشتقاق قياساً. ويجوز للكتاب والأدباء واللغويين.. أن يشتقوا — بذوقهم المصقول — اشتقاقاتٍ غير قياسية. لان اللّغة — أي لغة — تنمو وتتطور بوسائل عدة، منها هذان النوعان من الاشتقاق وبهجرهما (وهجر سائر الوسائل) تتراجع اللّغة، وتتخلف عن مجاراة متطلبات الحياة.

٣ — **طائح**: وقريب من الاشتقاقين اللذين ذكرهما المعجم الوسيط: (شُمّاتٌ وشوامتُ) قول اللسان، وكذلك **القاموس المحيط** الذي ينقل كثيراً عن **اللسان**، دون أن يُشير إليه: "**طاح يطوح ويطيح طوحاً**: أشرفَ على الهلاك ثم يقول: "وطَوَّحَته الطوائح: قذفته القواذف. ولا يُقال: المطوِّحات. وهو من النوادر كقوله تعالى ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾.

وقد بينا سابقاً أنه يجوز أن نقول: لواقحُ ومُلقحاتٌ - بكسر القاف - في غير القرآن بمعنى أن هذا الجمع - مُلقحان- لم يرد في القرآن، وما لا يريد في القرآن لا يحل محل لفظ في القرآن.. ومثلها: الطوائح. فأنا أرى أن تَحَكُّمَ اللسان بأنه لا يجوز "المطوحات" تَحَكُّمٌ يخالف طبيعة اللّغة التي يُقبل فيها القياس إلى جانب الاستثناء أو "النادر" كما قال عنه اللسان، في الحالات التي ترد فيها صيغةٌ نادرة. لقد مد البصريون القياس وفضّلوه على السماع. أما الكوفيون فقد قاسوا على السماع القليل والسماع الكثير. وهذا أهدى. وبهذا الانفتاح واحترام القياس على القليل إلى جانب القياس على الكثير، تنمو اللّغة وتتطور. نحن طبعاً لا نُخَطّئ من يستعمل النادر أو نعيب عليه، لأنه "سُمِعَ" عن العرب. وكل لغات العرب حُجّةٌ، كما يقول ابن جِنّي، صاحب كتاب "الخصائص". وهو عُمدةٌ في فهم اللّغة والتضلّع في النفقةِ فيها. وإننا لنشجع الذي يستعمل القياس على الكثير وعلى القليل. لان القياس.. أقرب إلى أن "يعلم" ويتمد في عروق اللّغة بل إن الاستثناء أو النادر.. يصلح أسلوباً "معتمداً" لتعليم اللّغة عند علماء النحو في الكوفة. واللّغة العربيّة، بشكل عام، لغة قياسية، اذ يغلب عليها القياس في النحو وفي الصرف وإن النادر الذي سُمِع عن العرب لا ينقاس، وإنما يُقاس عليه، إنما الذي ينقاس هو كلام المُوَلّدين.

أكثر ما يصحّ "للسان، ولأي كتاب لغويّ آخر أن يقول: "ولم يستعمل العرب إلا الطوائح" لأننا أبناء العرب، وكما كانت اللّغة لغتهم.. فهي الآن لغتنا. ولنا، بل واجب علينا أن نفعل كلّ ما يجعلها متطورة صالحة لهذا العصر، وللعصور اللاحقة، ومما يجعلها تتطور مدُّ القياس النحوي والصرفيّ والدلالي سواءٌ على مذهب البصرة أو على مذهب الكوفة.

يبقى أن أقول: إن "طاح" أصلها: طوَحَ وطيَحَ. لأن عين الفعل، واويّة ويائية. وذلك فالمصدر: طَوْحٌ كما ورد في المعجم، وطَيْحٌ أيضاً كما نرى. بل يمكن ان يُقال: طوَحانٌ مثلُ نفرانٍ وغليانٍ. واسم الفاعل طائح، أصلها: طايح وطاوِح. ثم قلبت الياءُ والواو همزةً. كما نقول: قال يقول: قائل. وقال يقيل (أي: ينام وقت الظهيرة)، واسم الفاعل قائل. فقد قُلبت الواو في "قال" الأولى.. همزة، كما قلبت الياءُ في "قال" الثانية.. همزة كذلك.

- ومعروف أن "طائحة" جمعها: طوائح - كما وردت في المعاجم. والطوائح أصلها: طواوِحٌ وطواويحٌ، لأن فعلها واويٌّ ويائيٌّ أي.. نقول: طاحَ يطيحُ ويطوحُ. ويجوز أن تُجمع

طائحة على طائحات (إضافة إلى ما أوردته المعاجم)، لأن الطائحات.. اشتقاق آخر في اللّغة، وهو جمع قياسيٌّ لطائحة لا غبار عليه عند العقلاء من المشتغلين باللّغة. بل إنه ليجوز للغويّينَ والأدباء أن يستعملوا الصيغة القياسية على الأعم الأغلب – أي صيغة – مع وجود الصيغة النادرة التي يقاس عليها أيضاً إذ احتيج إليها لأن توليد ألفاظ جديدة للمعاني الجديدة أمر ضروري جداً، لكي تبقى اللغة حية وتساير التطور في الحياة.. ولذلك.. يجوز أن نقول: طاح طيحاً إضافة إلى قول المعاجم: طاح طوحاً، لأن الفعل يائي وواويٌّ، كما أسلفنا.

وبعدُ: فإن الذي يظنّ أن المعاجم حَوَتْ كلَّ المشتقات إنما يدلل على جهله باللّغة. إن قُصارى ما تأتي به المعاجم هو جذور الكلمات وبعض المشتقات الغريبة. أما جمهورُ المشتقات.. فتوليده من مسؤولية اللغويين والأدباء والكتاب للتعبير عن المعاني الجديدة التي يأتي بها تطوّر الحياة كل يوم. وبغير فتح باب القياس والاشتقاق على الكثير، وعلى القليل.. تَضْمُرُ اللّغة. وهذ.. ما نحاول أن نتحاشاهُ وأن نُبعد عن اللغة مأتاهُ.

الموضوع الرابع

مادّةُ الفِعل "عَنَدَ" / تحليلها لُغويّاً*

في هذه المقالة.. أركّز على شيئين: -

الأول – أن كل المشتقات من مادةٍ لغويةٍ واحدة، وما أكثرها، ترجع كلُّها في جزءٍ من دلالتها، إلى المعنى الأصلي أو المركزي الذي يتضمنه الفعل أو يتضمنه أيُّ أصل لغويٍّ آخر، سواءٌ أكان الأصل فعلاً أم مصدراً أم اسمَ ذاتٍ أم حرفاً.. الخ ثم يستقلُّ كلُّ مشتقٍ بمعنىً خاصٍ به.

الثاني – أن أبيِّنَ من، خلال الأمثلة، أن اللّغة العربيّة (بل كل لغةٍ) تتطور دلالات الألفاظ فيها بحيثُ تحمل اللفظة معانيَ مختلفة من عصور مختلفة، يموت بعضها أو يتراجع في الاستعمال ويبقى بعضها الآخر حيّاً. وكذلك تتطور مادّتُها.. فتنشأ اشتقاقات جديدة للتعبير من معانٍ جديدة. لأن المعنى الجديد.. إما أن تحملهُ لفظةٌ قديمةٌ أو يُشتقّ له لفظةٌ جديدةٌ. إنّ المعاجم تحوي "جذور" الكلمات، وبعض المشتقات. ولكن معظم المشتقّات كامنة في جذورها.. تظهر عند الحاجة.

– ولذلك.. يجب أن يُسمح بالتطور اللُّغويّ، سواءً أجاءَ عن طريق دلالاتٍ جديدةٍ للألفاظ أو عن طريق اشتقاقِ ألفاظٍ جديدةٍ، لأن حياة اللّغة تكمن في أن يُسمح لقوانين اللّغة أن تستمرّ في فاعليتها. ومن قوانين اللّغة تطوُّر الدّلالة بشقّيه السابقين، وتوليد مشتقات جديدة.

– وفي الصفحات اللاّحقة سنُعالج مادة "عَنَدَ" ومُشتقّاتها:

١ – **يقول معجم لسان العرب:** ".. رجل عنيدُ: عاندٌ" يعني المعجم أن معنى (عنيد) هو : (عاند)، وأنا أرى أن هذا نوع من التوسّع **"فليس من صيغتين في اللّغة العربيّة بمعنىً واحدٍ.** فصيغة رحيم مثلاً ليست كصيغة راحم. لأن الأولى تعني توكيد الرحمة. أما الثانية فتعني الذي عنده رحمة عادية، كما هو حال نسبة كبيرة من الناس. أما ترى أن الحق تعالى قال: ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأعراف: ١٥١] فأرحم الراحمين ليس راحماً وإنما هو رحيمٌ، لأنه مفضّلٌ على الرّاحمين أي: لأن (أرحم

(*) كتبت سنة – ٢٠٠١م.

الراحمين) – رحيم . أي: صيغة "توكيد". ومفردها: راحم. أما قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾ [البقرة: ٣٧].

فالله تعالى – لهذا – لم يوصف في القرآن كله بأنه راحم، بصيغة اسم الفاعل، وإنما وصف بأنه رحيم وهي الصيغة التي تدل على توكيد الرحمة لأنها صيغة مبالغة[1]. وهذه أكثر توكيداً من اسم الفاعل.

– لهذا.. فعاندٌ اسم فاعل، ولذلك ففيه من العناد قدرٌ محدود. ولكن عنيداً صفة مشبَّهةٌ، ففيها من العناد الشيء الكثير. ولذلك فالعاند يمكن أن تثنيَهُ عن عناده، أما العنيد فلا يمكن ثَنْيُهُ، لأن العناد مترسِّخٌ في جبلّتِهِ. أمَا ترى أنّ أبا بكر قال في خطبة له: "وسترون بَعدي مُلكاً عَضوضاً ومَلِكاً عنوداً؟" والعنود قريب من العنيد، (وليس مثله شيء)، لأن كليْهما صفةٌ مشبَّهةٌ.. فيه من العناد أكثر مما في اسم الفاعل: عاندٌ. بل أما ترى قول الله تعالى: ﴿وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ٥٩﴾ [هود: ٥٩].

فالجبار لا يوصف بعاندٍ التي تقلُّ فيه كمية العناد[2]، وإنما يوصف بعنيد، لأنها هي الصيغة التي تناسب الجبار على وزن "فعّال" وهي صيغة مبالغة. والجبار: المتكبّر والقاهر العاتي المتسلّط، فلا يصحُ ان يقال حتى في كلام البشر: كل جبارٍ عانِد. لأن

---

(١) الحدُّ الفاصل بين صيغة المبالغة (ويمكن أن نُسميها صيغة تكثير أو توكيد وخاصة في القرآن) والصفة المشبهة.. هو أن الأولى تأتي من الفعل المتعدي أما الثانية فتأتي من الفعل اللازم ولا تلتفت إلى أيّ استثناء لا يبين الفرق فيه واضحاً بين المعنيين، وقدّ القياس نرى أن يكون لازماً في الإعراب، لأن الحركة في الإعراب لها معنىً خاصّ، فإذا تغيرت الحركة من غير أن يتغير العامل بطل المعنى الخاصّ، فبطلت قيمة وجود الحركة . وهذا .مُنافٍ لطبيعة العربية (المعربة) – ونرى أن يكون لازماً في معاني "الصيغ" الصرفية، لا في معاني "الألفاظ" لأن الألفاظ، لكل اشتقاق منها معنىً لغويّ خاصّ. فإذا قلنا – مثلاً: (أثّاقلتم) اختلف المعنى عن (تثاقلتم) . ولا تشتد أيٌّ منهما مسدَّ الأخرى، لأن (أثاقلتم) فيها توكيد للتثاقل أكثر من (تثاقلتم). وليس كذلك معنى (الصيغة) الصرفية المطردة، فإذا قلنا : (صبور) كان فيها م من المبالغة مثل الذي في (شكور). يبقى أن أقول: **في القرآن لا نقول: (صيغة مبالغة) تأدّباً معه، وإنما نقول : (صيغة توكيد) – لأن القرآن لا يُبالغ ، وإنما القرآن (موزون) يضع كل شيء في موضعه**، لأن إصلاح اللّغة يستدعي مدَّ القواعد والقياس على طول المادة المعالَجة. ومع ذلك.. فنحن لا نخطئ الاستثناء بل يمكن أن يصبح قاعدة.

(٢) كمية المعنى في "عنيد" أكثر منها في "عاند" تعني أن الأول يدلُّ على التوكيد، والثاني لا يدلُّ على توكيد.

الصيغتين تنافرا في كمية المعنى. وقال تعالى كذلك: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾﴾ [ق: ٢٤]، فلم يقل الحق تعالى كل كافرٍ.. لأن كمية المعنى في كافرٍ أقلُّ بكثير من كفّار. ولم يقل: عانِدٌ، لأن كمية المعنى فيها أقل منها في كفّار. إذن، الكلمتان المنسجمتان، إحداهما مع الأُخرى، هما: كفّارٌ وعنيدٌ أيْ: صيغة: فعّال وفعيل، وهما صفتان مشبّهتان. والشاعر العظيم المتنبي قال:

لولا المشقةُ سادَ الناسُ كُلُّهُمُ ... الجودُ يُفقِرُ والإقدامُ قتّالُ

فلم يقل: قاتل وإنما جاء بصيغة المبالغة: (قتّالُ) على وزن: فَعّال، لأنه أراد أن يؤكد المعنى الذي ورد في بيته. قد يُقال: إن وزن الشعر ألْجَأَهُ إلى ذلك. فنقول: **إن الشعراء الكبار لا يُعجزهم الوزن،** فهم قادرون على التصرّف بحيثُ ينسجم المعنى مع الوزن. إن المعنى شيءٌ مُهمٌّ عند الشعراء الكبار، ولذلك يندر أن يُفرِّط أحدهم فيه من أجل الوزن. فالانسجام تامٌّ بين المعنى والوزن – كلها تنبثق معاً.

ونقول: لكأنّ ابن منظور عندما قال في اللسان: "عنيدٌ: عاندٌ" إنما أراد إلى جانب التوسُّع في المعنى التوضيح أي: إن عنيداً مشتقةٌ من عاند فأصل المعنى في عاند. ولكن توكيد المعنى جاء بصيغة عنيد. **وعاند مشتقّة من الفعل "عَنَدَ".**

٢ – ثم قال اللسان: **"العنُود والعنيد بمعنى".**

وأنا أرى أن اللّغة لم تأتِ بكلمتين لمعنى واحد. كما عرفنا في صيغتي عاند وعنيد السابقتين.. ولكن تأتي اللغة بمعنين أو أكثر لكلمة واحدة. **لأن المعانيَ غيرُ متناهية. أما اللّغة فمتناهية،** فمن حكمة الخالق التي وضعها في العربيّة أو في صدور الناطقين بها أن المتناهيَ (اللّغة) لا يقبل أبداً التعدّد للمعنى الواحد، أما غيرُ المتناهي (المعاني) فإنه يقبل أن يتعدد للكلمة الواحدة، ليكون للكلمة الواحدة عدةُ معانٍ. لأن الكلمة تتطور معانيها بين عصر وعصر. أما كانت الصلاة في الجاهلية تعني مطلق الدعاء ثم أصبحت في الإسلام، تعني عند الإطلاق هذه الصلاة المفروضة على المسلم: هذه الحركات وقراءة القرآن والأدعية التي يقصدُ بها المسلم عبادة ربه، طاعةً له لقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [البقرة: ٤٣]. لم يمت معناها الأول وإنما تراجع أمام المعنى الثاني. أما ترى كذلك أن – الحاجب – في الجاهلية كان يعني

العظم الذي فوق العين بما عليه من لحم. وهو أيضاً: الشعر النابت على لحم هذا العظم. ثم أصبح يعني في العصر العباسي (إضافة إلى المعنيين السابقين) الرجل الذي يتولى أمر المراجعين ليدخل بعضهم إلى الخليفة ويصرف بعضهم الآخر؟ أما ترى كذلك أن لفظة: المأذون كانت تعني الشخص الذي يسمح له بالدخول أو الخروج أو القيام بعملٍ ما. ثم.. أصبحت (إلى جانب المعنى الأول) الشيخ الذي يُوَثِّقُ عقود الزواج؟ هذا معنى محدث جدّ وأدخله المعجم الوسيط الى موادّه.

– هذا تطورٌ لغويٌّ لا بدّ منه، لكي تواكب اللّغة التطور وتستجيب للمعاني الحديثة. ولا شكّ أنّ الاشتقاق قانون آخر من قوانين التطور اللغوي. لم يكن العرب يستعملون كلمةِ "حاسوب" مثلاً، لأنه لم يكن قد جدّ عندهم معنىً يستدعي مثل هذا الاشتقاق من الفعل "حَسَبَ". ولكن عندما اخترع الـ (Computer) وجاء الى بلادنا كان الأولى ألا نُبقيَهُ على اسمه الأجنبي (= الانجليزيّ) وإنما نشتقّ له اسماً من لغتنا، وكان الاشتقاق مُوفّقاً.

– إذن.. عنود ليست بمعنى عنيد. والدليل الأول على ذلك أن لسان العرب يقول: العنود الناقة التي لا تخالط الإبل، ولا تزال منفردة عنها، تبحث عن أجود المراعي. والعنود يُطلقُ على ذكرِ الإبل كذلك الذي لا يخالط الإبل، بحثاً عن أجود المراعي. فالعنود.. تطلق على المذكر والمؤنث من الإبل. وقد تطلق على الرجل والمرأة من باب المجاز؛ فالرجل العنود هو الذي يلتزم العزلة ولا يخالط الناس، والمرأة العنود هي التي لا تخالط الرجال ولا تندفع لمخالطة النساء. والدليل الثاني – أن القرآن الكريم استعمل كلمة (عنيد) أربع مرّات، ولم يستعمل (عنوداً) ولا مرّةً واحدةً. فلو كانت الكلمتان بنفس المعنى[1] لاستعملها مرة أو مرتين مثلاً. أما عنيد، فمعناها: المعارض ذو المعارضة الشديدة. وقد وضح هذا المعنى في قول الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِأَيَٰتِنَا عَنِيدًا ١٦﴾ [المدثر: ١٦] أي: جاحداً ومُعارضاً.

(١) بعض اللغويين يخطّئون عبارة "نفس المعنى" أو نفس الكلمة ويرون أن الصّحيح هو: المعنى نفسُهُ أو الكلمة نفسُها. والصواب أنها جائزة فقد ورد مثلُها في (الكتاب) عند سيبويه (الكتاب: ٣٥٢/٢) وورد في (لسان العرب): نفسُ الجبَلِ مُقابلي.

– **طبعاً**، هذا.. لا يعني أنه ليس من لقاء في أصل المعنى بين عنيد وعاند، وبين عنيد وعنود. فأصل معنى مادة "عَنَدَ" تَجَبَّرَ وخالفَ وعارضَ. وكلها ترجع الى معنى واحد: فالمتجبِّر لا شكَّ أنه مخالفٌ ومعارضٌ. والمخالفُ معارضٌ. ولم يُطلق على المتجبر هذه الصفةُ إلا لأنه يتمسك برأيه ويحمل الآخرين على قبوله، وفي ذلك رفضٌ ومخالفةٌ لآرائهم.

– **إن هذا المعنى** يشير إلى أن كلّ المشتقات المتولدة من الفعل "عَنَدَ" **كلها تلتقي في أصل المعنى**.. ثم يكون لكلّ مشتقٍّ معنىً خاصٌّ به، ومن أمثلة ذلك:

أ – **تعاند الخصمان**: تجادلا. والمجادلة تتضمن معنى المعارضة لأن كلاً من المتجادلين يعارض خصمه راغباً في التفوق عليه. ولن يكون تفوّقٌ بلا معارضة ومخالفة. ولعله يُلمح معنى التجبر كذلك.. لأن المجادل يحاول أن يستطيل على خصمه. والاستطالة لا تخلو من تجبرٍ. والخصمان كل منهما يعمل على مخالفة خصمه والاستطالة عليه. قال تعالى: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾﴾ ق: ٢٨] أي: لا يُعارضْ بعضُكم بعضاً، كل منكم يُلقي المسؤولية على الآخر.

ب – **العاند**: البعير الذي يجور عن الطريق ويعدل عن القصد. وهذا يعني أنه بجوره عن الطريق يعارض الطريق ويخالفها، ويمشي مع ما لم يكن ممهداً من الأرض.

ج – **وعندت الطعنةُ**: إذا سال دمعها بعيداً من صاحبها. وسيلانُ الدم بعيداً عن صاحبه إنما هو مخالفة لصاحبه الذي يتمنى ألا تسيل منه قطرة واحدة. إنه يخرج على رغبة صاحبه أي: يعارضها.

د – **وعَاندةُ** الطريق: ما عُدِل عنه فعَنَدَ. أنشد ابن الأعرابي:

فإنكَ والبكاءَ بعدَ ابنِ عمرو ... لكالساري بعاندةِ الطريقِ

يقول اللسان: (رُزِئت عظيماً فبكاؤك على هالك بعدهُ ضلال. أي: لا ينبغي لك ان تبكي على أحدٍ بعده). وما عُدل عن الطريق من المسارب إنما اعوجّ عن الطريق. وما اعوجّ عن الطريق فقد خالف الطريق وعارضه.

هـ – **وقال ابنُ الأعرابي** "عاند فلانٌ فلاناً: فَعَلَ مِثْلَ فعله. والذي يفعل مثل فعلك إنما هو يحاول أن يضاهيك. وكأنه بذلك يريد ان يكسب الصنعة – مثلاً – منك. ولاشكّ أن الذي يقلّد شخصاً ينطوي على مفارقته أو مخالفته. وذلك عن طريق مضاهاته

او الاستقلال عنه بعد ان يتقن الصّنعة. أما ترى أن كل كاتب أو شاعر يبدأ بتقليد كاتب كبير او شاعر كبير، ثم بعد أن يتمرس يستقل عنه أي: يخالفه أي: يعانده؟ بل أما ترى أن النقاد سَمَّوْا القصيدة التي يحاول صاحبها أن يأتيَ بها على غِرار قصيدة أخرى في الوزن والقافية، مع اختلاف المعنى (أي: مع معارضة معناها للقصيدة الأقدم) سَمّوْها (القصيدة المعارِضَة) وأطلقوا على القصائد التي تأتي في هذا الباب (المعارَضات) والمصدر: معارضةٌ: وجمعه: مُعارضاتٌ؟ ومن هذا النوع من القصائد سينية شوقي التي مطلعها:

اختلافُ النهارِ والليلِ يُنسي ... اذكرا لي الصِّبا وأيامَ أُنْسي

فقد عارض بها سينيَّةَ البُحتُرِيِّ التي مطلعُها:

صنتُ نفسي عمّا يُدَنِّسُ نفسي ... وتَرَفَّعْتُ عن جَدا كُلِّ جِبْسِ(١)

فقافية قصيدة شوقي هي السين كقافية قصيدة البحتري. ووزنها كَوَزْنِها. فهو: فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن. وهي تفعيلان البحر الخفيف. وكلن الموضوع مختلفاً من حيثُ المكان الذي وصف آثار؛ فالبحتري وصف إيوان كسرى وشوقي وصف المسلمين في الأندلس، كقصور قرطبة وقصور الحمراء. والجامع بين الإيوان والقصور هو خُلوُّها من ساكنيها واقترابُها من أن تكون أطلالاً؛ الموضوع العامّ واحد، ولكن "صورة" كلٍّ من الموضوعين مستقلةٌ عن الأخرى أي: معارضة لها.

و – يقول لسان العرب: "ويقال: عاند فلان فلاناً أي: يفعل مثل فعله، وهو يعارضه ويباريه" قال: والعامة يفسرونه.. يعانده يفعل خلاف فعله. قال الأزهري: "ولا أعرف ذلك ولا أُثبته".

– وأقول: يحسُن أن أشير – أولاً – إلى أن العامّة ليسوا.. العوامّ وحدهم. وإنما هم جمهور الناس من كُتّاب وأدباء وعوامّ. وعامّةٌ – بهذا – شبيهة بكافةٍ – بل حتى اذا نظرنا الى العامّة أنهم جمهور الناس، مُستثنىً منهم الكتاب والأدباء. فإنهم يمتلكون سليقة لغوية خفية. إن معظم كلمات العامة أي: اللهجات العامية إنما هي من الفُصحى مع سقوط حركات الإعراب فإذا صحّحَ اللغوي لفظ بعض الحروف المبتعد عن الفُصحى كلفظ الكاف (تشاف) في مثل الكاف في "لك: إذ يلفظ كلفظ (ch) من كلمة (chair) في اللّغة الانجليزية..

(١) الجَدا: العطاء، يعطيه الخليفة أو الأمير إلى السائلين من شعراء وغيرهم. والجِبس: الثقيل الجافي الغليظ.

– إذا صحّ ذلك.. أصبحت الألفاظ العامية فصيحةً بنسبة تسعين بالمئة تقريباً[1]. لأن العامة (وحتىّ العوامُّ) لا يستعلمون الألفاظ لغير معانيها في الفُصحى إلا من باب التطور في الدلالة والاشتقاق الذي سنعرض له تالياً.

ز – إنّ سليقة اللّغة متمكنة من نفوس العامة (أو الجمهور) لأنهم يتلقونها من المهد إلى اللحد، وذلك بتلقيهم العاميّة أولاً القريبة من الفُصحى، كما أسلفنا. ثم العامية والفُصحى في وقت واحد معاً. ولذلك.. فهم قادرون على تطوير اللّغة (واللّغة التي لا تتطور تموت) في الألفاظ عن طريق الاشتقاق، وفي المعاني عن طريق تطوُّرِ الدلالة:

– فمن تطويرهم للألفاظ مثلاً أن الفِعل "فَتْفَتَ" موجود في المعجم. ولكن الاسم المشتقّ منه غير موجود. ولكن العامة اشتقته وهو "فتفوتة" وجمعه "فتافيت". وهما

---

(١) ومثلُ الألفاظ التراكيبُ.. فَنِصفُ التراكيب تقريباً مُماثلة لما في الفُصحى.. لأن أصل العامية من الفُصحى أي: من اللهجات العربيّة الفصيحة. أما نصفها الآخر فمفارق للفصحى.. لأن العامية سقطت منها الحركات، والحركات لها أهمية كبيرة في نوعية التركيب. مثلاً في الفُصحى قال القرآن الكريم: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ [البقرة: ١٣٢]، وذلك بضمِّ آخر إبراهيم، وآخر يعقوب – عليهما السلام – والضمُّ دلّنا على أن إبراهيم ويعقوب قد وصيا بها (أي: بكلمة الإسلام) بَنِيهما. عرفنا ذلك.. لأن "يعقوب" جاءت مرفوعة كإبراهيم، فهي فاعل مرفوع بالضمة الظاهر على آخرة كما أن إبراهيم فاعل مرفوع بالضمة الظاهرة على آخرها. ولولا الحركات (حركة الضم هنا) لاعتبرنا أن إبراهيم وصّى بنيه بكلمة الإسلام ووصّى أيضاً يعقوبَ بها، لأن كلمة يعقوب جاءت بعد المفعول (بنيه).

ولذلك فالعامّة.. لا يستيطعون أن يوردوا هذا المعنى إلا بإحدى طريقتين: الأول – أن يقولوا: ووصى إبراهيم بها بنيه، وكذلك وصّى يعقوب بها بنيه. والثانية – أن يقولوا: ووصّى إبراهيم ويعقوب بها بنيهما.

والطريقة الأولى فيها وضوح، ولكنّ فيها تطويلاً. فهي أطول من عبارة القرآن. ولا شك أنّ البلاغة في الإيجاز إذا تساوى التعبيران في أداء المعنى. وتعبير القرآن أوجز بكثير من تعبير العامّة، فالبلاغة كامنة به لا بتعبير العامة.

أما الطريقة الثانية فقد خلطت بين الأهم والمهم، أي: جمعت بين إبراهيم ويعقوب متتاليين لا يفصل بينهما إلا حرف العطف. ومن حقِّ تمام المعنى أن يُباعَدَ بينهما.. فيأتي إبراهيم في أول العبارة، ويأتي يعقوب في آخرها، بعد أن يكتمل المعنى. وسببُ هذا الفصل أنّ إبراهيم هو أبو الأنبياء، فيعقوب لا يساويه في مرتبة النبوّة. أما قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. يضاف إلى ذلك أنّ يعقوب حفيد إبراهيم. ومن حقِّ الجدِّ أن يتقدم على حفيده. أما قال الرسول – صلى الله عليه وسلم – : "ليس منّا من لم يرحمْ صغيرَنا (ويرفِّرْ) كبيرَنا"؟.

واضح من هذا أن عبارة القرآن أوجزُ وأوضح من تينك العبارتين اللتين اقترحناهما. وواضح من هذا أيضاً لماذا يضطر العامة أن يفارقوا بتراكيبهم تراكيب الفُصحى في نصفها تقريباً ذلك لسقوط حركات الإعراب عندهم. ولعله قد وضح من ذلك أيضاً أن لحركات الإعراب قيمةً كبيرةً في اختصار التعبير وتوضيح المعنى. (ملاحظة: إبراهيم وحفيده يعقوب ممنوعان من الصرف، بسبب العِلَمِيّةِ والعُجمةِ). ملاحظة: ورد مثل هذا الكلام سابقاً.

اشتقاقان (المفردُ، والجمعُ) لا غبار عليهما، ويجدر إلحاقهما بمفردات المعجم الفصيح. ثم اشتقوا من الفعل "خَرِفَ".. فعلاً آخر هو "خَرْفَنَ". ومعنى خَرِفَ الرجل: فسدَ عقلهُ من الكِبَرِ. وخرفن: فسد عقله من الكبر كذلك، ولكن بصورة أكبر بحيث لم يَعُدْ يعي شيئاً. فالرجل الخَرِف عند العامة هو الذي فسد عقله مع بقية، أما الرجل المَخْرفِنُ فهو الذي فسد عقله فساداً تاماً. والعامة بهذا تجري على قواعد الصرف في العربيّة. أما قالوا قديماً: "سَرْجَنَ" من السِّرجين وهو ما تُسَمَّدُ به الأرض. فسَرجَنَ الأرضَ سمدّها بالسرجين، وهو نوع من الزِّبل؟ وقالوا أيضاً من: رجلٍ أزْرَقَ "زُرقُم". قال الأصمعي: "ومما زادوا فيه الميم: زُرْقُمٌ للرجل الأزرق الشديد الزُّرقة". أقول: فالميم زائدة لزيادة في المعنى، لأن القاعدة المشهورة في فقه اللّغة تقول: "**كلّ زيادة في المبنى تدلّ على تغيّر أو زيادة في المعنى**". والعكسُ صحيحٌ: "**فكل زيادة في المعنى تستدعي زيادة في المبنى**" أما ترى أن "حُسباناً" التي آخرها الألف وزيدت فيها النون على كلمة "حساب".. تُعطي معنى زائداً على ما في: حساب. فهي تعني الحساب الدقيق دقةً كاملةً. ولهذا قال الله تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝﴾ [الرحمن: ٥] ولم يقل: بحساب لأن الحساب أقلّ دقةً من الحُسبان. ولا يصلح للشمس والقمر إلا الحساب الدقيق دقة متناهية **فلو انخفضت الشمس عن مسارها لاحترقت الأرض ومن عليها وما عليها. ولو ارتفعت عن مسارها لتجمدت الأرضُ ومن عليها وما عليها كذلك.**

– إذن.. زيادة المبنى في خَرْفَنَ دلّت على معنىً إضافي. وكذلك: زُرقمٌ. وأنا أرى أنه يمكن أن نشتقّ من الأخيرة فعلاً فنقول: زَرْقَمَ أي: اشتدّتْ زُرقَتُهُ لأن العرب اشتقّوا من الفعل ومن المصدر ومن اسم الذات ومن الاسم الجامد ومن الضمائر بل ومن الحروف. أما قالوا حديث مُعنعن، وعَنعن الحديث ومشتقاتٍ أخرى؟ وذلك للحديث الذي يرويه الراوي بصيغة: عن فلان عن فلان.. الخ.

– وفي رأيي أن هذه الإضافة التي أضافتها العامة للفعل خَرِفَ.. قياساً على استعمال العرب للفعل: "سَرْجَنَ" أو للصفة "زُرْقُم".. مهمة جداً ويجب أن تستخدم مع بعض الأفعال والأسماء، فنقول: حَدْثَنَ الآلات بَدَلَ: حَدّثها. لأنَّ: حدَّث توحي أوّلَ ما توحي بالحديث أي – الكلام –، وليس بتحويل الآلات إلى وضع حديث[1]. ونقول: عَصْرَنَ

---

(١) صحيح أن بعض الكلمات في العربيّة تحمل معنيين أو أكثر.. ولكن الوضوح التامّ يستدعي أن يكون لكل كلمة معنىً خاصٌ بها، ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً. لأن العقل واللّغة ينشدان الوضوح. **وفيها بضعة قوانين يجب أن تراعي: الوضوح ثم التيسير ثم الخفة ثم الانسجام، ثم.. المُشاكلة.**

الأشياء عصرنةً.. وذلك بتحويل الأشياء إلى وضع عصري. لأن عَصَرَ الأشياء، بالتخفيف، وعَصَّرَ الأشياء بالتشديد.. لا تدلان على معنى تحوُّل الأشياء إلى صورة عصريّة إذ أن معنى: عَصَرَ العِنَبَ ونحوَهُ: أخرج ما فيه من سائل أو شراب: ومعنى: عصَّرَ: بالغ في العَصْر. وعصَّرَ الزرعُ: نبتت أكمامُ سُنبله. وهما بعيدان عن معنى العصرنة. ولكن العصر هو الدهر أو ما يسبق المغرب من الوقت. وهذا يمكن ان يشتقّ منه معنى جديد هو الزمن الحاضر. كأن يقال: هذا اللباسُ عصريٌّ، وهذا جُبّةٌ عصريّةٌ. ولكن هاتين الكلمتين.. صفتان وليستا مصدرين كالعصرية. ثم هناك الفعل: عاصَرَ. بمعنى عاش في العصر نفسه الذي نعيش فيه. ولذلك يقال: شاعر مُعاصر وكاتب معاصر.. ولكنه لا يسدُّ مسدَّ المصدر: العصرنة. ومثلُ العصرنة.. الحدثنة فالتحديث لا يُغني عنها ولا يوحي بظلالها.

– **ولكن هذا لا يعني أن نستحدث معنىً لكلِّ فعل بتحويله إلى فعل رباعيّ** عن طريق إضافة نون أو ميم في آخره. لأن ذلك **كالنحت**: يستعمل نادراً عندما تُعيي المتكلم أو اللغويَّ وسائلُ الاشتقاق الأُخرى. لأن النّحت هو تكوين كلمة واحدة من كلمتين أو أكثر. وذلك قد يقود إلى غموض في غير الكلمات الكثيرة التكرار، لأن التكرار يزيل الغموض، **واللّغة تنفر من الغموض**. وهذا النوع من الاشتقاق لا يستعمل إلا بشرطين: **الأولُ** – أن يكون مقبولاً في الذوق الذي تطبعه اللّغة في نفس من يمارسها أو في نفوس الأدباء – بالدرجة الأولى. **والثاني** – أن يستجدَّ معنىً لا يُؤدّيهِ الفعل، خالياً من النون أو من الميم.

– **ما سبق هو تطوير للألفاظ بالاشتقاق. أما التطوير عن طريق المعاني فمن أمثلته:** كلمة "**الفانوس**".. فمعناها الأصليُّ: الرجلُ النمّام. أما معناها الحديث الذي التقطه المعجم الوسيط من استعمال العامة: فهو: مِشكاةٌ مستقلةٌ، جوانبها من الزجاج، يوضع فيها المصباح لِيَقِيَهُ من الهواء أو الكسر. ولا شك أن بين المعنين "**علاقة**" كما هي طبيعة تطوُّر المعاني للألفاظ. فالرجل النمّام يكشف أخبار الناس المستورة، والمصباح يكشف ما حوله من الأشياء فالانكشاف مشترك بين المعنين وطبعاً.. لا تنتقل كلمة من معنىً إلى معنىً إلاّ أن يكون بين المعنيين (**علاقة**) ما..

وكلمة "**نَخطاً**" في قولنا: جاء الكاتب بفكرة.. **نَخطاً من رأسه** أي: ابتكرها دون سابق مثال. فهذا معنى طورته العامة لها. أما معناها في المعجم فهو نخط إلى القوم نخطاً:

خرج عليهم فَجْأة. والفكرة التي ليس لها مثال سابق لها معنى المفاجأة، لأنها تُفاجئُ صاحبها نفسه، وأكثر من ذلك.. تُفاجئُ القارىء.. فالمفاجأة.. ملحوظة في المعنيين.

– ومثل هذين المعنين معانٍ كثيرةٌ ربطها الاستعمال بألفاظ لكلٍّ منها معنىً قديمٌ أو معانٍ قديمةٌ، معظمها بقيت معانيها القديمة إلى جانب المعنى الحديث. ولكن أولَ من أطلق المعانيَ الحديثة على هذه الألفاظ.. غير معروف، فهي توليد جماهيريٌّ كالقِصص الشعبية والملاحم البابلية منها واليونانية أو التي وجدت عند شعوب أخرى.. فقائلها الأول مجهول غالباً.

٣ – بَعْدَ هذه الجولة مع تطور الدلالة من حيثُ الاشتقاق والمعاني.. نعود إلى قول الأزهريّ عن "عانَدَ": قال ابن الأعرابيِّ: "والعامة يُفسّرونه.. يعانده: يفعل خلاف فِعلِهِ" قال الأزهريُّ: "ولا أعرف ذلك ولا أُثبِتُهُ".

– ونقول: إنّ "خَالَفَ" هو أصلُ معنى عانَدَ. لأن المعاند هو المتجبر والمخالف والمعارض. وقد سبق أن بيّنا أن بين هذه الألفاظ الثلاث مشتركة في المعنى. ولذلك فإنكار الأزهريّ لهذا المعنى هو نوع من مواقف كثير من أصحاب المعاجم الذين هم يعرفون اللّغة، ولكنهم ليسوا فقهاء فيها. ولا ريب أن عثمان بن جنّي في كتابة "خصائص العربيّة" أفقهُ في اللّغة من معظم أصحاب المعاجم. وإلا.. فكيف يقول الأزهري (صاحب معجم تهذيب اللّغة): لا أعرف ذلك ولا أُثبته. أما يعرف أن الألفاظ تتطور معانيها فتكتسب معانيَ جديدةً يطرحها الاستعمال وتَجَدُّدُ حياة الناس؟ بل أما يعرفُ أن الكلمة تكتسب معاني جديدةً مُبرّرها الوحيد أن لها "علاقة" ما.. مع المعنى الأصلي للكلمة.. وعاند وخالف بينهما اشتراك في المعنى.

– إن مشكلة علماء اللّغة في العصور المختلفة أنهم قلّما يعترفون بالاشتقاقات الجديدة التي لم تكن موجودة في المعاجم. وقلما يعترفون بالمعاني الجديدة التي يطرحها الواقع والاستعمال مع.

– وذلك.. قاد إلى نتيجة خطيرة جداً: فلم تنمُ اللّغة الفصحى نموًّ كافياً بحيثُ تستجيب لما يطرحه العصر الحاضر من معانٍ وأسماءِ صناعاتٍ وأدواتٍ وأسماء أدويةٍ وأمراضٍ، تتدفّق على ذاكرة العالم كلَّ يوم بالعشرات.

– ثمّ.. أصبح هناك حاجز بين اللّغة وبين أبنائها، بحيث أصبح المثقف يحسُّ أن بينه وبين لغته جَفْوةً مما يدفعه إلى أن يتعلم الإنجليزية وَيَرْطَنَ بها. لا لأن الإنجليزية

أسهلُ من العربيّة، فالعربيّة أسهلُ من الانجليزية وأرقى منها[1]، بل لأن علماء اللّغة لا يتساهلون فيما يعدونه خطأً، وهو في معظمه ليس خطأً، وإنما هو نوعٌ من التطوُّر الذي إذا لم تمارسْهُ اللّغة تقوقعت وانكمشت، ولم يَعُدْ لها وجود معقول في حياة الناس والمثقفين خاصة.

لقد قرأت كتاب (معجمُ الأغلاطِ اللغويةِ المعاصرةِ) للأستاذ المرحوم محمد العدناني. ولا أُبالغ إذا قلتُ: إن أكثر من نصف ما خطّأهُ هو صواب يمكن بالنظر اللطيف ردُّهُ إلى التطوّر المتماشي مع قوانين تطور اللّغة العربيّة بل اللُّغات عامة، وسأعرض لهذا الكتاب في مقالات لاحقة إن شاء الله؟.

– وختاماً: فإن من عوامل تطور اللّغة العربيّة، إضافةَ دلالاتٍ جديدةٍ للألفاظ القديمة، ولكن لابد من أن يكون هناك "علاقة" بين المعنى القديم والمعنى الجديد. لأن اللّغة لا تتقبلُ ألفاظُها المعاني عشوائياً، وإنما تتلقاها بحساب دقيق عن طريق إلهام الناطقين بها ذلك أو طريق الفطرة السليمة، وأن من عوامل التطور الاشتقاق بحيث تتولد ألفاظ جديدة لكثير من المعاني الجديدة (التي لم تستوعبها الألفاظ القديمة). ولابد من أن يكون هناك "علاقة" بين المعاني المختلفة لهذه المشتقات – كما عرفنا في مادّة "عند" التي عرضنا لها في الصفحات السابقة – فتشترك هذه المشتقات بالمعنى "المركزي" أو الأصلي، ثم يستقلُّ كلُّ مشتق بمعناه الخاص به.

– إن تَطَوُّرَ اللّغة سرٌّ عجيب يمارسه أهلها بصورة أقرب إلى "الإلهام" سواءٌ أكانوا متعلّمين أم غير متعلمين. والأصحُّ.. أن الفئتين تتكاتفان على إبداعه أمّا أصل اللغة فهو (إلهام) – كما بسطنا معظم أدلته في الفصل الأول – من هذا الكتاب..

---

(١) أنظر ما كتبناه وفصّلنا فيه في غير موضع في كتابي هذا، في الفصل الأول منه.

الموضوع الخامس

المُقْلة وتطوُّرها اللُّغويّ

الأصل في المُقْلة: شحمةُ العين التي تجمع السواد والبياض وقد اشتُقَّ من المُقْلة المصدر وهو المَقْلُ أي: النظر إلى الشيء، لأن النظر إلى الشيء يأتي عن طريق النظر بالمُقلة. وقد اشتقّ من المقْل.. الفعل: مَقَلَ. بل قد يكون الفعل قد اشتق **أولاً** ثم جاء منه المصدر فالاشتقاقات تأتي من كل صنوف الكلمات في اللغة، وليس من المصدر والفعل وحدهما – وإن كان الاشتقاق منهما – أكثر.

لقد قال البصريّون: **لا يجوز الاشتقاق إلا من المصدر**. وقد أوردوا لذلك أسباباً.. أهمها أن المصدر لفظ معنويٌّ والمعنويُّ مُقدّم على الفعل، لأن الفعل ليس شيئاً معنوياً بل .. حَدَث . ولأن المصدر حدثٌ من غير زمن أما الفعل فَحَدَثٌ وزمن. والمعنويُّ أسبق في الوجود من الماديِّ، والحدث دون زمن مُقدّمٌ على الحدث مع الزمن، لأن البسيط مُقدَّم على المركّب.

– ولكن الكوفيين رأوا أنَّ الفعل هو الأصل والمصدر مشتقٌ منه، لأن اللُّغات في بَدْءِ تكوينها تنتقل من المادي إلى المعنوي، واللغات كالأمم التي تدرك في بَدْءِ تطورها المحسوس (المادي) قبل المعنويِّ الذي يأتي متأخراً في تطور الأمم، لأن الذي يكون نامياً عند الإنسان في بداية الحياة إنما هو الحواسُّ وليس العقلَ ولأن اللغة هي نتاج تطور الإنسان – ما عدا العربية–.

بيدَ أننا نجد أنّ اللّغة في تطورِها لم تُؤيّد رأيَ البصريين وإنما أيدت رأي الكوفيين إلى حدّ ما. لأن الفعل يسبق المصدر.. غالباً، مثل كلمة: كَتَبَ، فقد سبقت المصدر: كَتْبٌ أو كتابةٌ لأن الفعل حَدَثٌ، والحدثُ غالباً محسوس وحياة الإنسان بدأت بالمحسوس – بشكل عامّ– قبل المعنوي (المُجرّد).

– بل إن اللّغة، في تطورها تجاوزت رأيَ البصريين ورأيَ الكوفيين معاً لأن الفريقين كانا يعتمد أن على فذلكات ذهنية – وخاصّةً البصريين منهم– لا تقوم على وعي لطبيعة اللغة، وتدقيق في واقع اللغة، فكما اشتُقَّ من الفعل.. اشتقّ من اسم الذات فالمصدر "المَقْلُ" إنما اشتقّ من اسم الذات "المُقلة" أو أن الفعل "مَقَلَ" اشتقّ من اسم الذات نفسه "المُقلة" ثم المصدر "المَقْلُ" اشتق من الفعل مَقَلَ.

– بل لقد اشتقَّ العرب من الحروف ومن الضمائر ومن الأسماء الجامدة ومن أسماء الأصوات ومن الأعيان (الجواهر أو الذوات) وقد عرضنا لهذا . سابقاً.
– بل لقد اشتقّ الناس من الفعل: مَقَلَ فعلاً خُماسياً هو: تمقّل، وهو من المُقْلة أيضاً. والفرق بينه وبين الفعل الثُّلاثّي أن فيه تأكيداً على النَّظر إلى الشيء أكثر من الفعل الثُّلاثّي، فتمقّل تعني: دقّقَ النَّظر إلى الشيء. ومسوّغُ وجود أيّ لفظة جديدة هو أنها تُعبِّرُ عن معنى جديد. لأن من صفات اللّغة الراقية أنها تستجيب لكلّ المعاني. بأحد قوانين تطوّر اللّغة ونموّها التي عرضنا لها خلال هنا الكتاب.

بقي أن أقول: إن الفعل: "تمقّل" ليس موجوداً في المعجم، وإنما هو اشتقاق حادث يجدر أن يُضاف إلى المعجم. كما تفعل الأمم المتحضرة التي تضيف إلى المعجم ما يستجد من ألفاظ كلَّ سنة. بل كما فعل أجدادنا في عصور الازدهار الذين أضافوا آلاف الألفاظ إلى المعاجم.

الموضوع السادس

تحقيقُ لفظِ كلمةٍ (أَبَيَّنُها)

في سنة ألف وتسعمائة وثلاث وستين كنت طالباً في مرحلة الإجازة في اللّغة العربيّة في جامعة دمشق. وقد درسَ لنا أحد أساتذتنا يرحمه الله، قصيدة النابغة الذُّبيانيّ المعلقة التي مطلعها:

يا دارَ مَيَّةَ بالعلياءِ فالسَّنَدِ   أقْوَتْ وطالَ عليها سالفُ الأمَدِ[1]

وقد قرأها لنا بصوته الحنون، وقد قرأَ البيتَ الرابعَ في القصيدة على النّحو التالي:

إلاّ الأَواريَّ لَأْياً – ما– (أُبَيِّنُها)   والنُّؤْيُ كالحوضِ بالمَظْلومَةِ الجَلَدِ[2]

– وكلمةُ (أَبَيَّنُها) تُقرأ بفتح الهمزة والباء والياء المشدَّدة وضمّ النون، ولكنْ قرأها (أُبَيِّنُها) بضمّ الهمزة وفتح الباء وكسر الياء المشدّدة وضم النون. وهذه القراءة "خاطئة" في نظري. لأن معنى (أُبَيِّنُها): أُوَضِّحُها للناس. والشاعر لم يقصد ذلك، وإنما قصد أنه هو لا يستطيع أن يَتَبَيَّنَها. أي: إن أصل الكلمة: (لأْياً ما أَتَبَيَّنُها). فحذف الشاعر تاء الفعل، فأصبحت (أَبَيَّنُها) كما كتبناها آنفاً.

– وهذا الحذف جائز في اللّغة: جائز أن تُحذفَ تاء الفعل الماضي، وأن يبقى حرف المضارعة، سواءٌ أكان الهمزة (كما في الحالة السابقة) أو التاء أو الياء أو النون، ويجمعها كلمة (نأتي). أما لماذا تُحذف تاء الفعل ولا يحذف حرف المضارعة؟ السبب أنه إذا حُذف حرف المضارعة وهو – هنا– الهمزة(أ).. فإنه يُحذف بحَذْفِهِ "معنىً" وهو

---

(١) العلياء والسند.. اسما مكانين كانت تسكن فيهما – مَيَّةُ– حبيبة الشاعر.

- أقْوَتْ: أقفرت وخلت من أهلها.
- الأمد: الزمن، وسالف الأمد: الزمن الماضي.

(٢) الأواريّ: جمع آريّ وهو حبل تربط به الدابّة.

- لأياً: صعوبة ومشقّة.
- ما أَبَيَّنُها: ما أَتبيّنُها، ما أتعرفها إلا بصعوبة.
- النُؤْيُ: القناة التي تحفر حول بيت الشعر.
- المظلومة: الأرض التي يُحفر فيها النُّؤْيُ. وهي مظلومة لأنها قليلة الماء.
- الجلد: الأرض القوية الصلبة أو الحفرة المتماسكة البناء.

المضارعة أي: الدلالة على الزمن الحاضر كثيراً أو المستقبل قليلاً. أما إذا حُذف حرف التاء من الفعل الماضي.. فإنه يبقى بضعةُ أحرفٍ تدل على "الفعل". ففي حالة (تَبَيَّنُ) الواردة في البيت تحذف التاء ويبقى أربعة أحرف هي (بَيَّنَ) التي تدل على تمام الكلمة فَحَذْفُ معنى كامل بحذف حرف المعنى (الهمزة) هو حذف لكلمة بهذا الحرف، لأنه ذو معنىً مستقل، وليس كذلك حذف التاء من الفعل السابق.

وَحَذْفُ حرف الفعل المضارع وارد في الشعر وفي القرآن الكريم.. قال دُرَيْد ابنُ الصِّمَّةِ في قصيدتهِ الداليّة التي منها البيت المشهورُ:

وهل أنا إلاّ من غَزِيّةَ إنْ غَوَتْ ... غَوَيْتُ، وإنْ تَرْشُدْ غزيّةُ أَرْشُدِ

قال منها:

وكنتُ كأني واثقٌ بمُصَدَّرٍ ... (يَمَشّى) بأكناف الجليبِ بمَحْتِدِ[1]

ـ (يَمَشّى) بفتح الياء والميم والشين المشدّدة.. أصلها هو: (يَتَمَشّى) بفتح الياء والتاء والميم والشين المشدّدة. وكلتا الكلمتين.. فعل مضارع، الأولى – حُذفت منهما تاءُ الفعل. والثانية – أُعيدت لها تاء الفعل.

وقد أوردها أحد الكتاب وهو الدكتور جميل علوش الذين يَدّعونَ المعرفة باللّغة.. هذه الكلمة على صيغة (يُمَشّي) بضمّ الياء وفتح الميم وكسر الشين المشددة، وذلك في معرض إنكاره لأهمية الشعر الجاهلي، وأنه (الشعر الجاهلي) – بزعمه – لا يخلو من أخطاء في اللّغة والوزن. وعلّق على هذه الكلمة بقوله: "فكلمة (يُمَشّي) هنا ضعيفة؛ إذ الأصل فيها أن تكون إذا ضُعِّفت.. متعدية. ولكنه استعملها.. لازمة". فقد اعتبرها الكاتب من الفعل الماضي (مَشّى) بفتح الميم والشين المشددة. فصححتُ له قراءته الخاطئة. وبيّنْتُ أنها تُقرأ على النحو الذي أسلفتُ، وبذلك تكون لازمة وليست متعدية[2]. ومثلها من القرآن (وهو كثير) قوله تعالى ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًاۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ق: ٤٤]، فـ (تشقق) بفتح التاء والشين

---

(١) مُصَدَّر: حصان يسبق الخيل فيكون في صدرها.

- أكناف: جوانب الشيء وأطرافه.

- الجليب ومحتد: موضعان.

(٢) راجع كتابي: مقالات في النقد الأدبي التطبيقي: ٣٢/دار البشير/ ١٩٩٨م.

والقاف المشددة الأولى، وضم القاف الأخيرة هي فعلِ مضارع، الصيغة التامة منه عندما تُرَدُّ إليه تاء الفعل المحذوفة هي (تَتَشَقَّقُ) بفتح التاء الأولى والثانية والشين والقاف الأولى المشددة؛ وضمّ القاف الأخيرة. والفرق بين حذف تاء الفعل وبقاء حرف المضارعة بين القرآن وكلام البشر.. أنها تأتي في كلام البشر على الجوازِ أو لضرورة الوزن، كما وَضَحَ لنا من بيت النابغة، وبيت دُريد: فقد حُذِفَ حرف المضارعة جوازاً. وقد أخذنا بهذا الجواز لضرورة الوزن. فالوزن لا يستقيم في البيت الأول لو قال النابغة: (ما أتَبَيَّنُها) بِرَدِّ التاء المحذوفة. ولا يستقيم في البيت الثاني لو قال دريد (يَتَمَشّى) بردِّ التاء المحذوفة.

أما في القرآن فالحذف يأتي "للوجوب" لسببين: **الأول** – أنه لا يجوز أن نُحِلّ كلمة فيه محل أخرى.. وإن كان الفرق حذف حرف أو إضافة حرف. خلافاً لكلام البشر الذي يمكن أن يضاف اليه ويحذف منه، حتى في الشعر إذا استقام الوزن المعنى. مثلاً في بيت المتنبي الذي لم يَرْضَ عنه النقاد لورود كلمة (تؤذي) فيه، وهو:

تلذُّ لهُ المرءةُ وهي (تُؤذي)   وَمَنْ يَعْشَقْ يَلَذُّ لَهُ الغرامُ

قال النقاد: "إنّ – تُؤذي – قلقة في موضعها، لأن صاحب المروءةُ لا يتأذى من فعل المروءة. أما سمعت قولهم: (يهتزُّ للنّدى) والهزّة نوع من الفرح أو السعادة أو الانتشاء. في هذا البيت يمكننا أن نغير هذه اللفظة القلقة بلفظة أفضل منها.. كأن نقول: "تلذّ له المروءةُ – لو تُنَجّي – " (فلو تنجّي) أفضل في هذا المكان من اللفظة التي أوردها الشاعر. ومعنى الشطرة هنا: "تلذّ له المروءة لأنها تملؤه[1] حبوراً، لكنها لا تنجّي من القتل أو الموت.

أمّا قال الشاعر، يمدحَ معْناً ابنَ زائدةَ:

فلَوْ أنَّ حمْداً أخلَدَ الناسَ لمَ تَمُتْ   ولكنَّ حمْدَ الناسِ ليس بمُخْلِدِ

السبب الثاني – أن هناك علّةً لاستعمال القرآن لأيِّ كلمة سواءٌ وردت كاملة أم حُذِفَ منها حرف أو أُضيف لها حرف. وَهَمُّنا هنا حذف تاء الفعل الماضي (تَشَقَّقَ) بحيثُ أصبحت في المضارع (تَشَقَّقُ). هناك فرق بين (تَشقّقُ) **بحذف التاء** و(تَتَشَقّقُ) **بإثبات التاء**.

---

(١) تملؤه.. يمكن أن تُكتَبَ على صورة أُخرى هي (تملأُهُ). وكلا الإملائين صحيح. فإذا كتبتها بالواو فقد غلّبت صوت الحرف لأنه مضموم وواقع في داخل الكلمة. وفي مثل هذه الحالة يجوز أن تكتب على (الواو). وإذا كتبتها بألف فوقها همزة فقد غلبت أصل الكلمة وهي (تملأ) قبل أن تدخل عليها (ها).

إن حذف أيّ حرف من الكلمة يجوز حذفه.. يجعل الكلمة أسهل لفظاً، ولذلك فقولنا: "سَلْ ما بدالك" أسهلُ من قولنا: "اسألْ ما بدالك" وعلى هذا (فتشقّق) بتاء واحدة أسهل لفظاً من (تتَشَقّقُ) بتائين. وهذه السهولة تُشير إلى سهولة تَفَطُّرِ الأرض عن الأموات عندما يأمرها ربُّها يوم القيامة، لكي يخرجوا خروجاً سهلاً لا صعوبة فيه. ولذلك فهم يخرجون "سراعاً". إن سهولة تَفَطُّرِ الأرض يُسهّل عليهم الخروج سراعاً! أرأيت أنّ حذف التاء يُشير إلى معنىً لا غنىً عنه مما يجعل حذفَها أمراً لا بدّ منه؛ مما يجعل حذفها "وجوبيّاً"؟ وإن "سراعاً" يناسبها السرعة في تشقق الأرض.

بقي أن أقول عن كلمة (أَبَيَّنُها) التي حذفت منها تاء الفعل أنّي وجدتها في (لسان العرب) على الصورة التي قرأها عليها أستاذُنا. ولكنّ ذلك ليس خطأً من ابن بمنظور.. صاحب اللّسان. وإنما هو خطأ ممن (أعدّ وصنّف) اللسان في العصر الحاضر وهو الأستاذ يوسف خيّاط أو هو خطأ من الطابع.

— يبقى أن أشير إلى أن (سَلْ ما بدا لك) وإن كانت سهلة .. فإنها لا تُفَضَّلُ دائماً على اللفظ الكامل، وهو (اسألْ ما بدالك) لأن الكلمة أو العبارة تصحّ في موقعها المناسب ولا تصحّ في غيره، والله المنّان وهو القويّ المُستعان.

انتهى القسم الثالث، بعون الله تعالى وكرمه.

القسمُ الرابعُ

العربيّةُ والتعريبُ – والنظرُ المُعاصرُ فيها

من التعريب كلمة (القِسطاس) في قوله تعالى:

﴿وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِۚ﴾

[الإسراء – ٣٥].

الموضوع الأوّل

اللّغة العربيّة والتعريب – والنَّظر المعاصر فيها*

سنُركز نظرتنا في أربعة أشياء هي:

١ – لم ندرس في مرحلة الإجازة الجامعيّة في دمشقَ شيئاً من "الكتاب" الذي جَمَعَهُ سِيَبَوَيْهِ من أقوال عدد من علماء اللّغة والنحو، في مُقدمتهم الخليلُ ابنُ أحمدَ الفراهيديُّ، صاحبُ العقل الجبّار. ولم ندرس شيئاً منه في مرحلة الماجستير في جامعة القاهرة، ولا في مرحلة الدكتوراة في الجامعة الأُردنيّة. ولعلّ ذلك جارٍ في كُلِّ أقسام اللّغة العربيّة، في البلاد العربيّة.

وفي نظري أنّ الذي لا يقرأُ – الكتابَ – إنما ينقصه شيء من النّحْوِ، ولو كان مُتخَصِّصاً فيه من بين فروع اللّغة العربيّة الأُخرى. لأنه يطلعك على اللّغة والنّحو معاً. أسلوبه أسلوب لغوي سليم، ونحوُهُ فيه تفاصيلُ وخلافاتٌ تجعلك تفقه النّحو، ولا تكتفي بحفظه[1].

لا شكَّ أنّ بعض المسائل فيه قد تجاوزها الأدباءُ والكُتّابُ خلال العصور، وفيها العصر الحاضر؛ خلال ثلاثةَ عَشَرَ قرناً، وهي التي مرّت على اللّغة العربيّة بعد تأليف "الكتاب". وهذه الكلمة ليست مُخصَّصةً لمثل هذه التّجاوزات، وإنما أكتفي بمثلٍ واحد من مبحث النِّسبة؛ يقول سيبويه:

– هذا باب الإضافه إلى الاسمين اللذين ضُمَّ أحدهما إلى الآخر، فجُعِلا اسماً واحداً.

– والإضافةُ عنده هي النِّسبة. يقول سيبويْهِ: كان الخليل يقول: تُلقي الآخرَ منهما، كما تُلقِي الهاءَ من خمرةٍ وطلحةَ عند الجمع، لأن طلحةَ بمنزلة حَضْرَ موتَ. فمن ذلك خَمَسَةَ عَشَرَ ومَعْدِ يكَرِبَ في قول من لم يضفْ. فإذا أُضيفتَ قلت: مَعْدِيٌّ وخمسيٌّ. أي: معديّ نسبةً إلى مَعْدِ يكربَ، وخمسي نسبة إلى خَمَسَةَ عَشَرَ. وأقول: الناس قد تجاوزت ذلك، فلا ينسبون إلى الإثني عَشَرَ مثلاً بقولهم: ثَنَوِيٌّ، كما رأى الخليل، وإنّما يقولون:

(*) كتبت سنة – ٢٠٠١م.

(١) كنتُ قرأتُ مقدمة ابن خلدون سنة – ١٩٦٥م– عندما تخرجتُ من المرحلة الجامعية الأولى – ولا بُدّ أن هذا الوصف قد علق بذهني من المقدمة – ففيها كلام كهذا، ولكن، يعسر أن يعود إلى ذهني لولا أني أحسستُ به، من خلال قراءتي لكتاب سيبويه، فالتقى الأمران معاً– الذاكرة، والقناعة العملية، بعد قراءة (الكتاب).

المُصْرانُ الإثنَا عَشَرِيٌّ بمعنى أنهم ينسبون إلى الجزء الثاني مع الحفاظ على الجزء الأوّل ومِثْلُ ذلك.. حَضْرَ مَوْتَ. فهم ينسبون إلى الجزء الأوّل وحرفٍ من الجزء الثاني، فيقولون: حَضْرَمِيٌّ. أمَّا بَعْلَبَكّ.. فقد نَسَبَ لها الخليلُ علي - بَعْلِيٌّ - والناس اليوم يقولون: بَعْلَبَكِّيٌّ، مِثْلُ منيرُ البَعْلَبَكِّيُّ الكاتبُ المعروف. وفهم بذلك ينسبون إلى الجزئين كاملين.

- ومِثْلُ هذا كثير. لقد تجاوزت النّسبة في هذا الموضوع، مثلاً، كثيراً مما قاله الخليلُ. لأنَّ الذَّوقَ اللّغوي تغيّرَ، ولأنَّ - الوضوح - مطلبٌ أساسيٌّ في كُلِّ كلمة، سواءٌ أكانت مُركبةً أم مُفردةً. لأنّ اللّغة - أيَّ لغة - جاءت من أجل أن تُخرِجَ الإنسان من المُبهم إلى الواضح، مع ترك خُصوصيةٍ للغموض الدّالِّ في الأدب. ولا شكَّ أن - بَعلياً - في النّسبة إلى - بعلبكَ - لا تَدُلُّ دلالة النسبة إلى الجزئين بقولنا: بعلبكيٌّ. وكما أنّ القُدامى أهلُ اللّغة فنحن أهلُها كذلك؛ فمن حقّنا أن نُصَرِّفها بحيث تبعدنا عن الغُموض.

- وليس لأحد أن يقول: قال الخليلُ كذا وأنتم تخالفونه فأنتم مخطئون، لأنّنا أهل اللّغة كما أسلفنا ولأننا نريد أن تكون اللّغة مفهومةً ومُستساغةً للمتعلّم العربيِّ وغير العربيِّ، وليس هدفنا أن نُنَفِّرَ النّاس منها بهذا التقعّر الذي يُخْرِجَ اللّغة عن وظيفتها. إنَّ تقريب الفُصحى من أذواق الناس، من غيرِ أن ننزل بها إلى العاميّة الفقيرة، مطلبٌ أساسيٌّ يجب احترامه والالتزام به. إنّ اللّغة كائن اجتماعيٌّ حيٌّ ينمو ويتطوّر كما ينمو المجتمع ويتطوّر، من دون أن تخرج اللّغة على أصولها وقوانينها في التطوّر هذه الأصول التي جاءت عن طريق (الإلهام).

٢ - بعد هذا الاستطراد الذي اقتضاهُ المقام نقول: ورد في الكتاب: "وقال الخليلُ: قولُكَ هذا شاةٌ بمنزلةِ قوله تعالى ﴿ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾ [الكهف: ٩٨].

نقول: هناك فرق بين القولين، كما نرى، بالإشارة الأولى - هذا - للشاةِ. أما الإشارة الثانية فهي للسَّدِّ أي: بناءُ هذا السدِّ رحمة من ربي. ثُمّ يمكن أن يقال: هذا شاةٌ وهذه شاةٌ. وذلك.. حَسَبَ المعنى المضمّن في الكلمة، فإذا كنت تقصد التيس قلت: هذا شاة، لأن لفظ الشاة مذكر ومؤنث، أما إذا كنت تقصد العنز قلت: هذه شاة. بل إن عمرَ ابنَ أبي ربيعةَ قد قال: ثلاثُ شخوصٍ. مع أن شخوصاً في أصلها مذكر، ذلك لأنه

ضمّنها معنى المؤنث أي: ثلاثُ نِسْوَةٍ، والمذكر يأتي معه العدد من ٣ - ٩ مؤنثاً قال عمر:

وكان مِجَنّي دونَ من كُنتُ أتّقي ثلاثُ شخوصٍ، كاعبانِ ومُعْصِرُ

لأنَّ الكاعبينِ والمعصر نسوة، فتضمنت (شخوصٍ) معنى المؤنث. والكاعبان هما أُختا حبيبته المعصر، اللتان رافقتاها وعمرَ، عندما طلع النهار وهو لا يزال عندها، فخرجْنَ معه يرتدين المُلاءات وقد طرحْنَ عليه مُلاءةً، لكي يبدوَ الجميعُ نِسوةً يخرجْنَ فجراً لقضاء حاجة. وهذه القصة واردةٌ في قصيدته المشهورة التي مطلعها (علماً أني أعتبر هذه الحكاية نسْجَ خيالِ شاعر):

أمِن آلِ نُعْمٍ أنتَ غادٍ فَمُبْكِرُ غداةَ غدٍ أم رائحٌ فَمُهَجِّرُ

وكما أنهم يؤنّثون المذكر إذا تضمّن معنى التأنيث.. فإنهم يذكّرون المؤنث إذا تضمّن معنى التذكير. ألا ترى أنَّ الحطيئة قد قال:

ثلاثةُ أنفسٍ وثلاثُ ذَوْدٍ لقد جارَ الزّمانُ على عيالي

لأنه عنى بالأنفس أبناءه الذكور، أو ابنَيه الذكرين وابنته، فذكّر الثلاثة من باب التغليب، مع أن النَّفس لفظ مؤنث كما وردت في القرآن الكريم، إحدى وستينَ مَرَّةً، ومنها قولُهُ تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ﴾ [البقرة: ٤٨]، فأنّث النفس كما أنّثها في كُلِّ المرات الأخرى.

وأقول: إنّ الخليلَ يقول: "وقالوا: ثلاثةُ أنفسٍ. لأنَّ النفس عندهم إنسان. ألا تراهم يقولون: نفسٌ واحدٌ، فلا يُدخلون الهاء". والله تعالى يقول: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا ﴾ [الزمر: ٦].

– وليس لذلك من تعليل إلاّ أنَّ العربَ تقول: ثلاثةُ أنفسٍ، عندما يضمّنون النفس معنى المُذكّر، كما قال الحطيئة آنفاً، وإذا قالوا: نفسٌ واحدٌ، فليس إلاّ لأنّهم حَمَلوها على المُذكّر أي: إنسانٌ واحد، كما قال الخليل.

– ألا يَدُلُّ هذا.. وهو أن المُذكّر يُعامَلُ كالمُؤنّث إذا "ضُمِّنَ" معناهُ. وأنّ المُؤنّثَ يُعامل مُعاملة المذكّر إذا "ضُمِّنَ" معناهُ – ألاَ يَدُلُّ على سَعَةِ اللّغة وحيويتها، وأنها لغة عقلانيّة يتبع اللفظ فيها المعنى؟

٣ – **ويقول الخليل:** "وتقول: ثلاثةُ أشخُصٍ، وإنْ عنَيت نساءاً، لأنّ الشخص اسم مذكّر، ومثلُ ذلك ثلاثُ أعيُنٍ، وإنْ كانوا رجالاً، لأنّ العين مؤنثه".

– ونقول: هذا يخالف ما تقرّرَ سابقاً. فالمذكرُ يُعامَلُ كالمؤنث، عندما يتضمّنُ معنى التأنيث. أمَا سبق مَعَنا بيتُ عُمر ابن أبي ربيعة الذي قال فيه: (ثلاثُ شخوصٍ) لأنه عَنى بالشخوص النسوة؟ والمؤنّثَ يُعامَلُ كالمذكرِ إذا تضمَّن معنى المذكر. أمَا سبق معنا بيت الحطيئة الذي يقول فيه: ثلاثة أنفسٍ، لأنه قصد بالأنفس أبناءه الذكور؟

– وليس من حلٍّ لهذا الإشكال إلا أنّ ما قاله الخليلُ هو لغة لإحدى القبائل تُبقي فيها المذكّر مذكراً، وإن تضمن معنى التأنيث، وتبقى فيها المؤنث مؤنثاً، وإن تضمن معنى التذكير. وأنا أرى أن القبائل التي تميل إلى تذكير المؤنث – بالعدد والفعل والصفة – إذا تضمَّن معنى التذكير، وإلى تأنيث المذكر، إذا تضمن معنى التأنيث هي أقربُ إلى الصواب اللُّغويّ، وإلى التعامل بلغةٍ مرنةٍ عقلانيةٍ تُقدمُ المعنى على اللّفظ. لأن اللّفظ ليس إلا وسيلةً لأداء المعنى، لأنّ المعنى هو المقصود. ولكنّنا لا نُخطّئُ من يستعمل هذه اللّغة التي أوردها الخليل، لأنّ لُغاتِ العربِ كلُّها حجةٌ، كما قال ابنُ جنيٍّ في كتابه "الخصائص". ولأن التعامل مع الكلمة على أساس معنى اللفظ أصلاً: أمذكّر هو أم مُؤنّث – هو وجه معتبر ... وهذا.. **نوع من التَّوسعة التي تُقلّلُ الأخطاء اللّغوية عند الأدباء والكُتّاب الذين يكتبون وأيديهم ترتجف خوفَ الوُقوع في الخطأ. إنّ العربيّة لغة سهلة قلّما يقارف الخطأ فيها من يُحَصّلُ قَدْراً صالحاً من قراءة أدبها، شِعراً ونثراً مع شيء من النَّحو.**

– **وأقول: إنّ قول الخليل السابق يحملني على أن أقول:** إنه يمكن أن نحمل الكلمة على "لفظها" أو على "معناها".. فإذا حملنا "شخوصاً" مثلاً على لفظها نقول: "ثلاثةُ شخوصٍ" وإنْ كان المقصود بالشُّخوص النِّساء، لأنّ لفظ "شخوصٍ" مُذكّر. أمّا إذا حملناها على معناها نقول: "ثلاثُ شخوص" كما قال عمرُ ابن أبي ربيعة.. إذا كان المعنى التأنيث.

– إنّ هذا الفهم يدعو إلى التساؤل: أنقول مثلاً: "**ثلاثة موضوعات**، إذا أردنا المعنى، لأن معنى الموضوعات.. التذكير، لأن المفرد "موضوع" والموضوع مُذكّر. ونقول: "ثلاثُ موضوعات" إذا أردنا اللّفظ، لأنّ "موضوعاتٍ" **لفظ مؤنّث**، لأنه ينتهي بالألف والتاء،

وهما علامة جمع المؤنث السّالم مثل: مُعَلّمةٍ ومُعلّماتٍ وسيّدةٍ وسيّدات؟ وإن كان الجمعُ (المعلماتُ والسيّداتُ) هو تأنيث في اللّفظ وفي المعنى معاً. **الجواب..** إني أرى ذلك؛ أرى حمل اللفظ على المعنى وحمله على اللّفظ في مثل هذا الجمع.

ومثلُهُ كلمات كثيرة منها: جرّارٌ وجرّاراتٌ وإسطبلٌ وإسطبلاتٌ وإطارٌ وإطاراتٌ، وجوابٌ وجواباتٌ، وعِتابٌ وعِتاباتٌ.. الخ.

— هذا سؤال.. أرجو أن يقول فيه المختصون كلّمتهم، أما أنا فميّال للأخذ به استنتاجاً من رأي الخليل المعتمد على لهجة عربية. مع أنّني لم أقرأْ هذا الرأي لأحد، ولم أجدْ أحداً استعمل مع جمع المؤنث السالم الذي مفرده مذكّر.. العددَ مذكّراً، أخذاً باللفظ.

٤ — **وممّا يدلُّ على سعة العربيّة،** وأنّهُ لا يكاد يُخْطئ من يكتب بها، إذا طالع قَدراً صالحاً من شعرها ونثرها.. **المثالان التاليان (ومثلُهما مئاتُ الأمثلة):**

أ — **في مادة (عَيَنَ)** يقول ابن منظور في معجمة "وتصغير العين: عُيَيْنةٌ، ومنهُ قيلَ: ذو العُيَيْنتين للجاسوس، ولا تَقُلْ: ذو العُوَينتيْنِ". ولكنه يورد بعد ذلك قول ابن سيدةَ الذي يقول: "والعينُ الذي يُبعَثُ ليتجسَّسَ الخبرَ، ويسمَّى ذا العينَينِ. ويُقالُ: تسميِّةِ العرب ذا العينين وذا العُوينتين، كلُّهُ، بمعنىً واحد".

لاحظ أن ابن منظور يقول: ولا تقل: ذو العُوَيْنَتَيْنِ ثم ينقل مباشرةً قول ابن سيدة الذي يقول: "ذا العَينين وذا العُوينتين". أي: إن ابن منظور يعتبر المادة يائيةً فَحَسْبُ، ولكنّ ابن سيدة يراها يائيّةً وواويّةً وبذلك تستطيع أن تقولَ: عُيينةٌ وعُوَيْنةٌ، لأنّ الواو ناسبت الضّمة التي سبقتها. هذا يعني أن الذي يقول: عُيَينةٌ مصيبٌ، والذي يقول: عُوينَة مُصيبٌ كذلك. ومثلُهما العُيينتين والعُوَيْنتينِ. أليس ذلك تسهيلاً على الكاتب، بحيثُ يجري مع ذوقه اللّغويِّ في استعمال أحد الاشتقاقين علماً أنّ (عُيَيْنة) جاءت على الأصل اليائيِّ.

ب — **في مادة (بَعْضٍ)** قال ابن منظور: "واستعمل الزّجاجيُّ بعضاً بالألف واللام، فقال: وإنما قلنا: البعضُ والكلُّ — مجازاً. وعلى استعمال الجماعة له مسامحة. وهو في الحقيقة غير جائز. يعني أن الاسم لا ينفصل عن الإضافة.

قال أبو حاتم: قلتُ للأصمعيّ: رأيتُ في كتاب ابن المقفّع: العلم كثير، ولكنّ أخذ البعض خير من ترك الكُلّ. فأنكره أشدَّ الانكار، وقال: الألف واللام لا يدخلان في بعضٍ وكلٍّ. لأنهما معرفة بغير ألف ولام".

ما الذي يتحصَّل معنا من هذا الكلام؟

أولاً – القول بأنَّهما معرفةٌ بغير الألف واللام غير مفهوم، فهما ليسا عِلماً، ولا شبيهين بالعَلَم. فمن أين جاءهما التعريف؟ لا بُدّ أنه جاءهما من الإضافة.

ثانياً – إن ابن المقفع قريب من عصور الاحتجاج، ولم يستعملهُما إلا لأنَّ ذوقه اللغويُّ قد استساغهما. والذوق اللغويُّ للادباء أدلُّ على صحة الاستعمال من تحكُّمات اللغويّين.

ثالثاً – قال الزجاجيّ: وإنما قلنا: البعضُ والكُلُّ – مجازاً. ونقول: فليكُن الاستعمالُ مجازاً، وليَبْقَ مجازاً، لا ضَيرَ. لأنه يجوز. وإن الإضافة نوع من التعريف والألف واللام "نوع آخرُ من التعريف".

رابعاً – دَرَجَ الكُتّابُ في مختلف العصور على إدخال الألف واللام على بعضٍ وكلٍّ، حتى سيبويهِ والجاحظُ ... ومقاومةُ ذوق العصور لقول قاله لُغَويٌّ هو "كناطحٍ صخرةً يوماً ليُوهِنَها .." أي: لا يقوى على ردِّ ما يجري مع السليقة.

خامساً: إذن من يدخل الألف واللام على بعضٍ وكُلٍ و(غير) فليس بمخطيء. وإن كان الذي يستخدمهما من دون الألف والّلام أفصح. وفي هذا توسعةٌ على الناطقين بالعربيّة، ودلالة على أنّها لغة سهلة، إنما يُصعِّبها القائمون عليها بوقوفهم عند الّذي قررته القرون السّابقة كأنّ اللّغة ليست كائناً اجتماعياً يتطور بتطوُّر المجتمعات! وإن كانت العربية الفصحى، في أصولها– إلْهاماً.

الموضوع الثاني

اللّغةُ العربيّةُ والتَّعريبُ (في العصر الحاضر)

مناقشةُ أفكارٍ في الكتاب*

هـذا عنـوان كتـاب لأسـتاذنا الـدكتور عبـد الكـريم خليفـة. طُبـع سـنة ١٩٨٧م. والحديث عـن العربيّـة والتعريب لا ينتهي. والكتـاب كلّـه – إلا قليلاً – يضمّ أفكـاراً ناضـجة في مجـال التعريـب، وقـد كُتـب بأسـلوب مـشرق. وأنـا أدعـو القـارئ إلى قـراءة الكتاب للإفادة من أفكاره التي تـؤمن بـأن العربيّـة قابلـة للتطـور بـلا حـدود.. ومـع ذلـك تحـتفظ بأصـالتها ولا تخـرج عليهـا. لأنهـا تتطـوّر مـن خـلال قوانينهـا الـصرفيّة والنحويّـة ومبادئ فقه اللّغة.

وفي هذه المقالة لا أستطيع أن أعرض لمادة الكـتاب كلّهـا. بَيْدَ أنَّ هـذا لا يمنـع مـن عـرض الأفكـار الجيّـدة والتعليـق علـى بعـض الأفكـار الـتي تـستدعي نِقاشـاً. شـأنُ أيِّ كتاب ألّفـه بشر. فـلا بُدّ مـن بعض الملاحظـات عليـه.. هنـا وهنـاك. أمّـا اللّغـة والأسـلوب فالكتاب كلّه معرض لها.. إلا في مواطن قليلة سنلفت انتباه القارئ إليها.

يقـول المؤلّـف تحـت عنـوان (اللّغـةُ العربيّـةُ أسـاسُ نهضةِ أُمتِنـا ووَحـدَتِها): "فاللّغـة أُمّ التفكير، ومـا كـان للمعرفة أن تأتيَ إلى حيّز الوجود بـدون اللّغة. وهـي في الوقـت نفسه على صلة وثيقة بالحياة العاطفيّة للإنسان، بأحاسيسه وانفعالاته. فالإنسان لا يـستخدم اللّغة للتعبير عن شيء معين أو فكـرة محدَّدة [فحسب][1]، بل يستعملها للتعبير عن نفسه.

لذا.. فمن الواجب ألا نأخذ بعين الاعتبار فقط الصورة التي تُصاغ عليهـا الأفكـار، بل من الواجب أيضاً أن نأخذ بعين الاعتبار العلاقات التي توحّد بـين هـذه الأفكـار وبـين حساسية المتكلم" ص١٢. وهـذا كـلام دقيـق في العلاقـة بـين اللّغـة والفِكـر والعواطف والأحاسيس.

ويقول تحت عنوان (وسائلُ تطويرِ اللّغةِ العربيّةِ العلميّة): "لقد ذكرنا سابقاً أن اللّغة العربيّة قد اجتازت امتحانـاً صعباً وتجربة قاسـية لم تواجهـا مـن قبلُ في حياتهـا، فقهـرت تلك المشكلات واستطاعت أن تستوعب جميع المعاني الماديّة والفكريّة"ص٢١٢.

(*) كتبت سنة – ٢٠٠٠م.

(١) الكلام الذي بين قوسين معقوفين – لي.

أقول وهذا صحيح. فلو كان أعداء العربيّة لا يُصِمُّون آذانهم لأدركوا أن اللّغة التي استوعبت ما بين القرن الثاني الهجري والقرن السادس تلك الحضارات التي سبقت كالحضارة اليونانية والفارسية والهندية، وأكثر من ذلك.. أن تستوعب الفِكر الجديد الذي جاء به القرآن الكريم بالدَّرجة الأولى والحديث النبويّ الشريف بالدَّرجة الثانية لاقتنعوا أن لغة هذا شأنها هي لغة عَصيّة على الانقراض، قادرة على النَّماء وقهر الصعوبات.

ويقول: "**وقد توسَّع الكوفيّون في القياس،** وأباحوا النسج على القليل النادر. فلا يكادون يرون في الأساليب المرويّة شذوذاً بل طرقاً متباينةً، لنا أن نتخيّر منها ما نشاء. وقد رُويَ عن أبي عليّ الفارسيّ وتلميذه ابن جنّي: **(ما قيسَ على كلامِ العرب فهو من كلام العرب)** ص٢٢٣. والمؤلّف يوافق على ذلك كلّه. وهذا عين الصواب. فما سمّاه البصريّون شذوذاً ليس، في الحقيقة بشذوذ وإنما وصموه بذلك لكي ينفروا الناس منه، وأيضاً هو قليل ولا مانع من القياس على القليل، ما دام من كلام العرب. أما ترى أن البصريين أنفسهم قد قاسوا على كلمة واحدة عندما لم يجدوا غيرها وهي (شَنُوءَةُ) فجاءت النِّسبة منها عند العرب على (شَنَئِيٌّ) على وزن (فَعَلِيٌّ) بفتح فَفَتح فكسر فياء نسبة مشدَّدة، فقال البصريُّون في (رَكُوبَة وحَلُوبة).. ركبيّ وَحَلَبيّ. أقول: ولكنهم لم يوفّقوا في هذا القياس. لأن شنوءةَ وإنْ كانت على وزن (فَعولة) – بفتح الفاء – مثل ركوبة وحلوبة.. غير أنّ الواو حُذفت منها لأنّ ثمة تقارباً بين الواو وبين الهمزة. **فالهمزة – توهموها –** شبيهة بحرف العِلّة، ولذلك.. حُذِفَ الواو وبقيت الهمزة عند النِّسبة وكأنهم فرّوا بذلك من توالي الأمثال الذي توهموه. ومن هنا ترى أنّ ركوبة وحلوبة تختلف عن شنوءة، إذ يجب أنْ يُنسبَ إليهما على (رَكوبيٌّ وحَلوبيٌّ) – بفتح الراء والحاء، وإثبات الواو. **وإلا.. الْتبستْ النسبة.** أي: الْتبَسَتْ النِّسبة إلى ركوبة مع النسبة إلى (رَكَب) والْتبست النسبة إلى حلوبة.. مع النّسبة إلى (حَلَبَ) المدينةِ التي تقع في شَمالِ سورية، والتي كانت **عاصمة سيف الدولة الحمداني** في القرن الرابع الهجريّ. ومن المعروف أنّ اللّغة تسعى إلى (**الوضوح**)، **والنِّسبة إلى معنيين بصيغة واحدة ضدُّ الوضوح.**

بل أنا أرى أن وزن (فَعولة) في غير الكلمة التي أُثرت عن العرب: (شَنوءة – والنّسبة لها شَنَئيّ كما أسلفنا) يبقى كلُّهُ عند النّسبة على وزن (فَعوليّ) مثل: رَكوبيّ وحلوبيّ اللتيْن سلف ذكرهما. لأن وزنَ (فَعيلة) بفتح الفاء الذي قاسوا عليه (فَعولة) عند النّسبة،

(لأن الياء والواو – كما قالوا حرفا علّة، ولذلك بينهما تقارب) – وزنَ (فعيلة) هذا نفسه لا تأتي منه النّسبة دائماً على وزن (فَعَلِيّ) بحذف الياء التي تقع قبل اللام، مثل (ربيعةَ) والنّسبة إليها (رَبَعيٌّ). بل تأتي النّسبة أحياناً ببقاء الياء مثل: طبيعة فالنّسبة إليها طبيعيّ – بإثبات الياء – ومثلها غريزة فالنّسبة إليها غريزيّ. ومثلهما بديهة وسليقة فالنّسبة إليهما بديهيٌّ وسليقيٌّ. هذه كلمات سُمعت عن العرب، **ويمكن أن يُقاس عليها كلّ ما يعبّر عن الأصل مثل: عقيدةٍ فالنّسبة إليها عقيديٌّ – بإثبات الياء.** والذين يقيسون هذه الكلمات على (فَعَلِيّ) عند النّسبة إنما يمدّون القياس – خطأً –، في مثل هذه الحالة، فما سُمع عن العرب يجدر ألاّ يُعدلَ عنه إلى القياس. بل يجدر أن يصبح "قاعدة" أُخرى يُقاس عليها، كما قِسنا (عقيديّاً) آنفاً على الأربعة السابقة عليه التي سمعناها عن العرب لأن العربي الفصيح لا ينقاس – كما قلنا هذا، مراراً، وإنما يقاس عليه. أمّا ما ينقاس فهو كلام المولّدين، ونحن منهم– .

إنَّ البصريّين أخطأوا في حقّ اللّغة عندما مدّوا قياس الأغلب والأعمّ، ثم اعتبروا ما قلّ "شاذّاً" لينفّروا الناس منه، **وما هو بشاذّ في حقيقة الأمر وإنما هو طريقة أُخرى للتعبير فهو عربيّ فصيح**، وهو تعبير عن أمزجةٍ خاصةٍ وأذواقٍ خاصّةٍ. ولذلك.. فأنا أرى أنّ الكوفيّين كانوا أهدى من البصريّين وأقرب إلى **طبيعة اللّغة التي لا يمكن أن تتحوّل إلى قياسات منطقيّة – بحتةً** – لأن اللّغة نابعة من الوجدان بعضها يسيطر عليه العقل وبعضها يغلب فيه الوجدانُ العقلَ. ومع أن اللّغة العربيّة من أكثر اللُّغات استقامة مع العقل والمنطق غير أن تأثير الوجدان في بعض الحالات لا يُنكر لقد حاول البصريون – وهم فرس في أغلبهم– أن يعدموا القليل والنادر، لأنهم ليسوا أصحاب اللغة يتغلغل ذوقها في أعماقهم– هاشاً الخلي– العربي صليتين. الذي قبل القليل ما قبل الكثير.

ويقول المؤلّف في باب الاشتقاق: "فلماذا مثلاً يقتصر على اتّباع المذهب البصريّ في كون أصل الاشتقاق من اسم المعنى لا من اسم الذات! وهذا يعني تقديم التجريد على التجسيد. وهذا.. تضادٌّ مع طبيعة اللّغة" ص٢١٦.

ونقول: هذا كلام في الغايةِ من الصّحة؛ فتقديم المجرّد على المحسوس مضادٌّ لطبيعة اللّغة حقّاً، وليس هذا فحسبُ بل إنّ تقديم المجرّد على المحسوس يُخالف طبيعة تطوّر المُجتمعات، فالمجتمع يبدأ بتلمّس المادّيّ المحسوس والتّعامل معه وإدراكه ثم في طور متأخّر ينمو عقل الإنسان فيبدأ يدرك شيئاً من المعنويّات (=المجرّدات) ويتعامل

معها. ولهذا.. فليس اسم الذات وحْدَهُ سابقاً على الاسم المعنويّ (=المصدر) وإنما يسبقه الفعل كذلك. لأنّ الإنسان يفعل الأكل قبل أن يُدرك الاسم المعنويَّ لهذا الفعل. أمّا حكاية أن المجرد بلا زمن وأنّ الفِعل له زمن. ولذلك فالمجرد بسيط والفعل مركّب. والبسيط مُقدَّم على المركّب.. فهذا منطق "صوريّ" لا يتّفق وحقائق الواقع الماديّ وتطوّر الحياة، أيْ: هذا منطق أرسطيّ قاصر عن تمثيل حقائق الأشياء وقد سلفَتْ إشارة إلى موضوع الاشتقاق، في القسم السابق = الثالث.

يضاف إلى ذلك أنّ العرب لم يشتقّوا من الفِعل ثم المصدر فحسب، بل اشتقوا من أسماء الأعيان فقالوا، مثلاً من (دِرْهَم) دَرْهَمَ، ومن الجوامد فقالوا من الحجر.. تحجَّر، وقالوا من (كم).. كميَّة، ومن (كيفَ).. كيفيّة، ومن الضمائر.. مِنْ (هو) هُوِيّة. ومن الحروف فقالوا عن قولهم: عن فلان عن فلان.. عَنْعَنَ وعَنْعَنَةً وراوٍ مُعنعِن – بكسر العين الثانية، وحديث معنعَن – بفتح العين الثانية. واشتقّوا من اسم الصوت (هُشْ) – بضم فسكون – ومنه اشتقوا الفعل (هَشّ). وقد ورد في القرآن الكريم على لسان موسى عليه السلام عندما سأله ربّه تعالى: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ۝ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۝ ﴾ [طه: ١٨– ١٩].

ومعظم الكتاب هو من هذا الطبق الرفيع.

ولكنّ ثمة أفكاراً قليلةً تُحرّض القارئ على مناقشتها.. فلنأخُذ بهذا النِّقاش: والله تعالى أعلم بالصواب، إنما نحنُ نقدّم رأياً مع دليله، ليس أكثر:

١ – **ينقل المؤلّف عن فقه اللّغة لعليّ عبد الواحد وافي** فيقول وافي : "وهذه النصوص الأدبيّة تمثّل اللّغة العربيّة الفُصحى في عنفوان اكتمالها وعظمتها، بعد أنْ اجتازت مراحل كثيرة من التطوّر والارتقاء.. وبعد أنْ تغلّبت لهجة من لهجاتها، وهي لهجة قريش، على أخواتها، واستأثرت عبادين الأدب.. شعرها وخطابتها ونثرها في مختلف القبائل العربيّة". ص١٨.

وهنا نتساءل: معروف أنّ اللهجات تنشأ عن لغة أُمّ تبعاً لطبيعة الاتّساع والانتشار في اللّغة تبعاً لاستاع الرقعة الجغرافية التي تتساح عليها اللغة. فأين اللّغة الأُمّ التي تولّدت عنها لهجات القبائل العربيّة؟ أنا أرى **أنّ اللّغة الأُمَّ هي لهجة قُريش**، وعندما انتشرت

القبائل العربيّة حملوا هذه اللّغة الأمّ معهم. ولكن لاختلاف المواطن الجغرافية أصبحت اللّغة الأُم تتأثر بمُحيطها الجغرافيّ والانسانيّ، فتتولد منها ألفاظ جديدة قليلة وتراكيب جديدة نادرة ليست بعيدة عنها بُعد بَيِّناً وليست جزءاً منها، وتنحو نحواً مختلفاً بعض الاختلاف في التنغيم، مما يميّز لهجة من لهجة. ولهذا.. ظلّت تشدّهم اللّغة الأُمّ التي اصطلح عليها بأنها لهجة قريش، فإذا كتبوا شعراً أو نثراً كتبوا بها. يُساعد في ذلك المواسم التي كانت تُقام في مكةَ المكرمةِ كلَّ سنة، وعلى رأسها **موسم الحجّ يُرافقه موسم التجارة والموسم الثقافيّ.. الشعريّ والخطابيّ بالدَّرجة الأولى،** ولهذا نزل القرآن الكريم جُلّهُ باللّغة الأُمّ.. و هي لهجة قريش. وما فيه من اللهجات الأُخرى إنما هو في أغلبه لون من القراءات النابعة من أصوات اللّهجات لا من الألفاظ التي تُخالف بها اللهجات اللّغة الأم. فمن القِراءات مثلاً: ﴿**بسم الله مَجراها ومُرساها**﴾ أو ﴿ **بسم الله مَجْرِيها ومُرساها** ﴾ وهذا اختلاف في تنغيم الصوت، لا في الصوت ذاته، ولا في الكلمة، ولا في المعنى.

والفصحى – كما وضحنا – في القسم الأول هي " إلهامية" وليست آلية من لغة بدائية، بعد أن اجتازت مراحل كثيرة من التطور والارتقاء. وليس للقائلين بهذا، ولا دليل ماديّ أو عقلي مقنع واحد، **فهم يرجمون بالغيب.**

٢ – **ويقول: "وهذا يعني أنّه ليست هناك لغة أفضل من لغةٍ بحدّ ذاتها،** حيثُ إنها متّصلة بالإنسان، كما بيّنا سابقاً، اتصالاً جوهريّاً، وحيثُ أن البشر يتساوون في قيمتهم الإنسانيّة، فلغاتهم مُتساوية أيضاً. ويطيب لي في هذا المجال أن أُورد رأي ابن حزم إذْ يقول: وقد توهّم قوم في لغتهم أنها أفضل اللّغات، وهذا.. لا معنى له. لأنّ وجوه الفضل معروفة، وإنما هي بعمل أو اختصاص، ولا عمل للغة، ولا جاء نصّ في تفضيل لغة على أخرى. وقد قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾، وقال تعالى ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾. فأخبر تعالى أنه لم ينزل القرآن بلغة العرب إلاّ ليفهم ذلك قومه عليه السلام لا لغير ذلك).

"وبعد أن يُفرّقَ الإمام أبو محمد عليّ بن حزم بين اللّغة العربيّة من حيثُ هي لغة لا فضلَ لها على لغات الأمم الأُخرى، وبين ما شرّفها الله به – سبحانه وتعالى – بأنْ جعلها لغة القرآن – ليفهم ذلك قومه عليه السلام) نجده يسخر من **مقولة جالينوس** سخرية

شديدة فيقول: (وقد غلط في ذلك جالينوس فقال: إنّ لغة اليونانيّين أفضل اللُّغات. لأن سائر اللُّغات إنّما هي تشبه إما نُباحَ الكلاب أو نقيق الضّفادع: قال عليّ [ابن حزم] — أي: وهذا جهل شديد لأنّ كلَّ سامع لغة ليست لغتَهُ ولا يفهمها فهي عنده في النِّصاب الذي ذكره جالينوس. ولا فرقَ).. ص٢١.

وأقول: **قول المؤلّف:** "وهذا يعني أنه ليست هناك لغة أفضل من لغة بحدّ ذاتها، حيثُ إنّها مُتصلة بالانسان، كما بَيّنا سابقاً.. اتّصالاً جوهريّاً، وحيثُ إنّ البشر يتساوَوْن في قيمتهم الإنسانيةِ فلغاتهم متساوية أيضاً". يحتاج إلى نقاش: فأنا أرى **أنّ ثمة لغةً أفضلُ من لغة، وأنّ اللُّغات تتفاوت.** فإذا كانت اللّغة نِتاجاً للمجتمع، وأنها صورة لما وصل إليه من علم وفكر وسموٍّ في الذوق والأخلاق — وهي كذلك — فإنه يستحيل أنْ تتساوى لغة بدائية ولغة حضاريّة. وهل يمكن أنْ تتساوى لغة في أدغال إفريقيّة في الحاضر، باللّغة الانجليزية (بَلْهَ اللّغةَ العربيّة) مثلاً؟ إنّ ذلك ضرب من المستحيل. بل هل تتساوى لغة قوم نوح أو هود أو صالح أو شعيب — عليهم السلام— بلغة العرب، إبّانَ رسالة نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم؟ إنّ ذلك ضرب من المستحيل كذلك.

قد تقول: وإذا كانت لُغاتهم ضعيفة فكيف استوعبت دعوات الأنبياء عليهم السلام؟ فأقول: **إنّ الدين** في كل زمن وعلى لسان أيّ رسول.. مفرداتُهُ "**بسيطة**" فالدين — دائماً — ثلاثة أقسام هي: **العقيدة والعبادة والتشريع**. والعقيدة لا تزيد على أنها اعتقاد بوجود الله الواحد الأحد الخالق للكون المُدبّر له. وبأنّ هناك موتاً وبعثاً وحساباً ثم يدخل بعد المؤمنون الجنّة ويدخل الكافرون النّار. وأن هناك ملائكة أطهاراً، وجِناً كل ذلك يَرِدُ على لسان النّبيِّ أيَّ نَبيٍّ وهذا يؤدي بلغة لا تزيد مفرداتها على ثلاثة آلاف كلمة.

أمّا العبادة.. فهي محدودة المفردات منها الصلاة والزكاة ومنها الصوم بكيفيّات يوضّحها الرسول بالقول والعمل. وأمّا التشريع فقد كان في كلِّ الدعوات قبل الإسلام **يركّز على جانب واحد أو جوانب قليلة من أعمال البشر**؛ مثلاً لوط نهى قومه عن الفاحشة التي كانوا يمارِسونها مع الذُّكران من العالمين. وشعيب نصح قومه أن يوُفُوا الكيل والميزان وأنْ لا يبخسوا الناس أشياءهم. وحتى **في الإسلام فإن مباديء التشريع محدودة**، فإلى جانب الحدود فهناك **مباديء عامّة** كطلب العدل في المُعاملات وكالاستخلاف في الأرض، مما يُقرّر مبدأ المصلحة العامّة والخاصّة. وما يبقى خاضعاً

للاجتهاد في ضوء مبادئ الإسلام، العدل والمصلحة. ثم شيءٌ من التفصيل في الأحوال الشخصيّة، الزّواج والطّلاق والإرث. ولهذا.. فالإسلام نفسه آخر الأديان وأكملها يَفهمُ مفرداتِهِ العاميُّ كما يستوعبها المثقّف كما يشرّع على أساسها العالم.

أتعتقد أنّ هذه المُفردات القليلة الواضحة البسيطة التي يفهمها ويستوعبها العاميُّ.. لا يمكن أنْ تُفهَمَ إلا من خلال لغة راقية؟ إنّ الديانات القديمة نزلت بلُغات قليلة المُفردات غير ثرية العبارات ليس بينها وبين الإنجليزيّة مجال للمُقارنة (ناهيك بالعربيّة). أيُقال بعد ذلك أنّ اللُّغات.. القديمة والحديثة كلها متساوية وغير متفاوتة؟

أمّا القول بأنّ "البشر يتساوون في قيمتهم الإنسانيّة.. فلُغاتهم متساوية أيضاً". فليس في تساوي قيمتهم الإنسانية أدنى دليل على تساوي اللُّغات. لأنَّ تساوي البشر حتى في مُجتمع واحد في القيمة الإنسانيّة لا يؤدّي إلى تساوٍ في المقدرة اللغويّة.. فهُناك الفصيح كسَحْبانَ وائلٍ، وهناك العَييُّ الذي لا ترتفع لغته على لغة (باقلٍ).. ومثل الأفراد المجتمعات.. فهناك أمّة هي أربى من أُمّة أخرى في لغتها.

٣ – **ويورد المؤلف رأي ابن حزم في اللُّغات الذي يقول:** "وقد تَوهّم قوم في لغتهم أنها أفضل اللُّغات. وهذا لا معنى له. لأنّ وجوه الفضل معروفة، وإنما هي بعمل أو اختصاص. ولا عملَ للغة، ولا جاء نصٌّ في تفضيل لغة على لغة".

وأقول: لقد بان لك مما ذكرناهُ سابقاً أنّ اللُّغات مُتفاوتة في كثيرٍ.. في المفردات والتراكيب وفي قُدرتها في التّعبير عن دقائق الفكر. وما حمل ابن حزم على أنْ يركب هذا المَرْكَبَ الصعْبَ فتَناسى عظمة اللّغة العربيّة إلاّ لأنه كان بصدد الردّ على (جالينوس) اليونانيّ الذي كان يرى أنّ اللّغة اليونانيّة هي أفضل اللُّغات. وإلاّ.. فاحتجاجه بأنّ الفضل يأتي من العمل أو الاختصاص، وأنّ اللّغة لا عمل لها غير دقيق. لأنّ اللّغة – أيّ اللّغة – ذاتُ عمل عظيم لأنها هي التي تعبِّر عن عمل الإنسان في الوجدان والعاطفة والمشاعر والأحساسيس والعقل كذلك. ولولاها لما استطاع الإنسان أنْ يخلّف وراءَهُ إلاّ القليل. بل إنّ انفعالات الإنسان وأفكارَهُ إنما هي لغة الى حدٍّ كبير ثم .. تصاغ باللغة.

أمّا قوله: "ولا جاء نصّ في تفضيل لغة على لغة" فهو غفلة عن قوله تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠٣]. فلو

كان اللّسان الأعجمّي – كلُّ لسانٍ أعجميٌ – بإبانة اللسان العربيّ لقال تعالى (وقولُهُ الحقّ): "لسان الذي يُلحدون إليه أعجميٌّ.. وهذا لسان عربيٌّ" فحسبُ. فلمّا أضاف "مُبِينٌ" عرفنا أنَّ اللّسان العربيَّ أبيَنُ من اللسان الأعجميّ. ومعروف أنّ القرآن لم يَرِدْ فيه حرف واحد، ليس له معنى، بل – ولا حركة واحدة فكيف إذا كان الوارد كلمةً هي (مُبِينٌ).

وأمّا قوله (ابن حزم): "قال تعالى ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ مُستدلاً به على تساوي اللُّغات في الأداء. فليس فيه أدنى دلالة. بل لَعَلَّهُ ممّا يُمْكِنُ أنْ يُمَدَّ به القولُ ويستقيمَ معه المنطق أنْ نقول مفسِّرين للكلام السابق: "وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه ليبيّن لهم" وإنْ كان لسانهم غير راقٍ وغير غنيّ بالمُفردات والتراكيب. المُهم أنه اللّسان الوحيد الذي يستطيع الرسول أن يُبيّن لهم دينهم به لأنهم لا يتقنون غيره. لأنّ مُفردات الدين قليلة بسيطة (كما عرفنا سابقاً) يكفي لتبيينها أيُّ لسان مهما كان محدود المفردات والتراكيب.

وأمّا استشهادهُ [ابن حزم] بقوله تعالى لمحمد – رسول الرحمة– صلى الله عليه وسلم: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ على أنْ لا فرقَ بين الألسنة.. فليس بدقيق. لأنَّ تعبير"يَسّرْناهُ بلسانِكَ" توحي أنّ تيسير تعاليم الإسلام – وقد اكتملت في الرسالة الأخيرة – لم يكن ممكناً لولا أنه كان بلسانك، يا محمد، أيْ: باللّسان العربيّ. لأنّ اللّسان العربيّ أفصحُ الألسنة وأبيَنُها. لقد تيسّرت تلاوة القرآن المُعجز، وفهم ما يَهُمُّ الإنسان في حياته للاستقامة، ثم لدخول الجنّة لأنه نزل باللّسان العربيّ، ومما لا يستقيم في العقل أن ينزل المعجز بلغة غيرِ **مُعجَزةِ الأصول والتكوين** بسبب أنها إلهامية. ولا سيّما أنّ إعجاز القرآن، إذ أُطلق، فإنما يُقصد به الإعجاز اللغويُّ. لأنّ الإعجاز اللغوي تحدّى به القرآن العربَ حتى في أقصر سورة وهي سورة (الكوثر). لأنّ ما تنطوي عليه سورة الكوثر من إعجازٍ لُغويٍّ إنما هو نمط لهذا الإعجاز اللّغويّ في كلِّ سور القرآن. أمّا أنواع الإعجاز الأخرى كالتّشريعيّ والغيبيّ والعلميّ.. فإنما هي في بعض الآيات المُتفرقة في القرآن.

من هذا يتبيّن لك أنّ قول ابن حزم: "فأخبر تعالى أنّه لم ينزل القرآن بلغة العرب إلاّ ليفيهم ذلك قومه – عليه السلام – لا لغير ذلك" إنما هو قول لم يدرك إشعاعات اللّفظ القُرآني التي أوضحناها.. آنفاً.

واستدلال ابن حزم بقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ ليس فيه أدنى دليل على تساوي اللُّغات. بل هو لا يعرض لأمر اللُّغات من بعيد ولا قريب. وهذا.. شبيه بقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ فأين مقام اللّغة في هذا الكلام؟ ومثله استدلاله بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أيْ: لفي كُتب الأولين. فماذا في هذا من دليل على تساوي اللُّغات؟ يقول ابن كثير في مختصر تفسيره، عن معنى هذه الآية: "وإنّ ذِكْرَ هذا القرآن والتنويهَ به لموجود في كتب الأوّلين المأثورة عن أنبيائهم". بل أقول: أنا لا أرى مانعاً من أنْ يكون المعنى: "وإنّ مبادئ هذا القرآن من عقيدة وعِبادة خاصّة، ومن تشريع بدرجة أدنى، لموجود في كتب الأوّلين، ولا سيّما وقد عرفتَ مما أوردناه سابقاً أن الدِّيانات كلّها تدعو إلى عقيدة وإلى عبادة واحدة من حيثُ هي موجّهة إلى الله تعالى، وإن اختلفت في الشّكل بين رسالة ورسالة، وإلى تشريع يتناسبُ وحالةَ القوم الذين تنزل عليهم الرسالة.

وأوغلُ في الضعف من كلامه السابق قوله: "وحروف الهجاء واحدة لا تفاضُل بينها، ولا قبحَ ولا حُسنَ في بعضها دون بعض. وهي تلك بأعيانها في كلّ لغة. فبطلت هذه الدّعاوي الزّائفة الهجينة" أيْ: دعاوي جالينوس بأن اليونانيّة أرقى اللُّغات في حينها. وجالينوس على حقّ. نعم، أَوْغَلَ في الضعف لأنّ اللُّغات لا تتفاضل بالدّرجة الأولى ولا الثّانية في أصوات الحروف.. وإنما تتفاضل بالدّرجة الأولى بالعلاقات بين الألفاظ القائمة في التركيب. وبالدرجة الثّانية بالألفاظ، وبالدّرجة الثالثة بالأصوات ولذا .. فالفرق الضئيل بين اصوات الحروف. لأَحْقَرُ من أن يؤيد دعوى عدم " تفاوت اللغات في القدرة على التعبير والتواضيح".

وإذا أردت أن تعرف **أنَّ التفاضُل بالدّرجة الأولى راجع إلى التركيب** فانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢] فإبراهيم عليه السلام فاعل، ويعقوب عليه

السلام فاعل.. لأنه معطوف على إبراهيم ونحن يمكن أن نغيّر التركيب على الصورة التالية: "ووصى بها إبراهيم ويعقوب بنيهما.." فهل يتساوى هذان التركيبان في المزيّة والفضل؟ اللهم.. لا بل إن بينهما تباعداً كبيراً فالتركيب الأول قدّم إبراهيم وأخّر يعقوب إلى ما بعد ورود المفعول به (بَنيهِ). لأنّ إبراهيم أبو الأنبياء، ولأنّ يعقوب حفيده.. فلا يجوز أن يأتي الحفيدُ جنباً إلى جنب مع جدِّهِ بل يجب أن يأتيَ متأخراً عنه بوضوح في التراكيب حتى يشعر القارئُ من إشعاعات التركيب (أو السياق) أنّ يعقوب ليس مُساوياً لجدِّهِ إبراهيمَ، خاصةً أنّ إبراهيم أبو الأنبياء، ويعقوب نبيٌّ من عُرض الأنبياء أمَا قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] ولو كان مُساوياً له أو مُقارباً لجاء بعده مُباشرة. ومن هنا يبدو لنا قصور التّركيب الثاني الذي اقترحناه عن التعبير عن المعنى المُراد، قُصوراً واضحاً. الكلمات نفسها لم تتغيّر وإنما تغيّرت علاقاتها.. فكان من جرّاء ذلك تغيّر هائلٌ طرأ على المعنى. أرأيتَ لو أنّ القيمةَ للكلماتِ وأصواتها، حتى على مستوى الدرجة السادسة، من عشْر درجات— من حيثُ هي كلماتٌ مبعثرةٌ.. أينشأ معنا هذا الفرق الهائل في المعنى بين تركيب وتركيب للكلمات نفسها؟

وإذا أردتَ أنْ تعرف الفرق بين جَرْسِ الكلمات فاقرأ قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣﴾ وقوله تعالى ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٣٤﴾. فالآية الأولى وردت فيها (الصّاخّة) والثانية وردت فيها (الطّامّة). ولا شكّ أنك واجد في صوت (الصّاخّة) من الشّدة ما لا تجده في صوت (الطّامّة) مع أنهما كليهما على وزن واحد. لأنّ في الصّاد المُشدّدة والخاء المُشدّدة من شدّة الصوت ما ليس في الطاء المُشدّدة (على شدّتها) ولا في الميم اللّيّنة وإنْ كانت مُشدّدة.

ولا شكّ أنّ هذا الفرق في الشّدّة له انعكاس على المعنى وشعور القارئ بفارق بدرجة الهَوْلِ بين اللّفظتين؛ فالصّاخة أشدّ هولاً من الطامة؛ مع أنّ كلاً منهما تعني يوم القيامة، ولهذا وُصِفَت الطّامّة بالكُبرى ولم توصف الصّاخّة.. لكي يُساويَ معنى الطّامّةِ مع صفتها معنى.. الصّاخّة.

وأنت ترى أنّ هذا الفرق يؤثّر في معنى اللّفظ وهو أقل أهميّة من التأثير في معنى التركيب.

أمّا أصوات الحروف من حيثُ هي حروف فلا قيمةَ كبيرةً لها، وإن كانت لا تخلو من تأثير. لأننا نقول: قَلَعَ، ونقول: بَلَعَ.. فنجد أنّ صوت القاف يعطي الكلمة الأولى من الشّدة ما لا تعطيه الباء في الكلمة الثّانية للفرق بين صوتيّ الحرفين. بل إنّ التصويت بحرف الخاء أشدّ وأصخّ للأذن من التصويت بحرف النون، ولكن قيمة صوت الحرف المفرد، سواء أكان صاخّاً أو ليّناً.. ضئيلة جداً، لأنه في هذه الحالة.. لا يرتبط بمعنى. والذي يعطي الحرف قيمته إنما هو المعنى.. والحرف المفرد ليس له معنى. وبذلك.. فلا أقلّ من أنْ يكون جزءاً من كلمة ليصبح له معنى.

على هذا.. فالأهميةُ الكبرى للكلمة في التركيب ثم هناك أهمية دنيا للكلمة خارج التركيب. أمّا الصوت فلا قيمةَ تُذكر له وهو منفرد.

وبهذا ترى أنّ استدلال ابن حزم بتساوي اللُّغات بسبب عدم تفاضل أصوات حروفها.. إنما هو قول هجين لا عقل وراءه إنما جلبه " التعصب" الذي يُعمي عن الحقّ، ويَصِمُّ.

أمّا قول ابن حزم الذي يُوافقه عليه المؤلّف وهو: "قد غَلِطَ في ذلك جالينوس فقال: إنّ لغة اليونانيّين أفضل اللُّغات. لأن سائر اللُّغات إنما هي تُشبه إمّا نُباحَ الكلاب أو نقيق الضفادع. قال عليّ – أيْ: ابن حزم – : وهذا جهل شديد، لأنّ كلَّ سامع لغةٍ ليست لغته ولا يفهمها فهي عنده في النِّصاب الذي ذكره جهلاً شديداً جالينوس. ولا فرق" أقول – إن قول جالينوس ليس وإنما هو حقيقة تبين لك ممّا أسلفناه، ومن خصائص اللّغة اليونانيّة التي لا تزال جُذورها ضاربةً في بضع لغات حيّة والتي لا تزال مصدراً ثرّاً للمُصطلحات العلميّة، فكثيراً ما يستعين العُلماء بجذور اللّغة اليونانيّة وما فيها من سوابق ولواحِق. ولولا غِناها بالمُفردات وتفوّقها على كثير من اللُّغات المعاصرة لها، بل وكثير من اللُّغات المُعاصرة لنا لِما كان لها هذه الأهميّة عند العلماء. **وإلاّ.. فلماذا لا يأخذ العلماءُ من لغة الآشوريّين ولغة البابليّين المعاصرتين لها؟**

أمّا قول ابن حزم: "لا لأنَّ كلَّ سامع لغة ليست لغته ولا يفهمها فهي عنده في النِّصاب الذي ذكره جالينوس. ولا فرق".. فغير دقيق كذلك. أمّا ترى أن الإنجليز والأمريكان، وأكثرُ منهم الفرنسيون، يأكلون نصف أصوات الكلمة حتى لتبدوَ كنباح الكلاب؟ وذلك جعل (فندريس) في كتابه (فقه اللّغة) يرى أنه أصبح هناك تباعد كبير في الإنجليزيّة، وفي الفرنسيّة على الخُصوص، بين صوت الكلمة ورمزها

المكتوب حتى ليخشى أن يصبح النّاس في هاتين اللّغتين يُصوّتون غير ما يكتبون، ويكتبون غير ما يُصوّتون، فيحدث مع الزمن طلاق بين الصوت ورمزه الكتابيّ. أفترى أنّ اللّغة العربيّة التي لكلِّ حرف فيها صوت يتطابق معه غالباً.. مثلُ هاتين اللّغتين، مع أنهما لغتان عالّميّتان؟ الحقّ.. لا فأصوات كلماتها ومخارج حروفها صهيرة واضحة.

وهنا أقول: أحسبُ أن الذي حمل ابن حزم – رحمه الله تعالى– على هذا الرأي هو : أن اليونانيين القدامى – زمن أفلاطون، وأرسطو، كانون يرون أن اليونانية هي أبلغ اللغات، (وهم على حقّ ، لأنها لغة مُعْرَبَة، والإعراب يزيد اللغة – أي لغة– بياناً وفصاحة، لأن حركة الإعراب تُعبّر، فقرّر أن اللغات متساوية في البلاغة. وليس ذلك بصحيح – كما أوضحنا– ولو ندبّر الأمر جيّداً، لقال: إن اليونانية هي أبلغ اللغات القديمة، لأنها، مُعْربة، دونها، أمّا العربية الفصحى.. فهي أبلغ اللغات جميعاً– قديماً وحديثاً– لأنها اللغة الوحيدة المُعْربة في زمانه (وإلى اليوم) ولأن الإعراب فيها أوسع وأشمل مما هو في لايونانية القديمة المعربة (التي أمست بائدة من الاستعمال الحيّ، في زمانه، وإلى يوم الناس هذا) . وأوسع اللغات إعراباً هي – أبْيَنُها وأبلغُها.

٤ – **العربيّة والإنجليزيّة:** لقد نوهنّا فيما سبق أنّ العربيّة متفوّقة على الإنجليزيّة، مع أن الإنجليزيّة لغة عالميّة في هذا العصر. ذلك لخصائصَ في العربيّة لا يوجد مثلها على نفس المُستوى في الإنجليزيّة. وقد يكتب في هذه الفروق كتاب من ألف صفحة. غير أنّ مقالة واحدة لا تتّسع إلاّ للقليل من ذلك. وأنت واجد شيئاً من هذه المُقارنة فيما سبق من أقسام هذا الكتاب. ونكتفي هنا بالإشارة السريعة إلى ثلاثة أشياء هي:

– **الإملاء.**

– **الاشتقاق.**

– **الميزان الصرفي.**

الإملاء: سَبَقَ أن ذكرنا أن هناك فرقاً هائلاً بين الصّوت والرّمز [الحرف] في الإنجليزيّة. ونُضيف أن هناك كثيراً من الحروف التي تكتب ولا تُصوّت مثل: Daughter، فالـ (gh) لا يُلفظان أبداً. ومثلها مئات الكلمات، ونُضيف كذلك أنّ حروف "العِلّة" في الإنجليزيّة ليس لكلٍّ منها صوت ثابت خِلافاً للعربيّة. ونكتفي بالتمثيل بالـ (O).. فأنت تقول (God) فتلفُظها (جاذْ) وكأنها ألف ممدودة. وتقول (Good) ولكنك تصوّتها بصوت قصير (جُدْ). فما هذه اللّغة التي يُمَدّ فيها (الواو)

وكأنه ألف ممدودة، ويقلّص فيها (الواوان) المُتواليان وكأنَّهما واو واحدة، بل وكأنهما ضمّة؟ أين هذه اللّغة من اللّغة العربيّة التي لا يختلط فيها الضمُّ (الحركة) بالواو (الحرف).. أبداً. فالصوت قصير في الضمّ أبداً، طويل في الحرف أبداً. ومثل الضم.. الفتحُ والكسرُ كحركتين وكحرفين؟

الاشتقاق: في اللّغة العربيّة نشتقّ من كلّ شيء، مما يجعل الاشتقاق من مزايا اللّغة العربيّة التي لا تُدانيها به اللّغة الإنجليزيّة قليلةُ الاشتقاق. العربيّة تشتّق من الفعل مصدراً مثل: كَتَبَ ومصدرها كَتْبٌ أو كتابة. وتشتقّ منه – إلى جانب المصدر – أشياء كثيرة مثل: كتاب، مكتبة، مكتب، كتيبة، كاتب، مكتوب..الخ. ثم نشتق من الفعل نفسه فعلاً آخر، ونشتقّ من هذا الفعل الآخر عدداً آخر من المشتقات. كأن نقول من (كَتَبَ): استكتب. ومنها نُولّد مشتقات كما ولّدنا من الفعل الثلاثي السابق.

ونشتقّ من اسم الذات فنقول من كلمة (الذهب) الفعل (ذهّب) – بتشديد الهاء – ونشتق من (ذهّب) مشتقّات كثيرة. ونشتقّ من الاسم الجامد فنقول من (حَجَر): استحجر. ونشتق من هذا الفعل كثيراً من المشتقّات. ونشتق من الاسم الأعجميّ فنقول: (دَرْهَمَهُ) من (الدرهم). ونشتِقّ من الضمير فنقول: (هُوِيّة) من الضمير (هو). ومن الحرف فنقول: عَنْعَنَ الحديث. أيْ قال: عن فلان عن فلان.. ومن أسماء الأفعال، فقد اشتقّ من (هُشْ) زجراً للغنم (أهشّ) كما قال موسى عليه السلام: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى﴾. وكلُّ فعل نشتقّه.. نشتقّ منه كثيراً من الكلمات. فأين اللّغة الإنجليزيّة من هذه الغزارة الاشتقاقية في اللّغة العربيّة؟! وقد سبق مثل هذا القول.

الميزان الصرفي: العربيّة تقوم على أوزان قياسيّة غالباً. وهذا يُسهّل تعلّم اللّغة وتوليد عشرات الآلاف من الألفاظ على كلّ وزن. ونكتفي بمثالٍ واحد على ذلك هو (اسم الفاعل). اسم الفاعل في العربيّة له وزنان فقط هما وزن (فاعل) من الفعل الثلاثي. ومما فوق الثلاثيّ يأتي على وزن مضارعة بإبدال حرف المضارعة ميماً مضمومةً وكسر ما قبل آخره. مثال الثلاثي: قَرَأَ واسم الفاعل: قارئ. ومثال ما فوق الثلاثيّ: اجتهد. واسم الفاعل (مُجتَهِدٌ) أيْ: يُضِمُّ الميم وتكسر الهاء. ولا يخرج على ذلك إلا بضعة ألفاظَ مثل: (مَوْسَقَ) واسم الفاعل (موسيقار). ولكننا نقول أيضاً: (مُمَوْسِقٌ) وهذا على القياس. لأنّ اسم الفاعل الأوّل يعني الصفّة الثابتة، واسم الفاعل الثاني يعني الدلالة على الحدث.

وهل الإنجليزيّة لا تحتفظ إلا بصيغتين فقط لاسم الفاعل، بل لا تحتفظ إلا بعشْرِ صيغ لاسم الفاعل؟. ليس هناك "وزن" لاسم الفاعل في الإنجليزيّة أو أوزان وإنْ تعدّدت وإنّما هناك نهايات متعدّدة.. كلُّ مجموعة كلمات تنتهي – اعتباطيّاً – بعلامة لاسم الفاعل. فهي من (write) .. (writer) ومن (participate).. (participant). ما الذي جعل علامة اسم الفاعل في الكلمة الأولى (er) وفي الكلمة الثانية (ant)؟ لا أحَد يعلم، وإنما هي قضيّة "اعتباطيّة" لا يُقاس عليها وكلمة (Pray) يصلي.. لا يأتي منها اسم فاعل – أصلاً– لأن (Prayer) معناه (صلاة؟ وليس المصلي.. ومثل هذه الأمثلة الثلاثة.. كثير.

فهل هُناك مجال للمُقارنة بين قِيام العربيّة على أوزان قياسيّة في صيغة اسم الفاعل وصيغ كثيرة أُخرى كاسم المفعول وصيغة المبالغة واسم الآلة واسم الزمان واسم المكان واسم المرّة واسم الهيئة.. وبين خُلُوِّ اللّغة الإنجليزيّة من الأوزان القياسية؟ اللهمّ.. لا.

أرأيتَ أخي القارئ، بعد تناولنا المقتضب للفرق بين العربيّة والإنجليزيّة في الإملاء والاشتقاق والأوزان الصرفية.. أن العربيّة متفوّقة بوضوح على الإنجليزيّة؟ ولهذا ..حُقّ للعربية أن تكون (إلهامية) وأن تَشْرُف بجمل القرآن العظيم.

ثم.. أرأيتَ من كل ما سبق حول اللُّغات.. أن اللُّغات تتفاوت تفاوتاً بيّناً في مستوياتها؟ فهناك لُغات فقيرة بدائيّة ولُغات غنيّة حضاريّة؟ وأنّ أغنى اللُّغات قاطبةً إنما هي اللّغة العربيّة، لأنها لُغة القرآن المعجز.. أنواعاً مختلفة من الإعجاز في مُقدّمتها الإعجاز اللّغويّ، ولا يكون إعجازٌ لُغويٌّ في لُغة مثل سائر اللُّغات؟ اللهمّ إن اللُّغات تتفاوت وأنّ أرقى لغة في خصائصها إنّما هذه اللّغة العربيّة التي فضّلها الحق تعالى على جميع اللُّغات فقال – عزّ من قائل – ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل – ١٠٣] فميّزها بتقدمها في الإبانة على جميع اللُّغات.

ولكن هنا نقف في مُناقشة الأفكار في هذا الكتاب. ولكنّنا سنستأنف الحديث في مقالة أُخرى حول لغة الكتاب.

الموضع الثالث

العربيّةُ والتعريبُ في العصرِ الحديّثِ*

هذا العنوان هو عنوان كتابٍ لأستاذنا الدكتور عبد الكريم خليفة. وفي مقالة سابقة تحدّثنا عن أفكار الكتاب، مُوافقين أحياناً ومُعارضين أحياناً أخرى. أمّا في هذه المقالة فسنتحدث عن لغة الكتاب، ولغته لغة مُشرقة.

ولكن يُحسن أن نذكر أنّ الأساليب المُشرقة تتفاوت. فالأساليب المُشرقة درجات، كما أنّ الحلال درجات، وكما أنّ الحرام درجات، مثلاً أسلوب الجاحظ في القديم وأسلوب طه حسين أو أسلوب الرافعي أو أسلوب المازني في العصر الحديث.. تأتي في الذّروة. ثم تنزل الأساليب المُشرقة درجةً درجةً حتى يُخالط أدناها درجة الأساليب غير المشرقة أو يقف على التّخوم.

ولدى قراءتي لهذا الكتاب تبيّن لي أن بعض الكلمات تدفع الباحث إلى مُناقشتها. فلْنتناولْها واحدة واحدة:

١ – **يقول المؤلف:** "نظراً لما نعوّله من أهميّة قُصوى على المعاجم" ص٦.

وأرى أنّ الصواب: "لما نعوّل عليه من أهميّة قُصوى" يقول لسان العرب لابن منظور: "وقد عوّل به وعليه، وأعول عليه وعَوّلْ. ويقال: عوِّل عليه (فعل أمر) أيْ: استعنْ به".

٢ – "**وقد استطاعت هذه الدراسات أنْ تُبيِّن الصّلة الحيويّة بين اللّغة**، من حيث هي لغة، وبين أفكار الناس وأحاسيسهم وأعمالهم. وبعبارة أُخرى، فقد استطاعت أنْ تبيّن أنّ اللّغة ليست أداة للتعبير فقط" ص١١.

وأرى أنّ (فقطْ) غير مستوية في موضعها. واللفظة المستوية هي (فَحَسْبُ). لأن (فقطْ) تُستعمل مع العدد أمّا (فحسب) فتستعمل مع الأشياء المختلفة. نقول: اشتريت هذا الكتاب بخمسة دنانير فقط. ولكن نقول: لا أكتب القصة القصية فحسبُ، وإنما أكتب الشعر كذلك.

٣ – "**وتظلّ اللّغة الوسيلة الرئيسيّة للاتصال.** ومن ثَمَّ للتأثير في الإدراك بنحو تَذَكُّرِ الماضي عند الفرد والجماعة ووعْيها بالحاضر، وتوقعهما وتنبُّؤهما بالمستقبل" ص١٣.

(*) كتبت سنة – ٢٠٠٠م.

وأرى أنّ الإملاء الصّحيح هو: "وتتبُّؤهما" أي: تقع الهمزة على نبرة. لأنّ (تتبُّؤاً) لم تأتِ وحْدها غير متّصلة بالضّمير حتى تكتب على واو.. وإنْ كانت الكلمة مجرورة لأنها معطوفة على مجرور وهو (تذكّرٍ) – بكسر الراء – لأن هذه الكلمة مضاف إليه مجرور. أمّا المضاف فهو (نحو) المجرورة أيضاً بالباء. أمّا عندما يقترن بها الضمير (هما) كما هي في النصِّ.. فإن الكسرة التي حُرِّكت بها الهمزة تغلب الضمَّة التي حركت بها الباء السابقة على الهمزة. لأنّ أقوى الحركات الكسرة ثم تليها الضمّة ثم تليها الفتحة ثم السكون.

٤ – "**فاللّغة العربيّة** تتميّز بعناصر أساسيّة في بُنيتها الصرفيّة والنحويّة تجعلها.. مطواعة" ص٢٠.

وأرى أنّ الصواب: "تجعلها.. مطواعاً" أي: بحذف التاء المربوطة. لأنّ وزن (مِفعالٍ) ستوي فيه المُذكّر والمُؤنّث، نقول: رجل مطواع وامرأة مطواع. قال الشاعر:

ربَّةُ الحُسْنِ ومِكْسالُ الضحى   أحوَرُ المُقلةِ كالريم الأغَنْ

ولا تتَّصل التاء المربوطة بوزن (مِفعالٍ) **إلا.. للمُبالغة** كقولنا: هو رجل مِطْواعَةَ أيْ: مُبالِغٌ في الطاعة. وعندئذٍ يجوز أنْ نقول: امرأة مطواعة. كما نقول للمبالغة: رجل علاّمة وامرأة علاّمة. والسياق هنا ليس سياق مبالغة. لماذا؟

لأنّ موقف المؤلّف العامّ هو أنه "ليست هناك لغة أفضل من لغة بحدّ ذاتها" – كما ورد هذا النصّ في المقالة السابقة. ص٢٠. وإذن، لا تفاوت بين اللُغات عنده. وعلى هذا فلا توصف لغة – في حين ليس من تفاوت – **بأنها مطواعة وأُخرى بأنها مطواع**. لأننا لا نقول: رجل علاّمة ورجل علاّم ورجل عالم إلاّ لأنّ العلاّمة هو أعلاهم في العلم يليه العلاّم ثم يأتي أخيراً العالم. فلولا "**التفاوت**" في العلم لما وُجِدَتْ هذه الصِّفات الثلاث المتفاوتة ولاكتُفي بصفة واحدة هي عالم.

أمّا أنا فأومن أنّ بين اللُغات تفاوتاً، وأنّ أعلى اللُغات في القدرة على التعبير هي "العربيّة". حتى الإنجليزيّة لا تُجاريها في ذلك. وقد أكّدت هذا في المقالة السّابقة. وقد دلّلت عليه بثلاثة أمثلة، ونزيد الأمر وضوحاً هنا بثلاثة أمثلة أُخرى.. الأوّل منها سبق، ولكن نزيده هنا تفصيلاً، وهذه الأمثلة هي:

أ – **إنّ اللّغة العربيّة هي لُغة "الاشتقاق" لا تُجاريها فيه لغة أخرى**: فالعربيّة تولّد من الأصل اللّغوي عشَرَةَ مُشتقّات أو أكثر. مثلاً كلمة (كَتَبَ) يشتقّ منها: يكتب، كاتِب، مكتوب، كَتّاب – بفتح الكاف – كُتّاب – بضم الكاف، مكتبة، كُتب، كُتَيّبه، مكتبة، مكتب، كتيبه، كِتْب – بسكون التاء – كتابة، ثم نشتقّ من الفعل (كتب) الفعل (كاتبَ) والفعل (تكتّب) – بتشديد التاء الثانية – والفعل (تكاتب) والفعل (أكتَبَ) والفعل (استكتب).. الخ. ثم نشتق من كُلّ فعل من هذه الأفعال مجموعة كبيرة من الصيغ المشتقّة؛ نشتقّ منها للمعاني التي ستحدث، مما يجعلنا نقرّر بأنّ العربيّة قادرة على مجاراة التطوّر، لأنها قادرة على توليد الألفاظ واشتقاقها لكلّ المعاني التي تستجدّ.

فإذا نظرنا إلى اللّغة الإنجليزيّة المنتشرة في ثلاثة أرباع المعمورة التي يظنّ الجاهلون بالعربيّة أنها تتقدّم على العربيّة.. وجدناها غير قادرة على مُجاراة العربيّة ووجدناها مقصوصة الجناحين في الاشتقاق. ولكي نُوضّح ذلك ننظر في مادّة الفعل السّابق (كتب) وهو (wrote) فنجد أنّ الكلمات التي تشتقّ منه لا تزيد على أربع كلمات هي: (write ثم written).. ثم (writerثم writing). وهي على التّوالي: يكتب، مكتوب، كتابة، كاتب. فإذا بحثنا عن لفظة (مكتب) لم نجدها من نفس المادّة وإنما هي كلمة جامدة لم تشتقّ من فعل وهي (office) وما اشتقّ منها لم يكن من مجال معناها، وهما كلمتان (officer) وتعني ضابطاً ثم كلمة (official) وتعني: موظّفاً. وقد يكون بين الكلمة الأولى (مكتب)، والكلمة الثالثة "**علاقة**" ما.. لأنّ الموظف يجلس على المكتب، فالعلاقة علاقة ترابط مكانيّ، ولكنّك لا تجد مثل هذه العلاقة بين الضّابط وبين المكتب.

فإذا بحثنا عن لفظ مكتبة وجدناها لفظة جامدة (=مُرتجلة) كالكلمة السابقة وهي (library)، ووجدنا من مادّتها ستة ألفاظ لا تمتّ إلى معنى المكتبة بصلة وإنما هي تعني الحريّة ومُشتقّاتها. فإذا نظرنا في صيغة (كتاب) وجدناها تأتي من مادة أُخرى جامدة هي (Book)، ولها معنى آخر هو: يرتب لعمل شيء – ما – في المستقبل. ولا يشتق منها إلا كلمتان؛ إحداهما تعني الكُتيّب والأخرى تعني الاعتناء بالنظافة في المكاتب والمطاعم والمسارح..

فإذا نظرنا إلى صيغة: كَتّاب – بفتح الكاف – وهي صيغة مُبالغة من: كاتب وكُتّاب – بضمّ الكاف – وهي اسم المكان الذي يدرس فيه الصغار، وقد اشتُقّ الاسم من الكتب والكتابة –.

وهكذا ترى أنّ الألفاظ العربيّة التي اشتقّت من الفعل (كَتَبَ) التي تبلغ فيما أوردناه ثمانيَ عشرَةَ صيغة، وتبلغ عند إحصاء المشتقّات من الأفعال المزيدة المشتقة من الفعل (كَتَبَ) العشرات. أمّا في الإنجليزيّة فقد توزع ما ورد من مُشتقّات الفعل الثلاثي وَحْدَهُ على بضعة أبواب، وبعض هذه المشتقّات لم نجد مقابلاً له في الإنجليزيّة حتى وإنْ كان يرجع إلى موادّ مُختلفة.

أصحيح أنّ لغة هذا شأنُها في توليد المُشتقّات تساويها لغة أُخرى كَزّةٌ الاشتقاق تكاد تكون عقيماً في توليد المشتقّات؟

ب – **إن اللّغة العربيّة قادرة على توليد "صِيَغ"** بقدر صيغ الغائبين المذكّر منهما والمؤنّث، وللمُفرد والمُثنى والجمع، مذكّراً ومؤنّثاً. وليس كذلك اللّغة الإنجليزيّة، بل هي "جامدة" على صيغة واحدة في المُفرد والمُثنى والجمع، مُذكّراً أو مُؤنّثاً، مثلاً.. الفعل "تكلّم".. في العربيّة نقول: الرجل تكلّم – المرأة تكلّمت – الرجلان تكلّما – المرأتان تكلّمتا – الرجال تكلّموا النساء تكلّمن. أما في الإنجليزية فنقول:

– The Tow men spoke
– The Tow women spoke.

أمّا ترى أن ثمّة فرقاً هائلاً بين لُغة تَجْمُدُ على صيغة واحدة مع المفرد والمثنّى والجمع، مذكّراً ومؤنّثاً، ولغةٍ تأتي بتغيير على الصيغة الأصليّة مع كلٍّ من المفرد والمثنّى والجمع، مذكّراً ومؤنّثاً، أيْ: تأتي بصيغة جديدة لكلٍّ منها؟

إن اللّفظ "الصيغة" يتبع المعنى، وليس العكس، كما يقول الإمام عبد القاهر الجرجانيّ في كتابه: **دلائل الإعجاز**. وهو على حقّ. ولذلك فاللّغة التي تشتقّ صيغة لكلّ معنى غالباً هي، مُتقدّمة بمراحل على اللّغة التي لا تستطيع مثل هذا الاشتقاق وهما كالسيّدة –الوَلودِ– والسيدة – المِقلاتِ[1] – هل يستويان؟.

---

(١) المِقلات – القليلة النسل.

ج – إنّ من مقاييس رُقيّ اللّغة قدرتَها على التعبير عن المعاني الدقيقة وقدرتها على تقديم الأهمّ على المهمّ وتقديمها على ما هو تكملة ليس أكثر. فالعربيّة في هذا المجال أقدر من الإنجليزيّة بوضوح، كما كانت أقدر في المجالين اللذين عرضنا لهما سابقاً.

مثلاً.. المتنبيّ قال:

فما ينفعُ الأُسْدَ الحياءُ من الطّوى ... ولا تُتّقى حتى تكونَ ضَوارياً

فإذا أخذنا الشطرة الأولى.. وجدنا الشاعر قد قدّم المفعول به (الأُسْدَ) على الفاعل (الحياءُ)، وذلك لأنّ (الأُسدَ) أهمُّ عنده من (الحياء) لأنه كان قد غادر سيف الدولة الحمْدانيّ على أثر خلاف بينهما. وكان ينطوي في "شعورهِ اللاّواعي" أنه لو كان قويّاً لما فارق سيف الدولة.. **مهزوماً**، بل لشنّ عليه حرباً ينتقم بها منه. ولهذا.. كانت القوّة شيئاً مهمّاً عند المتنبي. ولا شكّ أن الأُسْدَ هي أحد "تّجسُّد" مظاهر القوّة. ولذلك كان موضعه في نفسه متقدِّماً، وكان في خياله بارزاً. ولهذا.. كانَ شيئاً يتّفق مع حالته النَّفسية أنْ يقدّمه على الفاعل الذي يتقدّم على المفعول به في الظروف العاديّة.

– ولكنْ لو أنّ أولويّات نفس المتنبّي تغيّرت مع الأيام، أو لو أنّنا وجدنا للحياء في أنفسنا أهميّة أكبر من أهميّة الأُسدَ، لأنّ الناس لم يعودوا يعايشون الأسود، صباحَ مساءَ، ولأنّ الحياء، كقيمة أخلاقية، قد أصبح له رصيد أكبر من المشاعر والأحاسيس في نفوس الناس – عندئذ يمكنّنا في العربيّة أن نقول نثراً: "فما ينفع الحياءُ الأُسدَ من الطوى" أو: "فما ينفع الحياءُ من الطوى الأُسدَ". وهذا **يعني أنّ العربيّة قادرة على تغيير ترتيب الألفاظ عندما تتغيّر "أولويّات" المعنى مع المُحافظة على المعنى العام.**

– **بَيْدَ أن الإنجليزيّة غير قادرة على ذلك..** فالألفاظ يُضَمُّ بعضُها إلى بعض بترتيب خاصّ لا يمكن تغييره، وإنْ تغيّرت أولويّات المعنى! ففي شطرة المتنبي السابقة يأتي الترتيب هكذا، في الإنجليزية:

The shame does not benefit the lions from hunger.

ولا يمكن تغيير هذا الترتيب، مهما تغيّرت أولويّات المعنى في النفس. إلا.. إذا انتقلنا إلى المبني للمجهول. ولكنّ هذا باب آخر غير باب المبنيّ للمعلوم.

– **أفليست اللّغة التي "تَجْمُدُ" على ترتيب واحد للألفاظ مهما تغيّرت أوْلَوِيّاتُ المعنى في النفس هي أدنى بكثير من اللّغة التي تلبس لكلّ حالة لَبُوسَها.. التي تستطيع أن تُعبِّر**

عن دقائق المعنى، وأدقّ خلجات النفوس؟ – هي أدنى– حقاً– واللغة المتموجة التركيب – لتمُّوجات النفس– هي أعلى حقّاً؟

٥ – بعد هذه الجولة نعود إلى المناقشة اللغويّة:

يقول المؤلّف: "وما لبثت موجة الاستعمار الأوروبيّ أنْ بدأت تهب عاتيةً تثير حملاتها الصّليبيّة من جديد، مستخدمةً الوسائل إياها من قُوى عسكرية ضخمة..: ص٣٧.

وأنا أرى أنّ الصّواب هو: "مستخدمةً الوسائلَ نفسَها" بدل: إيّاها. لأنّ التوكيد لا يقع بضمير النصب (إيّاها) أو غيره من ضمائر النصب، **فليس ضمير النصب من التوكيد.. المعنويّ.** أمّا كلمة (نفسها) فهي أحد أسماء التوكيد المعنويّ. ومثلها: العين وجميع وعامّة وكلا وكلتا وكلّ. إنّ (إيّاها) ومثيلاتها من ضمائرَ، لا تقع إلاّ مفعولاً به. كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة: ٥] و(إيّاها) لا تختلف عن (إيّاك).

٦ – "**فطُرحت قضيّة تدريس العلوم باللّغة الإنجليزيّة**، والاتّكاء على الاستثناء.. مُتذرّعين – بشتّى الذّرائع - " ص١١٨.

وأنا أرى أنّ "شتى" لا تأتي مُضافاً. وإنْ كنّا نسكت عليها، مضافةً، عند المبتدئين. لقد وردت في القرآن ثلاث مرّات: في الأولى كانت صفةً وهي: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝﴾ [طه: ٥٣]. وهي هنا.. صفة لـ (نباتٍ). وفي الثانية كانت خبراً وهي: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤] والموصوفون هم اليهود. وهي خبر لـ "قلوب". وفي الثالثة كانت خبراً لـ (إنّ)، واللّام الذي اتصل بها هو لام التوكيد، وهي: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝﴾ [الليل: ٤].

وإن كان قد كثُر استعمالها كمُضافٍ، حتى صار التّسامح معها بهذه الصورة.. أمراً مقبولاً.. يمكن أن يُمرّر.

٧ – "هذا كلّه يستلزم عمليّةً – دؤوبةً – هادفة" ص١٩٢.

وأرى أنّ الصّواب "عمليّةً دؤوباً" أيْ: بحذف التّاء المربوطة، لأنّ الصّفة التي على وزن (فَعول) وتكون بمعنى اسم الفاعل (وليس اسم مفعول) يستوي فيها المُذكّر المُؤنّث. لأنّ دؤوباً بمعنى (دائب). ومثلها (صبور). نقول: رجل صبور وامرأة صبور. لأنها بمعنى صابر.

أما لماذا يستوي فيها المُذكّر والمُؤنّث؟ فإنّ السبب هو أنه "عُدِلَ" بها عن اسم الفاعل إلى وزن (فَعول). والتّسوية بين المذكر والمؤنث، جاءت بسبب العَدْل. لأنّ العدل يُطرئ تغييراً على الحروف أو الحركات، أمَا ترى أنّ اسم (عُمَرَ) مُنع من الصرف، لأنّه عُدل به عن (عامر)؟

٨ – " – وطالما – نحن بصدد الحديث عن (النصوص) العلميّة: القديم منها والحديث.. نجد من الواجب أنْ نشير إلى قضيّة فرعيّة" ص ١٩٦.

وأرى أنّ (طالما) لم تقع موقعها. لأنها بمعنى (ما أطولَ) وليست بمعنى "التعليل". نقول "طالما قرأنا في كتب اللّغة، إذ كان بدءُ اطلاعنا عليها قبل خمسة وأربعين عاماً". أيْ: ما أطولَ ما قرأنا. أو لقد قرأنا طويلاً في كتب اللّغة. والسِّياق الذي وردت فيه هنا سياق تعليل. أيْ: – ولأنّنا – كنّا بصدد الحديث عن النُّصوص العلميّة ..) فهنا كلمة التعليل التي تصحّ هي (ولأننا).

٩ – "و – سوف لا – أقف عند اللّغة الأدبيّة، ولا أخشى على وحدتها.. إذْ أنّ النصَّ القرآني كفيل أبديٌّ بتوحيد اللّغة الأدبيّة" ص٢١٠.

وأنا أرى أنّ قولنا: "ولن أقف.." أولى من قول المؤلّف: "وسوف لا". لأنّ (لن) وحدها تُغني عنه. ولا شكّ أنّ البلاغة في "الإيجاز" فإذا كانت لفظة تغني غِناءاً تامّاً عن لفظتين كان استعمالها أَوْلى. يدلّك على ذلك أنّ الحقّ تعالى قال: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٢]. فإبراهيم – عليه السلام – فاعل. ويعقوب – عليه السلام – فاعل. فلماذا لم يتوال الفاعلان، وإنما قُدِّمَ إبراهيم وأُخِّر يعقوب إلى ما بعد المفعول به؟ لقد وضحنا جواب هذا السؤال في المقالة السابقة.

وجوابه هناك يعنى أنه يجب علينا أنْ نختار دائماً العبارة الموجزة على العبارة الطويلة، والكلمة الواحدة على الكلمتين، إذا كان هذا الإيجاز يؤدّي المعنى المقصود، وعلى هذا.. فنحن نُقدِّم "لن" على "سوف لا" لأنها على إيجازها تؤدّي المعنى الذي تُؤدّيه عبارة "سوف لا" تمام الأداء. إنّ "لن" تعنى نفى المستقبل، وإن "سوف لا" لا تزيد على أنها تعني نفي المستقبل، فأيُّهما نستعمل، إذن، مع الفعل المضارع لنقلبه إلى

النفي والاستقبال؟ أحسبُ أنّ (لن) هي الأَوْلى، إن لم تكون هي الواجب استعمالها، دون غيرها من الصِّيَغ.

١٠ – "فإنّ وضع الكلمات الحديثة في اللّغة يجري بصورة – رئيسة – إمّا على طريقة الاشتقاق، وإما على طريقة التعريب. وقد يُجمع بينهما" ص ٢٢٦.

وأنا أرى أنّ الصّواب "رئيسيّة" بإثبات ياء النّسبة. أيْ: "بصورة رئيسيّة". لأنه لا يوصف بالرّئيس أو الرئيسة – دون ياء النّسبة إلا الإنسان والحيوان، نقول: رئيس مكتب ارتباط الجامعة أو – في التّأنيث – رئيسة مكتب ارتباط الجامعة. لأنّ كُلاًّ منهما يرأس المكتب حقّاً. ونقول: كلب رئيس، ونعجة رئيس. لأنّ الكلب يقود الكلاب ويرأسها إلى حدٍّ ما، ولذا يمكن أنْ نُشبِّه رئاسته برئاسة الإنسان فهو رئيس من باب – المجاز – .. ولأنّ النعجة تشبه الكلب في رئاستها للنعاج، إذْ يوضع في عنقها جرس فتتقدّم هي النعاج.. فتكون رئيسة إلى حدٍّ ما "بحيثُ تُشبّهُ رئاستها برئاسة الإنسان فهي رئيسة من باب المجاز كذلك. وهذا يُسوّغ.. بأن يوصف الكلب بالرئيس والنجعة بالرئيسة.

أمّا المعنويّات والجمادات.. فلا توصف بالرئاسة.. برئيس للمذكّر وبرئيسة للمُؤنّث. لأنّ المعنويّات والجمادات.. **لا ترأس غيرها** لا على الأصالة كالإنسان، ذكراً أو أُنثى، ولا على الشّبه بالحيوان، ذكراً وأُنثى، فالصورة – مثلاً – التي نُعِتت في النّص (بصورة رئيسة)، لا ترأس سائر الصور. والفكرة، مثلاً لا ترأس الفِكَرَ الأخرى. والنهر، مثلاً، لا يرأس سائر الأنهارمهما كان ماؤه عظيماً، والسيارة الفارهة، مثلاً، لا ترأس سائر السيّارات الصغيرة.. أبداً.

وإذنْ، فالنهر ليس رئيساً والسيّارة ليست رئيسة، وإنْ كانا عظيمين. فغاية ما يُنْعَتا به أنهما رئيسيّان. أيْ: **منسوبان إلى الرئاسة المتخيّلة**، وليس الرئاسة الحقيقيّة كما يكون مع الإنسان، ثم بدرجة أقلّ مع الحيوان.

ولهذا نقول: نهر رئيسيّ، منسوب إلى الرئاسة المتخيّلة، وسيّارة رئيّسيّة، منسوبة إلى الرئاسة المتخيّلة، ولا ننعتهما دون ورود ياء النِّسبة معهما.

بل إنّ الإنسان نفسه لا يُنعت بأنه رئيس أو رئيسة إلاّ إذا كان رئيساً أو رئيسة لجماعة من النّاس حقاً، وإلاّ وصف الرجل بأنه رئيسيّ، بإيراد ياء النِّسبة، ووصفت

المرأة بأنها رئيسيّة، بإيراد ياء النّسبة كذلك، ولذلك.. نقول: زيد رئيسُ حزب النهضة، أمّا زياد فعضو رئيسيّ، بإيراد ياء النّسبة، ننسبه إلى الرّئاسة نسبةً ليس غير، لأنه مهمّ، فهو الشخص الثاني أو الثالث في الحزب، ونقول: سلمى رئيسةُ اتّحاد المرأة، أمّا سُعاد فعضوة رئيسيّة فيه، بإيراد ياء النّسبة، ننسبها إلى الرّئاسة نسبةً ليس غير. لأنها العضوة الثانية أو الثالثة في الاتّحاد أمّا إذا قلنا : (زيد عضو رئيس) فلا يفهم منها أنه رئيس وعضو في الوقت نفسه. ومثله (سعاد عضوة رئيسة).

إذن، لا يوصف بالرئاسة، بدون ياء النّسبة، إلاّ من كان رئيساً أو رئيسة.."حقاً. أو فيه مُشابهه من عمل الرّئيس كما في الحيوان. أمّا المعنويات والجمادات.. فتنسب نسبةً إلى الرئيس أو الرئيسة، عن طريق ياء النّسبة. وإذن ، قُلْ: "صورة رئيسيّة" بإيراد ياء النّسبة ليس غير.

وبعدُ: فهذه مجموعة من الأخطاء اللغويّة بلغت عَشْرَ كلمات. وهي لا تضير كتاباً يقع فيما يقرب من ثلاثمائة صفحة. "وكفى المرءَ نُبلاً أنْ تُعَدَّ معايبه". وتصويبي لها هو اجتهادات في اللّغة.. موجّهةٌ إلى الكُتّاب وإلى أبنائنا الشّباب ليتحَرّوا عندما يكتبون ويتجنّبوا الخطأ ما أمكن، عن طريق جَعْلِ أحد المعاجم "الرئيسيّة" — بإثبات ياء النّسبة — رفيق الكاتب والشّادي في الكتابة. والله في الموفق.

الموضع الرابع
الفُصحى والحضارةُ وجريدةُ الرّأي

سَعِدتُ بقرار جريدة الرّأي السائرة، بأنّها لن تقبل إعلانات إلا باللّغة الفُصحى أو الفصيحة. وهذه خُطوة جريئة وموفّقة، تدلّ على انتماء القائمين عليها إلى لغتهم وحضارتهم التي امتدّت ستّةَ عَشَرَ قرناً ولا تزال تعطي ثماراً يانعة، ولا سيّما في مجال اللّغة.

وهذه المقالة بمثابة شكر جزيل للقائمين على جريدة الرّأي، ودعم لهذا الموقف الشُّجاع، ومساهمةٍ في إبراز ما في الفُصحى من مقوّمات الحياة التي تجعلها قادرةً على مواكبة الحضارة، فهي لغة الاشتقاق الذي لا ينضَبُ مَعينُهُ على الدهر.. لقد اشتَقَّ العربُ من كُلِّ الكلمات، مصادر وجواهر وأفعالاً وأسماءً جامدةً. كما عرفنا تَوضيح ذلك في القسم الثالث، من هذا الكتاب.

لقد ضمتني جلسةٌ مع مجموعة من أصحاب الرّأي، وجرى الحديث حول الفُصحى والعاميّات ومدى استيعاب الفُصحى للحضارة المعاصرة. فذكر أحدُهُم أن اللّغة العربيّة صعبة، بدليل أن المُتخصِّصين فيها يلحَنونُ، على حينَ يذهب الطلاّب من عندنا إلى الغرب، ولا يقضون إلاّ بضع سنوات ثم يعودون يتكلّمون اللّغة الإنجليزية من دون أن يلْحنوا. فأجابه الدكتور محمود السمرة بأن ما تقوله ليس دقيقاً؛ فالذين يعودون من الغرب يلحنون كثيراً، ولكن من يقوِّمُ لحنهم؟ وأنا أقول: إنّ المتكلّم في العربيّة عندنا يجد من يقوّمُهُ من كبار المُتَخصِّصين، ولكن المتكلم باللّغة الإنجليزية لا يجد مثل هؤلاء ليكشفوا عُوّارَهُ!

وأقول: الحقيقةُ أنّ الصعوبة في اللّغة العربيّة لا تزيد على الصعوبة في اللّغة الإنجليزية، وإن كانت لغتنا مُعْربةً واللّغة الإنجليزية غير مُعربة. والإعراب – **كما أرى – يُسهِّل اللّغة ولا يُصعِّبها**، لأن التركيب في اللّغة المُعْرَبَةِ بسيط – أما التركيب في اللّغة غير معربة فمُعقّدٌ. لأنها تَحُلُّ المشكلة في المعنى (التي تحلُّها اللّغة المعربة بالحركات) – تَحُلُّها بإضافة كلمات إلى التركيب، فالمضارع الكامل المستمرّ في اللّغة الإنجليزيّة، مثلاً، تؤديه إضافة كلمة (– hasأو have-)، ثم كلمة (been)، وليس من شيء من

هذه الإضافات في اللّغة العربيّة، فكلُّ كلمة في اللّغة العربيّة، في التركيب لها معناها. نقول:

I have been working for three years

ومعناها: أنا مستمرّ في العمل لثلاث سنوات، فأين معنى (Have)، ومعنى (Been) سوى الدلالة على الزمن وأنّ الفعل قد تمّ؟

وهذا.. يَرُدُّ على الذي قال: إنّ هناك لغاتٍ قديمةً كانت مُعْربةً، ولكنّها مع الزّمن فقدت الإعراب، راوياً ذلك عن أحد المحاضرين واللّغة العربيّة ستنتهي إلى هذه النهاية. روى ذلك أحد أصحاب الرّأي مؤمناً بهذا القول. ويَرُدُّ عليه.. أنّ الإعراب ميزةٌ للّغة كما ذكرنا آنفاً. وأنّ هذا المُحاضر لا يُكنّ ولاءاً للقرآن الكريم ولا القوميّة العربيّة، وإلاّ.. لما رأى أنّ العربيّة المُعْربة؛ لغةَ القرآن والعرب كافّةً، ستؤول إلى مآل اللُّغات المُنقرضة. وكيف تنقرض والله تعالى يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝﴾ [الحجر: ٩]، ولا رَيْبَ أنّ حفظ الذكر هو حفظ للغة العربيّة حيّة معربة وهو إحدى وسائل حفظ القرآن الكريم. ولا ريبَ أنّ كتابة العلماء المؤمنين في كُلِّ عصر، في هذه اللّغة العربيّة، ودفاعَهم المشَرِّفَ عنها.. هما من أسباب بقائها على العصور. وهم يهتمّون بها بالدرجة الأُولى، لأنها لغة القرآن، **أوّلاً**، والحديث النبوي، **ثانياً**، واللّغة القوميّة **ثالثاً**.

وعندما رددْت على هذا الرجل، وقلتُ له: وماذا نفعل بالقرآن الكريم بعد تَخَلّي الفصيحةَ عن الإعراب؟ .. قال: القرآن يبقى على إعرابه وعلى خطّه (رسمه) لا يمسّه أحد بسوء.

وهذا **قَوْلُ من غُسِلَ دماغُهُ، في معاهد الغرب**، من عقيدة الإيمان بالقرآن والولاء له. لأنّ المسلمين لا يريدون القرآن كتاباً يُحفظُ داخل جلدة فاخرة، ويُعرضُ في أفخم المعارض؛ لا يريدونه كالإلياذة والأودسّة، بعد أن انقرضت اللّغة اليونانية المعربة التي كُتبتا بها.. لا يريدونه بلغة منقرضة يتخصّص فيها من كُلِّ مئةِ ألفِ شخص.. شخصٌ واحدٌ، كما يجري التخصّص في اليونانية القديمة الآن. إنّهم يريدون القرآن أنْ يظلَّ كتاباً بلغة حيّة، يسمعه العاميُّ من المذياع أو التلفاز أو القارىء في المسجد، أو من أيِّ وسيلة أُخرى موجودة الآن – كالانترنت – أو يأتي بها المستقبل.. فيتأثّر به ويخشع له

ويزداد إيماناً. لأنّ اللّغة العربيّة مفهومة، في البلاد العربيّة، حتى لدى العوامّ. أما ترى أنّ نشرةَ الأخبار تُذاع باللّغة العربيّة، في أيّ قطر عربيّ، فيفهما العربيُّ في أيّ قطر آخرَ من المحيط إلى الخليج؟ وكذلك يسمعه أو يقرأه المُثقّف ثقافة متوسطة، فيفهم كثيراً من معانيه ويتأثّر ويخشع ويزداد إيماناً. ويسمعُهُ أو يقرأُهُ العالم فيتأثر ويخشع ويزداد إيماناً، ويضيف إلى ذلك قدرةً على تفسيره وتوضيحه للنّاس، والكشفِ عن بعض جوانب الإعجاز فيه، لغويّةً وفكريّةً.

إنّ القرآنَ كتابُ حياةٍ، كتابُ الإنسانية كافّةً: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ۝﴾ [الأنعام: ٩٠]. ولذلك.. يجب أن يظلَّ بلغة حيّة يقرأها مئات الملايين من العرب خاصّةً، ومن المسلمين عامّةً، وتَسْهُلُ ترجمة معانيه إلى مليارات البشر. بل هو مكتوب بأعظم اللّغات حياةً، فلا يُعقَلُ أنْ يُنزّلَ كتابٌ معجزٌ بلغة غير قادرة على حملِ هذا الإعجاز وتقديمه للنّاس كافةً. وهي لا تزال لغةً قويةً على الرّغم من ضعف أهلها، في هذا الزمان وهذا... ليس للغة غير العربية التي " ألهمها" الله تعالى العرب، — إلهاماً.

قال حافظ إبراهيم على لسان الفُصحى:

وَسِعْتُ كتابَ اللهِ، لفظاً وغايةً	وما ضِقْتُ عن آيٍ بهِ وَعِظاتِ
فكيف أضيقُ اليومَ عن وصفِ آلةٍ	وتنسيقِ أسماءٍ لمخترعاتِ

وإلى جانب القرآن الكريم والحديث النّبويّ الشريف، اللذين كُتِبا باللّغة العربيّة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝﴾ [يوسف: ٢] أيْ: مُنَزّلٌ باللّغة العربيّة — فإنّ التّراث العظيم، في جُلّهِ، قد كُتب باللّغة العربيّة. **وتراثُ الأمة جزء من كيانها.** ولذلك.. فإنّ الّذي عصمنا من أنْ نذوبَ في المستعمر وفي الحضارة الغربيّة الانحلاليّة الغازية.. إنما هو القرآن الكريم والحديثُ النبويُّ الشريف، ثم التّراثُ العظيم الذي يمتدّ على مدى سِتَّةَ عَشَرَ قرناً. بل هذه المصادر الثلاثة.. هي التي ستحمينا، عرباً ومسلمين، من الانضواء تحت عقيدة العولمة الحديثة والذوبان فيها. إنّ العولمة هي عقيدة الغرب (أيديولوجيتّهُ) المنحرفة المنحلّة.. مُحَوّلةً إلى سلوك ثقافيٍّ وسياسيٍّ واقتصاديٍّ واجتماعيٍّ، أو مُنبثّةً في هذه الأنواع الأربعة.. غازيةً الشعوبَ والقومياتِ والعقائدَ الأُخرى، محاولة إزاحتها والحلول محلّها.

لعلّك ترى عِظَم الخسارة التي يُمْنى بها العرب خاصةً والمسلمون عامّةً، لو أُزيحت اللّغة العربيّة الفصيحة من الطريق. إنهم سيخسرون هذا التُّراث العظيم الصالح للحياة في معظمه الذي يحفظ عليهم هُويتهم وكيانهم ومقوّمات وجودهم، لأنه مُنبثق عن المصدرين الرئيسيّين في الدين الإسلامي؛ القرآنِ الكريمِ والحديثِ النبويّ الشريفِ.

وقد أثار آخرُ أنّ العامية ستحلُّ محلّ الفُصحى مع الأيام، فنقول له: إنّ في العاميّة، سواءٌ أكانت هذه أم تلك، من الصعوبة مثلَ ما في اللّغة الفُصحى. لأنَّ العاميةَ، إذا أُريد لها أنْ تكون لغة المعارفِ والعلوم، إضافةً إلى كونها لغةَ المجتمع، لابُدّ من أن "تُثبّتَ" بحيثُ يفهم الجيلُ اللّاحق ما ينتجه الجيل السّابق. وبغير التثبيت سيصبح لكُلِّ جيلٍ لغته العامية، لأنّ العامية لا تُثبُت على حال، لأنها غير مُقنّنَةٌ بقواعدَ تضبطها، أما ترى أنّ المُسنّين الذين جاوزا الثّمانين يتحدّثون بلهجةٍ تتفاوت كثيراً عن لهجة أبناء العشرين؟ وتثبيت اللهجة يعني وضعَ معاجم لها تحفظ كلماتها وكتبَ نحوٍ تحفظ أنماطَ التراكيب فيها، وكتبَ صرفٍ تحفظ تقليبات بِنْيَةِ الكلمة – فيكون في تعلم هذه العلوم من الصعوبة ما نجده اليوم في معاجم الفُصحى ونحوها وصرفها! أما كانت الفُصحى في الجاهلية لهجةً (أو لهجات متقاربة) يتكلّمها النّاس بلا صعوبة، ولكن عندما اختلط الأجانب بالعرب، واحتاجوا إلى تدوين العلوم، وجدوا أنَّ هذه اللهجة يطرأ عليها تغيير أيْ: يقع اللّحن فيها من بعض المتكلّمين فرأى العلماء أنّها إذا أُريد لها أنْ تَثْبُتَ، فتصبحَ لغة العلومِ والمعارف التي تنتقل من جيل إلى جيل، دون تغيير يُذكَرُ، وتحفظ القرآن كما نزل من عند ربِّه.. فلا بدّ من وضع معاجمَ لها، ومن وضع كتب نحو وصرف تحفظ أنماطَ التّراكيب من التغيير، وتقليبات بنية الكلمة من الانحراف. وهكذا.. كان طبعاً.. هذا لا يعني أن العربية الآن ذاتُ صعوبة عالية، ولكننا أشرنا للصعوبة– قبلُ – لكي نُقَرر أن الصعوبة التي نجدها في تعلم الفصحى – الآن– سنجد مثله في العامية لو عتمدت – لغةً.

ومما يُستَدَلُّ به على ذلك أنّ اللّهجات التي انبثقت عن اليونانيّة، كالإنجليزيّة، والفرنسيّة، عندما أصبحت لغاتٍ مستقلةً، وصارت لغات المعارف والعلوم.. وُضِعَ لها معاجم، ووضع لها كتب نحو وصرف.. وأصبح تعلّمها لا يقلُّ صعوبة عن تعلُّم اليونانية نفسها، وخاصة لغير أبنائها.

وإلى جانب ذلك.. فإنّ اللّهجة، أيَّ لهجة، أقلُّ مفردات قلةً واضحة، من اللّغة العربيّة الفُصحى. ففي العربيّة اثنتا عَشْرَ ألفَ مادةٍ (١٢) ألفاً – كما ورد في مُعجم لسان العرب

– فإذا اشتُقّ من كل مادة عَشْرُ مفرداتٍ فقط كان في الفُصحى مئةُ ألفٍ وعشرون ألفَ مفردةٍ، (١٢٠) ألفاً على حين لا تحتوي العاميّةُ أكثرَ من ثلاثين ألفَ مُفردةٍ، في أحسن حالاتها، لأنها ليست لغة الفكر والعلوم لتنموَ مع الأيّام، وإنّما هي لغة الحاجات اليوميّة المحدودة. ولا شكّ أن كثرة المُفردات من الجوانب التي يُقاس بها غنى اللّغة، لأن كثرة المفردات تساعد على استيعاب الأسماء المستجدة في الحضارة، سواءٌ في العلوم أو المخترعات وعلى استيعاب الأفكار الجديدة. وعلى هذا.. يتّضحُ أننا سننعزل عن العالم، لو أُصيب العالم العربي بالدُّوار والعقم وأحلَّ اللهجة محلّ اللّغة الفُصحى، بل لو أحلّ "اللهجات" محلّ الفُصحى.

والحقيقة أنَّ العربيّة الفُصحى بخير، وأنّها سائرة نحو التقدُّم والنُّموّ، على خلاف ما يراه المُتشائمون، فنحن نسمعها من المذياع والتلفاز، في نشرات الأخبار، وفي بعض المُسلسلات، ويفهمها – منهما – معظم فئات الشعوب العربيّة. صحيحٌ أن العاميّةَ مسموعةٌ في هذين الجهازين، ولكنَّ وجودها فيهما لا يُلغي الفُصحى، كما أنّ سماعَ الإنجليزيّة منهما لا يلغي الفُصحى. كُلٌّ لها وجودها الذي لا يلغي وجود الأخرى. وهذا لا يعني أننا لا ندعو بشدة إلى تقليص العاميّة في الإذاعة والتلفاز، وإحلال الفُصحى محلّها. نحن ندعو إلى ذلك بإلحاح ولكن – يكفي تقليص ساعات العامية، فليس من لغة ليس لها فصحى، وعامية " يُفَضّل أن تكون قريبة من الفصحى وهذا يكون مع نموّ التعليم.

ثم نحن نقرأ الفُصحى في الجرائد والمجلات، كلَّ يوم، وفي الكتب والمطبوعات الأُخرى، مما يُسَهِّلُ سيرورتَها بين النّاس، ويُساعد على انتشارها وعلى نموّها نمواً من الداخل بالدرجة الأولي.

ثم نحن نسمع ما يسمّى اللّغة الثّالثة، في المُحاضرات والنّدوات والمدارس والجامعات.. الخ واللّغة الثّالثة هذه.. هي مُحاولة للاقتراب من الفُصحى في المفردات والتراكيب (من – الفُصحى التي تُقرأ في الصُّحف والمجلات،) وللابتعاد عن العاميّة، شيئاً فشيئاً، حتى يأتي يومٍ تحوي فيه هذه اللغة الثلاثة معظم مُفردات الفُصحى وتراكيبها، وتُصبح وسيلة لتسهيل تعلُّم الفُصحى على العربيّ الذي تقترب لهجتة (اللّغة الثّالثة) من الفُصحى اقتراباً شديداً وهذه اللغة الثالثة.. تُضْحي هي العامية– اللصيقة بالفصحى.

إنّ عامّةَ النّاس لا يفرّقون بين الفُصحى- اليوميّة – في التلفاز والمذياع والجريدة والكتاب التي هي لغة العرب كافّةً، إذْ يفهمها كلُّ العرب، وبين الفُصحى الأدبيّة التي

تضمُّ الشعر والمقالة الأدبيّة والقصة والرّواية والخاطرة الأدبيّة. فهذا مستوىً من اللّغة مكثّف، فيه المجاز والتألق في العبارة.. مما يجعل فهمه والاستمتاع به يتطلب جُهداً خاصاً وثقافةً عاليةً. وهذا المستوى يقرأه ويُعْنى به المُثّقفون والعلماءُ، وليس عامةُ الناس.

إنّ اللّغة الفُصحى سائرةٌ منتشرةٌ، وهي التي تحفظ لنا قرآننا حيّاً، دستوراً لحياتنا، وتحفظ لنا عروبتنا المُتجذّرة في التاريخ. وتحفظ كذلك الحديث النبويّ الشريف، وتحفظ لنا صِلتنا حيّةً قويةً، بتراثنا العظيم الصالح للحياة في معظمه. وهي القادرة – إذا أخلص أبناؤها لها – على استيعاب الحضارة المعاصرة، كما استوعبت حضارةَ اليونان في القديم، عندما كان العرب المسلمون سادةَ المعمورة، والله تعالى المستعان.

الموضوع الخامس

الألفاظُ الاصطلاحيةُ الشرعيةُ في القرآن الكريم، وتطوّرها الدلاليُّ(*)

صدر قبل شهور كتاب قيِّم لصديقي الأستاذ (عودة خليل أبو عودة)، عنوانه: (التطوّرُ الدلاليّ بين لغةِ الشّعرِ الجاهليّ ولغةِ القرآنِ الكريم) وقد عشت مع هذا الكتاب أوقاتاً ممتعة، لأنه يعرض لموضوع لم يَقُلِ الذين كتبوا فيه تفصيلاً تقف عنده النفس، وقد شَفى غليلها. فقد عرض القدامى لأطراف من هذا الموضوع ولكن لم يستوفوا. وأهم كتاب قديم عرض للتطور في الدلالة في القرآن الكريم والحديث الشريف – مُقَارنةً – بالشعر الجاهلي، هو كتاب: (الزينةُ في الكلماتِ الإسلاميةِ العربيّةِ) لمؤلفه أبي حاتم الرّازي المتوفى سنة (٣٢٢) هجرية، غير أن كتاب الأستاذ عودة أوضحُ منهجاً وأكثر استيعاباً لمادة الموضوع، مع إضافة منهجية قيّمة؛ فقد قسّم المصطلحات القرآنية إلى مجموعات، تَبَعاً لموضوعها فمنها مصطلحات في العقيدة، وأخرى في أركان الإسلام، وثالثة في الجهاد والسلوك.. الخ.

وقد صبر الكاتب وثابر على تتبُّع ما ورد في المعاجم والشعر الجاهلي فنظر في حواليْ مئتين وخمسين كلمة (٢٥٠)؛ كلٌّ منها كانت اصطلاحاً في الإسلام. وقد عرض – بذلك – معلومات كثيرة شائقة حول كثير من الألفاظ، ثم اختار منها المعنى اللغوي الذي يصلها بمعناها الاصطلاحي الإسلامي، أو الذي اشتُقَّ منه المعنى الإسلامي، طبقاً لأحد أساليب تطور الدلالة؛ هذه الأساليب (أو القوانين) الموصوفة، في كتب فقه اللّغة، وكانت نظرته نافذة في معظم الحالات، بحيث اهتدى إلى السياق المعنوي واللغوي الجاهلي الذي تفرّع منه المعنى الاصطلاحي الإسلامي هذا هو الأصل الملحوظ في عمل صاحب الكتاب.

بَيْدَ أني وقفت عند "الصلة" المعنوية واللغوية، التي اختارها في بعض الألفاظ، فلم أَجِدْ مُجْمَلَ اجتهاد الكاتب مُقنعاً، وآخذ، على ذلك، مثلاً واحداً؛ كلمة من أشهر الاصطلاحات الإسلامية، وأهمها في العقيدة الإسلامية، وهي كلمة "الصلاة". إن

(*) كتبت سنة – ١٩٩٢م.

الكاتب يعرض ما جاء عنها في كتب اللّغة وفي الشعر الجاهلي، وفي كتاب من المؤلفات الحديثة كذلك، على مدى صفحتين ونصف صفحة، ثم يخلص إلى القول بأن الصلاة لم تكن بمعنى صَلَوِيِّ الفرس أو الفرس الذي يأتي، في السباق، تالياً للجواد السابق، وأنها "لم تؤخذ من الصلة أو اللزوم، كما ذكرت بعض الآراء، على الرغم من الصلة القريبة بين الصلاة – بمفهومها الديني – وبين الصلة واللزوم. وربما تأثر أصحاب هذا الرأي بهيئة الصلاة ومعناها في الإسلام، وقرنوا بينها وبين كلمة "صلة" برغم (الفرق) اللغوي بين صَلَّىَ ووصل. ثم يقول: "وأرجح أن الصلاة في معناها الإسلامي، **مأخوذة من معنى الدعاء والطلب** وذلك للصلة القريبة في المعنى بين الدعاء والطلب. وهذا يدل على أن القرآن الكريم استعمل ما استعمله العرب في شعرهم، إلا أن القرآن خصّص الصلاة بالهيئة المعروفة، فأصبحت هي الركن الشّهير من أركان الإسلام. وأشد ما يدعم هذا الرّأي أن القرآن الكريم استعمل لفظ "صلي" بمعنى الدعاء" ص١٨٢، ١٨٣.

أقول : واضح أن الكاتب رجّح أن معنى الصلاة، في مفهومها الإسلامي، مأخوذ من **معنى الدعاء والطلب** ولكنه بهذا الترجيح **(على صحّته)** يقف عند الفروع ولا يغوص نحو الأصول. فمن المعروف أن الدعاء والطلب من معاني كلمة (الصلاة)، ولكن.. من أين جاء هذا المعنى لكلمة (الصلاة)؟ لكي نعرف ذلك.. لابد من البحث عن الأصل اللغوي الذي اشتقت منه الكلمة، لأنه الطريق الوحيدة التي نجد على جانبيها سلسلة المعاني التي توصّلنا إلى معنى الدعاء في الصلاة، ثم إلى معنى هذه العبادة الإسلامية المعروفة – فيها- .

من حيثُ المعنى.. فإني أرى أن المعنى الأول هو "الوصل" بمعنى مطلق العلاقة أو الرابطة، ثم خُصِّصَ إلى معنى العلاقة الطيبة، ثم خُصِّصَ، مرة أخرى، إلى معنى الكلام، في العلاقة بين اثنين أو فريقين. ثم خُصص الكلام الطيب بالدعاء الطيب، لأن الدعاء الطيب نوع من أنواع العلاقة الطيبة، ثم خصّص، مرة أخرى ثالثة، فأصبح نوعاً خاصاً من الدعاء، وهو هذا الدعاء الموجّه إلى الله تعالى. المفتتح بالتكبير، المختتم بالتسليم، الذي يضم بينهما قراءة من القرآن، وعبارات معلومة، وحركات معروفة وهذا الدعاء الموجّه إلى الله تعالى هو (الصلاة)، أقول هذا.. لأن تطور اللّغة، في المعنى، من العامّ إلى الخاصّ ثم إلى الأخصّ، أوسع من تطورها في الاتجاه المعاكس. وهذا..

يتفق والتطورَ، العلميَّ والعقليَّ، الذي يسير في اتجاه التدقيق، والتخصيص، والتفصيل، وإن كان التطور من الخاص إلى العام.. يقع، أحياناً.

أما من حيث اللفظ.. فإني أرى الأصل اللغوي للفظ "**الصلاة**" **هو "الوصل"**، لأن الصلاة هي كما سلف، نوع من أنواع الوصل أو البلوغ. ولكنه لم يُشْتَقّ من الفعل "**وصل**"، في الترتيب الذي وردت عليه حروفه إنما اشتق من مادته عن طريق ما سمّاه الصرفيون "الاشتقاق الكبير". والاشتقاق الكبير هذا.. يقوم على أساس ارتباطٍ مُطلقٍ غيرِ مُقيّدٍ بترتيب، بين مجموعات **ثلاثية صوتية** ترجع تقاليبها الستّة، وما يتصرف من كل منها. **إلى مدلول واحد** عام مهما تغاير ترتيبها الصوتي. من ذلك – مثلاً – المادة ذات الحروف الثلاثة (س م ل). هذه المادة قلبها العبقري ابنُ جني في كتابه "**الخصائص**"، فرأي أنها تتفرع إلى الأصول الفعلية التالية: (سَمَلَ ثم سلم ثم ملس ثم لمس). وهذه تقاليب مستعملة. ثم يأتي منها تقليبان مُهملان هما (مَسَلَ ثم لَسَمَ). والمعنى العام لهذه التقاليب هو (الإِصْحابُ والملاينةُ) – الخصائص ٥٢٩/١.

وإن (**وصل**).. على المبدأ نفسه، يأتي منها بضعة تقاليب هي (وَصَلَ ثم صال، وصَوَلَ ثم وَلَصَ ثم لصا، وأصلها: لصَوَ، ثم لاصَ، وأصلها: لوَصَ ثم صلا وأصلها: صَلَوَ) والمعنى العام لهذه المادة، في تقاليبها الستّة، هو: **الارتباط والبلوغ**.

والفعلُ (**وصل**) هو أصل المادة، ومعنى وصل الشيء بالشيء: ربطه به أو لأَمَهُ به، ومعنى صال على قِرْنه: سطا، وقاتل، والسطو والمقاتلة فيهما بلوغ وارتباط بين طرفي المفاعلة ومعنى لصا إليه: انضم إليه، والانضمام بلوغ وارتباط. ومعنى لاصَ: لَمَحَ من خلل الباب ونحوه، وإذا لمحت الشيء فقد بلغه بصرُكَ.

ومعنى (**صلا**): **هو البلوغ والارتباط**، على نحو ما، يقول ابن منظور في معجم (لسان العرب)، في مادة (**صلا**): "وصلوْتَ الظَّهْرَ: ضربت صَلاهُ، أو أصبته بشيء، سهم أو غيره.." **والصلا (هو موضع العظام الأخير في الظهر أو هو أحد العظمتين اللتين تكتنفان الذنب من الناقة وغيرها)** وضَرْبُ (الصلا) وإصابته فيه بلوغ له أو اتصال به.

ولكي نصل مادة هذا الفعل بالاتصال، على النحو الذي انتهى إليه في الصلاة الإسلامية المعروفة.. نرى أنه مرَّ **بعدة تطورات معنوية** حتى انتهى **من الاتصال بالضرب إلى الاتصال بوسائلَ أخرى غير الضرب**، وبعيدة عنه **وسائلَ روحيةٍ ومادية. بل قد يكون الذي حدث في التطور أنه لُمِحَتْ علاقة الاتصال دون غيرها**، ثم أُخِذَتْ – دَفْعةً واحدةً – من الاتصال بالضرب إلى الاتصال بالدعاء والاسترحام والثناء. على أن ذلك

كله.. لم يَجْرِ على الفِعْل الثلاثي وإنما جرى على **مضعّفه الرباعي**، أي: إن هذه المعاني اللاحقة قد ارتبطت بالفعل (صَلّى) لا بالفعل (صلا). ثم خصص هذا الفعل عند نزول الإسلام، بمعناه الاصطلاحي المعروف، ولا سيما في حالة الإطلاق وليست الصلاة سوى (دعاءٍ، واسترحام، وثناء).

ومما يؤكد أن (الصلاة) مشتقة من الفعل (صَلّى)، وهو مُضَعّفُ الفعلِ الثلاثي (صَلا، وأَصْلُهُ صَلَوَ).. أن صاحب (لسان العرب).. يورد لفظ (صلا) ثم يورد، بعده، مباشرة قوله: " **الصلاةُ: الركوع والسجود**". وهذا يعني أن هذا العالِمَ الكبير يرى أن الصلاة مشتقة من مادة الفعل (صلا)، وإلا.. لما أوردها في شرحه لمعنى لفظة (صلا).

خلاصة ذلك.. أن لفظ (الصلاة) مُشتق من مادة (وصل) في أحد تقاليبها وهو (صلا)، عن طريق قاعدة (الاشتقاق الكبير)، بعد تضعيف هذه الصيغة إلى رُباعيِّها (صلّى). والصلاة هي اسم المصدر، أمّا المصدر فهو "تصلية" وهو مهمل مع هذه المادة، غير أن صورته استعملت مع معنى آخر لمادة (صلّى)، كما ورد في القرآن الكريم: ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۝﴾ [الواقعة: ٩٤] أي: إحراق بالنار.

على هذا.. فإنّا نجد صلة ما بين لفظ "المُصَلّي" وهو الحصان الذي يأتي تالياً "للمجلى؛ والمجلّي هو الحصان السابق) وبين لفظ **الصلاة**". لأن الحصان المصلّي يكاد يتصل بصلا سابقة المُجَلّي أي: يكاد يبلغه. لأن اللفظتين: (الحصانَ المصلّيَ، والصلاةَ) **مُشتقان من أحد تقاليب أصل لغوي واحد**.. يكون بين أفراده جميعها.. معنىً عام مشترك، ثم يختص كل واحد منها بخصوصية في المعنى، تميّزه من غيره منها. فكيف إذا كان اللّفظان يعودان إلى أحد التقاليب عَيْنِهِ؟ إن الفرق لن يكون إلا من جهة اختلاف الصيغة ومن جهة تطور الدلالة، في تخصيصها بمعنى محدد والشخص المصلّي (الذي يقيم الصلاة) هو شبيه بالحصان المصلّي = الحصانُ المصلّي يكان يتصل بصلا سابقة. والشخص المصلّي يحاول أن يتصل – روحياً – بالله تعالى.

ولكن.. ليس من علاقة – في الاشتقاق أو المعنى – بين الصلاة وبين الفعل (صَلى) الذي آخرُهُ ألف مقصورة، وما يشتق منه من صيغ، لأنه بمعنى:عَرَضَهُ على النار. ولا بينهما وبين الفعل (صَلِيَ) الذي آخرة ياء، وما يشتق منه، لأنه بمعنى: تَدَفّأَ.

ويجدر أن نذكر.. أن الأصل أن تُخَصَّص الكلمةُ، في الفترة الواحدة، لمعنىً واحد، لأن دقة الفكر تقتضي ذلك، ولكن يحدث أن يكون للكلمة الواحدة، في الفترة الواحدة، أكثر من معنى فيتعايش المعنيان أو الثلاثة، إلى حين، **أولاً** – لأن

المعنيين يتصارعان – وقتاً – حتى يتغلب أحدهما على الآخر، وغالباً ما يتغلب الجديد، وثانياً – لأن إيجاد لفظ جديد للمعنى الجديد يكون كالمتعذر، أحياناً. وثالثاً – لأن الاستسهال يقود إلى الاكتفاء باللفظ القديم، وفي أحيان قليلة.

وبعدُ:

فإن كتاب (التطوّر الدّلالي – بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم) من الكتب الجادة التي تستحق التنويه لأن مؤلفه بذل جُهوداً كبيرة في جمع مادته، وفي تصنيفها، وفي مناقشتها، ليخلص من ذلك إلى ما يراه أدنى إلى الصواب.

ثم.. لأن الكاتب قد صنّف الألفاظ في مجموعات، حسب المعاني.. فإنّ كتابه يُعَدُّ "معجمَ مَعانٍ" مُتخصصاً في الألفاظ الاصطلاحية في القرآن الكريم.

بَيْدَ أني أرى العنوان ليس دقيقاً، لأنه يُشعر بأن ها هنا مقارنةً بين تطوّر الدلالة في الشعر الجاهلي، وبين تطورها في القرآن الكريم، والأمر ليس كذلك. لأن الكتاب يعرض لألفاظ كان لها معنىً في الشعر الجاهلي، ثم ..جاء لها معنىً آخرُ في الكتاب العزيز، أقول: وهذا التطور ليس تطوّراً مفتوحاً، وإنما هو تكَوُّنٌ اصطلاحي/ شرعي، وليس تطوراً للمعنى اللغويّ، من معنىً إلى معنىً. فكان من واجب العنوان أن يتضمن إشارة إلى هذه الخصوصية الشرعية في التطوّر. والله تعالى يتولى العاملين لوجهه الكريم.

وبهذا.. فقيمة هذا الكتاب الأولى تأتي من أنه "إحصاء" وافٍ للكلمات التي استعملها القرآن الكريم اصطلاحياً، فأحدث لها معنىً شرعياً يُفارق معناها اللغوي الذي عُرف لها في الشعر الجاهلي بعض مُفارقة. ثم.. تلا هذه القيمة قيم أخرى، قد أشرنا إلى بعضها.

الموضوع السادس

أ – حقّاً – أنّ القرآنَ الكريمَ.. أُنزِلَ باللغةِ العربيةِ؟

- قرأت كثيراً مما قيل عن أن القرآن الكريم نزل باللغة العربية. ومع طُول تأمُّلي وتدبّري للأمر – وجدتُ- مع كل ما قيل- أنه لا يزال في نفسي شيء من "حتى"، أي **– لا يزال في نفسي شيء من هذا القول**: أُوَضِّحُهُ فيما يأتي:، فالقول بالتطور الدلالي بين الشعر، والقرآن الكريم.. غير مقبول عندي، كما جاء في عنوان كتاب لزميلنا الدكتور عودة أبو عودة لأن التطور من عصر إلى عصر، أو من موضوع إلى موضوع، أو من شاعر (أو أديب، على العموم) إلى شاعر، بينهما فترة زمنيّة معتبرة – التطور هذا.. من حيثُ دلالةُ الألفاظ.. شيء طبيعي في مثل ما ذكرتُ.. أمّا أن تُذْكَرَ كلمةُ "التطوّر" بين الشعر الجاهلي –مثلاً - ، وبين القرآن الكريم، **فتصورٌ خاطئ، ولفظٌ ومعناهُ.. خاطئان.**

- **ذلك.. لأن القرآن لم تتطور لُغتُه من لغة الشعر الجاهلي، أو من اللغة العربية قبل نزول الإسلام. وإنما القرآن، لُغتُهُ مُستقلة عن لغة الشعر الجاهلي**، وعن اللغة العربية. وإذنْ.. دلالاتُهُ ليست تطوّراً من دلالات الشعر الجاهلي، إنما هي أُنزلت، من اللوح المحفوظ – حاملةً معانيَها اللغوية والشرعية، **ولا علاقة لها بمعاني الشعر الجاهلي وألفاظ الشعر الجاهلي.**

- ولكنْ.. كيف ذلك؟
- **الجوابُ.. كما يأتي:-**

١- **معلوم أنه وَقَعَ خلاف خطير، في التاريخ**، حول القرآن الكريم، بين المعتزلة (وهم إحدى فِرَقِ السُّنّة) وبين الأشاعرة – وهم أهل السُّنّة، حول مسألة **(خَلْقِ القرآن)- المعتزلةِ الذين قدّموا العقل على النقل-** قالوا: القرآن.. مخلوق. أمّا أهل السُّنّة، فقالوا: القرآن كلام الله تعالى، وكلام الله.. قديم (ولا يصح أن يُعَدَّ مخلوقاً). حتى وقعت **مِحْنةُ (خَلْقِ القرآن)** في زَمَنِ حاكم المسلمين، آنَ ذاك- المأمون- فقد امتَحَنَ المعتزلةُ الذين أدناهم المأمو، إذْ اعتنق مذهبهم – عشرات العلماء. وكلهم يقول – كما يريد

المعتزلة- القرآن مخلوق، لكي ينجوا من العقاب، ومن قطع الأرزاق والأسباب- !
حاشا نفراً قليلين، منهم الإمام أحمد [1] ابن حنبل- رضي الله عنه- وشيخُهُ الذي مات في السجن- يرحمه الله.

- والحقُّ.. أن القرآنَ كلامُ اللهِ، وكلام الله قديم، لا أوّلَ لهُ، لأنّ كلام الله تعالى.. صفةٌ من صفاته، ولا فرْقَ – عندي- بين الذات والصفات، فصفات الله تعالى قديمة أزلية. وليس هنا سياق التفصيل - فيها.

٢- وكلامُ الله تعالى.. ليس ألفاظاً متفرقةً – كالألفاظ في المعجم- يُضَمُّ بعضُها إلى بعض في تعابير وتراكيب- لكي تعبّر عن مَعانٍ وأفكار- كما يفعل البشر، بشكل عامّ. بل – كلام الله تعالى هو معانٍ مُلتحمةٌ بألفاظها، فلم تَكُنْ المعاني، أولاً، ثم عُبِّرَ عنها بألفاظ، وليست ألفاظاً متناثرة، ضُمّ بعضها إلى بعض، عندما جدّت المعاني لتعبِّر عنها. وإنما المعاني والألفاظ، سبيكة واحدة لا انفصامَ لها.

- وإذن.. القرآن الكريم شيء، واللغة العربية شيء آخر. القرآن الكريم.. قديم، أمّا اللغة العربية فحادثة على الأرض – ألهمها الله تعالى العربَ إلهاماً- كما وضحنا ذلك في ثلاثة بحوث نشرت –بأدلتها- في مجلة (هدي الإسلام –الأعداد –٥ ، ٦ ، ٧) لسنة- ٢٠٠٥م. فكيف يكون القديم مأخوذاً من الحادث؟ هذا.. أمر يتناقض مع "بنْيَة" العقل – أصلاً.

- وهنا.. يأتي تساؤل: أليست ألفاظ القرآن موجودةٌ مثلُها في اللغة العربية؟

- الجوابُ.. أجلْ-

ولكنّ وجود مثل ألفاظ القرآن في ألفاظ العربية.. لا يعني أكثرَ من وجود "مُماثلة"، فإذا قال اللهُ تعالى – مثلاً- في أوّل خمس آيات، نزلت على قلب رسولنا العظيم ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ ﴾ (العلق- ١) فهذه الكلمات الستُّ.. موجودٌ مثلُها في ألفاظ العربية، لكنه وجود مماثلة، وليس وجود "استعانة" ، لا القرآن استعمال بألفاظ العربية، ولا العربية استعانت بألفاظ القرآن، - إلا بعد نزوله. فمن غير المعقول – مثلاً- أن تكون الألفاظ التي استعملها الجاحظ ، قد أخذها من ألفاظ طه حسين،

والجاحظ مضى إلى رحمة ربّه قبل أن يبدأ طه حسين الكتابة بحواليْ عَشَرَةِ قرون. وإذن، العلاقة بين ألفاظ الجاحظ، وألفاظ طه، عندما يكون النظر إلى ألْفاظ الجاحظ، هو مُجرّد مماثلة ليس أكثر. وإذن.. الجاحظ لم يأخذ، ولا لفظة واحدة من طه. (أمّا طه فأخذ من ألفاظ الجاحظ، ومن أسلوبه كثيراً، لأنه متأخر عنه. وهذا.. شيء معقول وطبيعي – أنْ يأخذ اللاحق من السابق).

- **يضاف إلى هذا أننا نتجوّز عندما نقول: ألفاظُ القرآن.**

- والصوابُ هو (كلامُ القرآن)، لأن الألفاظ فيه.. لا ينفصل بعضها عن بعض – كما لا تنفصل حروف الكلمة- أحدُها عن الآخر- إذا أردنا أداءَ معنىً. ولهذا.. فهل في (كلام) اللغة العربية.. شيء يماثل (كلام) القرآن، حتى لو كانت المماثلة – بجملة واحدة فقط. لأن التماثل –عندئذٍ.- لا يكون معناهُ.. إلا الاقتباس من نصِّ القرآن، ولا يحتمل وجهاً آخر. وهذا **الأمرُ – فَيْصَلٌ- في الحكم بأن القرآن شيء، وأن اللغة العربية شيء آخر. اللغةُ العربيةُ.. ألفاظٌ في (المعجم) يُضَمُّ بعضُها إلى بعض لتأليف (كلام) ذي معانٍ، قد تكون هذه المعاني جيدة أو رديئة. أمّا القرآن.. (فكلامٌ) – لا ألفاظٌ- كُلاً مُترابطاً ترابطاً كاملاً مع معانيهِ- التي هي دائماً معانٍ في (الذروة) التي لا تُبارى، ولا تُجارى، لأنها (بألفاظها) كلام الله تعالى الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ (فُصِّلَت- ٤٢).**

- وتساؤلٌ آخرُ: أمّا قال الخليفةُ عثمانُ بنُ عَفّانَ – رضي الله عنه- عندما أمر بتوحيد رسم المصاحف (وما يتبع تعدّد الرسم، من اختلافٍ في القراءات)- في رسم واحد، (سُمّي، بعد ذلك: الرسم العثماني). فقال للجنة الرسم: (إذا اختلفتم في شيء فاكتبوهُ بلهجة قريش، فإنما القرآنُ بها أُنزل). **فما معنى قوله: (فإنما القرآن بلهجة قريش.. أُنزل)؟**

- **الجواب**.. ليس من المفروض أن عثمانَ كان يتعمق التفكير، في القرآن، وفي اللغة التي أنزل بها – ذلك.. **لأن العقل العربي لم يكن قد وصل إلى مرحلة "التحليل" بَعْدُ**، بل كانوا يأخذون الأشياء من أقرب مَأْتى ويلمحون الحكم - لمحاً. ومن المعروف أن الفرقَ الإسلامية التي كان عندها – بعضُ- التحليل الفكريّ، لم تنشأ

إلاّ بعد استشهاد الإمام علي ابن أبي طالب –رضي الله عنه– وقولُ عثمانَ (ومثلُهُ ما لا يحصى من المسلمين) لا يعني أكثر من التشبيه بسبب التماثل – من دون غَوْصٍ إلى الأعماق.

- إذن.. عثمانُ – رضيَ الله عنه– وجَدَ أن معظم ألفاظ القرآن – مُماثِلةٌ– لألفاظ في لغة قريش.. فكان قوله قائماً على هذه المماثلة الظاهرية– ليس أبعدَ. أقولُ: ولكنّ المماثلة ليست فيْصلاً بأخذِ أحد المتماثلين من الآخر، بل –الأخذُ مستحيل عندما – يُتوَهَّمُ– أن النصّ السابق قد أخذ من اللاحق، لمجرّد المماثلة.

- وأقول: صحيح أن اللغة العربية –ألْهمها الله تعالى– إلهاماً، للعرب، ذلك لكي تكون خالدة، من أجل أن تصلح لحمل القرآن الخالد . و لا يعقل أن يُعبّر عن خالد بفانٍ . وبهذه المماثلة بين هذه اللغة الخالدة، وبين ألْفاظ القرآن – يظلُّ الناس على طول الدهر.. قادرين على فَهْم القرآن الخالد، وعلى تفسيره. ولكن هذا التماثُلَ لا يصحّ، بسببه – عند العقل– أنه يؤدي إلى نتيجةٍ، فحواها أن السابق قد أخذ من اللاحق، بل – العقل ينفي ذلك نفْياً قاطعاً.

- **النتيجة الأولى من هذا.. أن اللغة العربية ليست أصلَ القرآن، وأن القرآنَ ليس أصلَ العربية، مع وجود المماثلة. لأن القرآن كلام الله تعالى، وكلام الله تعالى لا يُؤخَذُ من كلام أُلْهِمَهُ البشر.**

- **والنتيجة الثانية** أن القرآن قديم، وأمّا اللغة العربية فحادثة. وإذن.. القرآن الكريم لم ينزل باللغة العربية – قطعاً. مع قيام المماثلة بين ألفاظِ القرآن، وبعضِ الألفاظِ باللغة العربية– (علماً أن ألفاظ القرآن لا تساوي – بالتقريب– أكثرَ من أربعين بالمئة من ألفاظ العربية (٤٠٪). أمّا أنواع تراكيب القرآن – فتكاد تماثل كُلّ أنواع التراكيب في العربية. لأن الذي يحفظ للغة شخصيتها – بالدرجة الأولى، هو التراكيب، ثم تأتي الألفاظ. بَيْدَ أن التعابير في القرآن مَسْبوكةٌ[ii] – سبكاً فريداً لا تماثلَ بينها، وبين تعابير العربية، أبداً. وهذا.. أحد وجوه الإعجاز في القرآن.

والنتيجة الثالثة أنّ ألْفاظ القرآن وتراكيبهُ فصيحة، مئةٌ بالمئة (١٠٠٪) – أمّا ألفاظ العربية وتراكيبها.. ففصيحة بنسبة خمسٍ وتسعين بالمئة (٩٥٪) – تقريباً، لأن بعضاً من ألفاظ العربية.. حُوشِيّ. وقد يكذب بعض الأعراب، أو بعض عرب البادية – في

روايته- طلباً للمال، أو للشهرة. ومثل ذلك في التراكيب، فقد يتكلفُ البدوي، ما ليس صحيحاً من التراكيب، أو هو صحيح، ولكنه معقد، نظراً لخشونة بعض البيئات البدوية، فلا يعود صالحاً للبيئة الحضاريّة.

- النتيجةُ الرابعةُ.. أنه، لو أُنزل القرآن باللغة العربية – فإن معنى ذلك أن الله تعالى- تَنَزَّهَ- كانت لديه معَانٍ، ثم.. استعار لها ألفاظاً من اللغة العربية، لكي تظهر هذه المعاني بهذه الألفاظ، وهذا.. غير مقبول من ناحيتين:- الأولى.. أن القرآن بهذا المعنى- حاشاهُ- حادث. ومن المعلوم أن القرآن قديم، لأنه كلام الله تعالى. والناحية الثانية.. أن المعانيَ التي تتولّد بغير أن تقوم بلغة، ثم تُؤخذ لها ألفاظ من لغة – ما- فإن التطابق لن يكون كاملاً بين معنى العبارة، أو الجملة، أو الفكرة – وبين الألفاظ المعبّر بها عنها، لأن من شروط البلاغة – عند البشر- أن يبزغ اللفظ في اللحظة التي يبزغ فيها المعنى- الجزئي، أو الكُلّي- وكلما كان بزوغهما أقربَ إلى أن يكون بلا فاصل زمني بين بزوغ المعنى وبزوغ اللفظ – كان الكلام أعلى في درجة البلاغة.

- وإذن.. فكيف يمكن تصوُّرُ فاصلٍ زمني – مهما ضَؤُلَ- بين المعاني، والأفكار، وبين الألفاظ التي عبّرت عنها في القرآن؟ إن ذلك لا يتفق أبداً مع "سَبْكِ" القرآن- المعجز؟

- إن العقل.. لا يقبل أن يكون الكلام "معجزاً" يتفوّق على قدرات البشر – تَفَوُّقاً يستحيل الاقتراب منه – بَلْهَ اللحاق به- ثم.. يُبنى على مرحلتين- مرحلة قيام المعاني، تليها مرحلة التعبير عنها بكلام.

- وإن مثل هذا التصوّر.. لا يليق أن يجريَ معه مُؤمن، لأنه لا يتفق، بحال من الأحوال، مع قدرة الله تعالى الذي وصف نفسه بأنه: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ (البروج- ١٦).

- الله تعالى الكاملُ – المطلقُ الكمال- كُلُّ صفاته كاملة- كمالاً مطلقاً. وكلام الله تعالى صفتُهُ- فكلامُهُ كاملٌ – كمالاً مطلقاً. والكمالُ المطلقُ لا يَصِحّ معه إلاّ أن كلام الله تعالى لا يجري عليه ما يجري على كلام البشر، فكلام الله ذو

سَبْك- بلا زَمَن، فالكلام الذي قامت به المعاني الجزئية والمعاني الكليّة، هو الكلام الذي قام بالمعاني – كما قامت به المعاني – فلا يجوز تصوُّرُ أحدهما دون تصوّر الآخر. إن القرآن – لفظاً ومعنىً- سبيكة واحدة، لا يمكن (أو – لا يجوز) تصوُّرها إلا بما هي عليه.

وعلى هذا.. فعنوان كتاب زميلنا الدكتور عودة أبو عودة- خاطئ، من وجهة نظر - شرعية، وعقلية –معاً. فالقرآن – كما أسلفنا- لم تتطور معاني ألفاظه - الشرعية واللغوية من الشعر الجاهلي، ولا علاقةَ لها بالشعر الجاهلي، وباللغة العربية – إلاّ من حيثُ أنهما – وسيلة- "تفسير – لبعض ما ورد في القرآن، لا في كلّ ما ورد في القرآن؛ لأن بعضَهُ واضح بنفسه، وبعضُهُ يُوَضّحهُ السياق، وبعضٌ منه يُوَضّح بعضاً آخرَ. كتاب الدكتور عودة هذا ، أهدانيه قبل ما يقرب من (عَقْدين)- وهذا الكتاب هو الذي حفزني إلى كتابة هذا – الرأي- "التأصيلي" الذي أراه – أنا- يضع الأمور في نصابها – إن شاء الله- ويثبّتها في أبوابها، ويضعها في محرابها. وعنوان كتاب الدكتور عودة هو: (التطوّر الدلالي بين لغة الشعر، ولغة القرآن). ولو كان العنوان (الفرْق الدلالي) – لجازَ.

- **سؤالٌ ثالث**: القرآن يقول ببضع آيات ما يوضح أنه أُنزل باللغة العربية، فما جوابك على هذا؟ مثلاً يقول القرآن: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ (الشعراء- ١٩٥). و (به- تعود على القرآن). ويقول: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ (يوسف –٢) – وقال: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (الزمر –٢٨). فماذا تقول في ذلك؟

الجوابُ.. بكلمة واحدة (ثم.. يتْبعها كلمات): **معنى** (عربياً) .. **(فصيحاً)!!** فمعنى (بلسان عربي مبين) هو: بلسان فصيح مبين. ومعنى (قرآنا عربيّاً) هو: **(قرآناً فصيحاً)**.

- **وأقول – للتفصيل-** : في الآية الأولى (اللسان العربي المبين) لا يعود على القرآن – وَحْدَهُ- وإنما يعود أيضاً على الرسول البليغ. أي – لأن القرآن نزل بلغة – فصحى[iii]- معجزة.. فأمْرُ الله رسوله أن ينذر الناس – بلسان عربي مبين- أي – بلسان فصيح مُبين، هو لسانك أيها الرسول، ولسان قومك. أمّا في الآية الثانية فقوله

تعالى: (قرآناً عربياً) أتْبَعَهُ تعالى بقوله: (لعلكم تعقلون). فليس من المقبول أن يكون العقل مُتأتياً من نسبة القرآن إلى (العرب) فليس العرب أعقلَ من غيرهم من الأمم، لكي تكون نسبة القرآن إليهم فائدة إلى التعقل. ومعنى هذا (لو صَحّ)- أن ما في القرآن من معانٍ تؤدي إلى إدراك الأشياء – معنوية، وماديّة – بصورة أفضل، راجع إلى أنه منسوب إلى (العرب)!! وهذا.. لا يكون، ولا يصحّ.

- **يبقى أن نقول**: لو كانت هذه النسبة إلى العرب – لكان القرآن- حاشاهُ- **مُنحازاً إلى العرب** – من ناحية- ولكان – من ناحية ثانية- ديناً للعرب – وَحْدَهُمْ- كما أن التوراة هي دين لبني إسرائيل – وحدهم- ولكن هذا مخالف لنصوص القرآن، فالقرآن يقول لرسول الإسلام - محمدٌ ابن[iv] عبدالله- : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (سبأ- ٢٨)، ويقول: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ (الأنبياء – ١٠٧).

- **ثم.. مما يؤكد أن هذه النسبة هي نسبة إلى الفصاحة أن رسولنا الأفصح يقول**: "... أنا أعربُ العرب؛ وُلدت بين قريش واسترضعت في بني سعد ابن بكر. فأنّى يأتيني اللّحْنُ"[٧]

- **وقد يقال**: (عربياً) منسوب إلى اللغة العربية – لا إلى العرب.. والجواب.. أن النسبة إلى – العربية- ليس (عربيّاً)، وإنما هي (عَرَبانيّ).. في حالة الرفع والجرّ، و (عربانيّاً) في حالة النصب. وهذه النسبة كالنسبة إلى (الإسكندرية) فإنّ النسبة لها هي (إسكندرانيّ) و (إسكندرانياً).

- **طبعاً** يجوز أن يُنسب إلى اللغة العربية على (عَرْبيَوِيٌّ) – كما يجوز أن يُنسَبَ إلى الإسكندرية على (اسكَنْدَرَيَوِيّ). ولكنّ هذه الصيغة اطّرحت، بسبب "**ثقلها**"، لتوالي أربعة حروف علّة، الياء جاءت ثلاث مَرّات، يفصل حرف – الواو- وهو حرف علة.

- **وكما** أن قوله تعالى: (لعلكم تعقلون) **لا يصحّ أن يكون التعقل آتياً من النسبة إلى العرب**.. فقولُهُ تعالى، في الآية الثالثة: (غيرَ ذي عوَج) – كذلك.. لا يصحّ أن يكون وَصْفُ القرآن بأنه (غيرَ ذي عوج) – راجعاً إلى أنه منسوب إلى العرب. إذْ العربُ فيهم

اعوجاج (وفيهم استقامة) كغيرهم من الأمم والأقوام. وإذن.. فالقرآن تَنَزّهَ عن الاعوجاج.. لأنه فصيحٌ – مُبينٌ، بفصاحته، عن معانيه – المستقيمة العادلة التي تنزّهت عن الاعوجاج، بل هي الحقّ المبين.

- وهكذا.. في الحالات الثماني الأخرى التي ورد فيها لفظ (عربياً) وصفاً للقرآن (ولم نوردها هنا)، **فهو عربي أي – فصيح مُبينٌ عن مقصوده. والله تعالى أعلم.**

<u>من فقه اللغة:</u>

- **وسؤال رابع:** قد يُسأل : كيف تبيّنَ لك أن (عربياً) تعني.. فصيحاً، مُبيناً؟

- **الجواب..** موجود في معجم (لسان العرب). فمن معاني (عربي) – السبعةُ الآتيةُ:-

١- فصيح: (رجل مُعرِبٌ : فصيحٌ. وإن كان عَجَميَّ النسب). ألا ترى أن.. المُعرِبَ – هو الفصيح، وإن لم يكن عربي النسب. لأن المعرِبَ هو الفصيح – عربيّاً كان أو غيرَ عربي كان. – (رُوِيَ – كما يقول اللسان – عن أبي بكر – رضي الله عنه– أنه قال: قريش هُمْ أوسط العرب، في العرب، داراً، وأحسنهم جواراً، **وأعربهم ألْسنةً).. أي – هي أفصحهم** العرب. وقال رسولُنا العظيم – صلى الله عليه وسلم– " (الثيِّبُ تُعرِبُ عن نفسها" أي– (تُفصِحُ). هكذا ورد في اللسان. ثم يقول: (وإنما سُمِّيَ الإعراب.. إعراباً، لتوضيحه وتبيينه)، أقول: والإعرابُ هو – من النحو– الحركات على أواخر الكلمات، لأنها (= الحركات) فيها معنىً مضافٌ لمعنى صيغة الكلمة، كالمفعولية، والحاليّة، والظرفية... إلخ.

٢- **التعليمُ:** – (وفي حديث الحسن (ابن عليّ) أنه قال له (البَتّي): ما تقول في رجل – رُعِفَ – في الصلاة؟ فقال الحسنُ: إنّ هذا – يُعَرِّبُ الناسَ) – أيْ- يُعَلِّمُ الناس. أقول: سَخِرَ منه الحسنُ، لأنه يقال: (رَعَفَ)، على البناء للمعلوم، وليس (رُعِفَ) على البناء للمجهول. أقول: يُعرِّب – هنا– معناها (يعلِّمُ)

٣- **الماءُ الصافي:** (العَرِبُ، هو الماء الصافي. ونهر عَرِبٌ: غَمْرٌ، وبئر عَرِبة: كثيرة الماء).

٤- التجمُّعُ: (وعَروبةُ، والعَرُوبةُ: كلتاهما.. الجُمعة)، لأن الناس يجتمعون للصلاة فيها.

٥- **(والإعراب..** النكاح. وقيل: التعريض به) – ومنه: المرأة العروب: المتحببة إلى زوجها.

٦- **الفُحشُ**: (الإعراب والتعريب: الفحش، وهو ما قَبُحَ من الكلام).

٧- **والرجل العربي**: والعربي هو المنسوب إلى العرب. أقول: وهي نسبة اضطرارية، لأن كلمة (العرب)، وهي اسم جنس – ليس لها مُفرد من جنسها، فجاء المفرد على صيغة النسبة. ولذا.. فهو ليس نسبةً على الحقيقة وإن جاء بصيغة النسبة، لأنه اسمُ مفردٍ. – كما قالوا: أنصاري، من الأنصار. وهي ليست نسبة على الحقيقة – كذلك.

- أقول: **إن كلَّ المعاني السابقة وردت في معجم (لسان العرب) ويتضمّنُها القرآنُ. المعنى الأول= الفصاحة والإبانة – وَضّحناهُ، في مكانه. أمّا المعاني السّتّةُ اللاحقة، فالقرآن يتضمنها على النحو الآتي:**

- **فالمعنى الثاني: (يُعَلِّمُ)**، والقرآن هو كتابٌ يُعَلِّم الدين والأخلاق، ومبادئ التعامل والمعاملات، ويُعلِّمُ عن نظام الكون؛ بإشارات يحللها العقل البشري، قرناً بعد قرن.

- **والمعنى الثالثُ**: وهو (الماء الصافي، والغزير). وهل القرآن الكريم غيرَ ذلك؟ لأن معانيَهُ صافيةٌ، لأنه حق وعدل، والحق والعدل.. صفاء معنويّ. وهل القرآن إلا نبع، تُستقى منه كل العلوم، بعضُها تُستقى كلها منه – كالعقيدة، والعبادات والمعاملات، وبعضها تُستقى منه إشاراتٍ دالّةً، فمن يتابعها، من المتخصصين في مجالها يُهْدى إلى علم كثير.

- **والمعنى الرابع** – دلالتُهُ هو أن القرآن "مُعرِبٌ" لأنه يَحُضُّ على النكاح، لأهمية الجنس، ومن أجل الإحصان والعفاف.

- **والمعنى الخامس** (= التجمع)، والقرآن مُجمِّعُ الجماعات. أليس المسلمون، وهم الآن مليار ونيِّف، كُلُّهُمْ جماعة واحدة، مجتمعة على العقيدة والعبادات، وإن تفرقوا، فيما وراء ذلك، ولكن، إلى جماعات أيضاً.

- **أمّا المعنى السادس: (الفحشُ)** فدلالته في القرآن هو مُحاربة القرآن للفحش. أي – إن هذا المعنى وارد فيه على معنى **(السّلْب)**. بمعنى أن الكلمة في اللغة، تأخذ أحياناً، وهي في سياق، معنىً مضاداً لمعناها الأصلي، مثل كلمة **(ممرضة)** فأصل

الكلمة أن الذي يمرِّض الشخص إنما هو الذي يجلب له المرض. ولكن، استعملت في معنىً مضادٍّ، في العصر الحاضر، **فالممرضة** هي التي تساعد في شفاء المريض، أي – في – سَلْبِ- المرض منه. وهذا السلب هو أحد قوانين نموّ اللغة. وإذن كلمة **الفحش** هنا أخذت معنى السلب، بمعنى أن القرآن يدعو إلى سلب الفحش، من حياة الناس، أي – يدعو إلى الفضيلة، عن طريق الزواج.

- **أمّا المعنى السابع**.. فهو بمعناه الأصلي .. هو المقصود، عندما يَرِدُ في القرآن، ومعناه هو: (الفصيح). أما بالمعنى الثاني.. فلا يتضمنه القرآن، لأن هذا المعنى الثاني.. لا يدلّ على الفصاحة، وإنما يدلّ على جنس العرب. وهو معنىً تطور مع الزمن.

- **ويبقى سؤال أخير هو**: من أين جاءت كلمة (عَرَبٍ) – وكيف صار معنى (العربي) أو أحدُ معانيه: **الفصيح**؟

- **الجوابُ**.. هو أن من أنواع الاشتقاق- **الاشتقاقَ بتقليب الحروف**. مثلاً.. (جَذَبَ) اشتُقّت منها كلمة (جَبَذَ) لتدلّ على شدّةٍ أكبرَ في الجذْب. وكلمة (عَرَبَ) مشتقة من كلمة (عَبَرَ) عن طريق تقليب الحروف. و (عَبَرَ) تعني الذي يمشي من جانب النهر (أو الأرض) إلى جانبه الآخر. والعرب كانوا – في معظمهم – بُداةً، يسكنون البادية، فيتنقلون فيها، فيعْبُرونها من جانب، في تنقلهم، إلى جانب آخر..

- وبما أن الباديةَ.. باديةٌ، أيْ – ظاهرةٌ ومكشوفةٌ، فالذي يَعْبُرُها.. بادٍ وظاهرٌ، ومكشوفٌ. فإذا تكلم سُمِّيَ كلامُهُ (عَبْرِيًّا)، أي – بادياً وظاهراً ومكشوفاً، خاصةً أن قُطّانَ البادية لا يكتبون، فكلامهم مكشوف – من ناحية أخرى – لأنه مُصَوَّتٌ مسموع. (**وسُمّيَ كلامهم باسمهم.. من باب (المجاز المرسل)، وعلاقته – التلازم- بين المتكلم وكلامه**).

- **ثم.. أفصح الرجل من الوادي**: خرج منه، فظهر، وبَانَ وانكشف. وإذنْ.. الفصاحة هي – البيان، والظهور، والانكشاف. وإذا خُصِّصتْ باللغة، كانت اللغة **الفصيحة هي: المُبِينَةُ للمعاني، المُظْهِرَةُ لها- الكاشفة لها**.

- وإذن.. هناك **علاقة مشتركة** بين الكلام العَبريّ، والكلام الفصيح، فكلاهما يُبينُ عن المعاني (والمقاصد) ويُظهِرُها ويكشفها. وإذنْ.. الكلامُ – العَبريّ- هو الكلام – الفصيح- .

- ولكنّ العربَ لم يرتاحوا – **بالذوق** – لكلمة (عَبَرَ) لطول الاستعمال (وطولُ الاستعمال يحوّل الكلمة – أحياناً- إلى كلمة مبتذلة- أما ترانا، لطول الاستعمال أصبحنا، إذا أردنا أن نَصِفَ وَجْهَ فتاة – جميلاً.. لا نقول: (وجهُهَا كالبدر) وإنما نقول: (**مُحيّاها كالبدر**)؟ ما ذاك إلا لطول استعمال كلمة الوجْهِ، وكثرة استعماله فأضحت كلمة الوجه غير شاعرية) – فاشتقوا ، لهذا ..(من عَبَرَ) اشتقاقاً جديداً أقرب إلى الذوق – بسبب الجدّةِ – فقالوا: (عَرَبَ، وعَرَبٌ، وعَرَبِيّ- وكلامٌ عربيّ) ثم.. ثَبَتَ الاشتقاق، ومضى مع التاريخ.

- وواضح أنّ (عَرَبَ) هي من تقاليب (عَبَرَ- وكلامٍ عَبْريّ)- ولأن الكلام العَبْريّ هو الكلام الفصيح، فالكلام العربيّ هو الكلام الفصيح- وإنّ العربيّ- إطلاقاً هو: الفصيح- كما أن العَبْريّ – إطلاقاً- هو: الفصيح. فإذا نُسب الكلام إلى (عَرَبٍ) كانت النسبة تعني.. أنه كلام فصيح. (وكلمة – العَبريّ- بفتح العين- يمكن أن تُكْسَرَ عينُها للتناسب مع الياء المشدّدة وطلباً للخفّة).

- وإذن.. العرب هم عاريو البادية- الفصحاء- كما أن- العَبَرَ- هم عابروا البادية الفصحاء و عاريو البادية ، و عابروها .. هم الذين يتجولون فيها ، و يجتازونها من طرف إلى طرف آخر .. والله تعالى أعلم.

<u>- وسؤالٌ خامس في فقه اللغة:</u>

- **معروف أن الاشتقاقات** المختلفة ذات – الأصل- اللغوي الواحد.. ترجع كلها إلى معنىً واحدٍ – غالباً- ، هو المعنى الأصلي. وهذا.. كثير في العربية الفصحى، وقليل في اللغات الأخرى. (وهذا.. ليس من باب تَعَصُّب المرءِ للغته، أو لما يخصّه، وإنما هو أمرٌ يدلّ عليه علم اللغة، وفقه اللغة) (vi).

- فهل هذه المعاني السبعة لكلمة (عَرَبَ) أي – فَصُحَ. ترجع إلى هذا المعنى الأصليّ؟

__الجواب .. نعم.__

- **فالتعليم**.. يؤدي إلى الفصاحة (في العربية، وفي سواها من اللغات)- أما ترى أن المتعلمين- بشكل عامّ- في كلّ الدنيا هم أكثر إبانةً (=إفصاحاً) عن أفكارهم من غير المتعلمين؟

- **والتجمّع**.. فيه احتكاك بين طاقات البشر المتجمعين. وهذا الاحتكاك يُفيد منه هذا الشخص كلمة ، وهذا جملة، وذاك معنى، وذاك فكرة. ثم.. التجمع يُوَلّد الرغبة في المشاركة في الحديث، وأنْ يعرض كلّ شخص ما عنده- خلافاً – للمتوحّد- الذي لا يجد – غالباً- رغبة، في الكلام. وهذا.. كله يقود إلى ازدياد ثقافة المرْء، وإلى صَقْل لغته، فيصبح أكثرَ إبانةً، و أكثرَ فصاحةً.

- **والنكاح**.. عند بني الإنسان حافز قويّ لتوليد عبارات المجاملة والغزل، لأن الإنسان لا تطيب منه العِشرة، ولا تطيب له العشرة إلا بتغليف العلاقة الجنسية بألْفاظ المجاملة والغزل، لأن الإنسان ينطوي على مشاعر جمالية، ولذلك.. لا يجد المتعة الكافية في الشريك الآخر إلاّ إذا غُذّيَ هذا الجانب الجمالي- وكلّ ذلك يَحُثُّ على توليد الألفاظ، لإنشاء صياغات جديدة، تسرُّ الطرف الآخر. وإذن.. يزداد الإنسان فصاحةً، بتدريب الذات على تغليف علاقته بعبارات جميلة.

- **والعَرِبُ**.. هو الماء الصافي. والماء الصافي يعني الفصاحة من ناحيتين: الأولى- أن الماء الصافي.. يُرى ما بداخله – بوضوح- وهذا.. إبانة، والفصاحة هي القدرة على إبانة ما في النفس، عن طريق الألفاظ. والناحية الثانية- أن الماء الصافي هو ماء صِحّيّ – غالباً- والماء الصحّيّ، من أسباب دوام الصحة للإنسان، ما دام حيّاً، وصاحب الصحة الجيدة هو أقدرُ على متابعة التعلم، من الكتب، أو من تجارب الحياة، ومتابعة التعلم يُنمّي مدارك الإنسان، وتنميَة مدارك الإنسان مِعْوانٌ على الفصاحة، لأن المدارك الواسعة تحتاج إلى مفردات كثيرة للتعبير عنها، مما يحفز مثل هذا الإنسان إلى أن يزيد ثروته اللغوية بحفظ مفردات جديدة أو بتوليد مفردات

جديدة ، أو بالوسيلتين – معاً . ومن ازدادت ثروته اللغوية فقد أصبح قادراً على التعبير عن مداركه الواسعة، فاستوى.. فصيحاً.

- والفُحْش: هو كشف لما يحاول الناس أن يستروه من القول أو الفعل. فإذا تكلم المرءُ بالفحش، فقد أبان عن مستور، أي – أفصح عنه. وليست الفصاحة إلا القدرة على التعبير عن المستور من المعاني والأفكار.

- والعربي.. تلتقي مع الفصاحة، من حيثُ أن الأصل في كلمة (العرب) الذين يَعْرُبون البادية (أي- يعبرونها) وعبور البادية هو كشف لما فيها. والفصاحة هي الكشف والإبانة، فالعربي هو الكاشف المُبين عن المعاني، والكاشف المبين عن المعاني هو الفصيح. أمَا قال (لسانُ العرب): والعربي هو الفصيح، وإن كان من أصل أعجمي؟ أي – وإن كان غير عربي ؟!

الهوامش:

(١) – الإمام أحمد – ابن- حنبل. كلمة (ابن) – أينما وردت، سواءٌ أكانت بين علمين أم لم تكن.. أكتبها مبدوءة (بألف)، لأن حذف الألف منها في بعض الحالات قد جعل إملاءها صعباً لأنه جعل لها أربع قواعد، من غير أن يكون لحذف الألف "علة" منطقية.
وسبّبَ خطأً في قراءتها، فالمغاربة – مثلاً- يصوتون (بنْ بركة – بنْ جديد) بدل (ابن بركة – ابن جديد). فإذنْ.. إبقاء الألف، في أوّلها، دائماً هو إصلاح إملائي. وهي لا تصوّت في دَرْج الكلام مثل ألف (القمر) – فلماذا لا نحذف ألف القمر، ونحذف ألف (ابن)؟ أين المنطق في هذا التعارض؟

(١) – (مسبوكة سبكاً) – ما اصطلح عليه، منذُ الجاحظ أنهم قالوا (نَظْمُ القرآن). بَيْدَ أن كلمة (نظم) لها معنى آخر، وهو المنظومات الشعرية، أي – هي الكلام الموزون المقفى الذي ليس شعراً فنياً. ومع أن الكلمة يمكن أن تأخذ معنيين، وأكثر – كلها.. بينها علاقة. غير أني فضلت استعمال كلمة (سَبْك) القرآن، بَدَلَ (نظم) القرآن، تنزيهاً له عما تُشعِرُ به كلمة النظم من أنها تدل على كلام لا جمالَ فيه ، كنظم - المتون.

(١) – (نزل بلغة- فصحى)- تقول كتب النحو: إن اسم التفضيل، مثل (الأكبر- الكبرى)- إذا تجرّد من (أل)- لا يُثنى ولا يجمع، ويبقى على صيغة المذكر. مثلاً: نقول: (سعيد أكبر من سالم) – و (سهيلة أكبر من بُشرى) ولا نقول: (كبرى) من بشرى. وهذا.. صحيح.
- ولكن، أينطبق هذا على كلمة (فُصحى) عندما يُراد منها وصف اللغة؟ الجواب.. لا. لا ينطبق. لماذا؟ لأن كلمة (فصحى) وصفاً للغة انتقلت من –الوصفية- إلى الاسمية. وعلةُ ذلك

- ثم.. من المعروف أن كثيراً من الكلمات تتطوّر معانيها. ومنها ما يحتفظ بالمعنى الأوّل، وبالمعاني الحادثة، وبعضها يموت معناها الأوّل، أو يخفت، ويبقى معناها أو معانيها اللاحقة. وكلمة (عربي) لم يمت معناها الأصلي، وهو: الفصيح. وإنما خَفَتَ، أمام معناها الذي اكتسبه، فيما بعد. فإذا أُطلقت – الآن- ومنذُ عهد الجاهلية كلمة – عربي- (خارجَ القرآن) انصرف الذهن – فوراً- إلى المعنى المكتسب، وهو الجنس العربي، لا إلى المعنى الأصلي، وهو.. الفصاحة.

- ولن تَجدَ مثلَ هذا التلاقي بين جميع المعاني التي تتولّد من اشتقاقات من جذر لغويٍّ واحدٍ – على تمامه- في غير العربية الفصحى – لغة القرآن- التي ألهمها الله تعالى العرب- إلهاماً، لتكون خالدة، فتحمل القرآن الخالد.

والله تعالى أعلم، وهو المعلّم والأكرم.

أنها أصبحت جزءاً من اسم اللغة، وخاصةً باللغة، فدائماً يقال: (العربية الفصحى) أو (لغة عربية فصحى) للتمييز لها عن اللهجات غير الفصيحة. ولهذا.. فلا توصف بها المرأة، فلا يقال: (امرأة فصحى)- وإنما يقال: (امرأة فصيحة) ولكنْ، يقال: المرأة الفصحى.

(١) – (محمدٌ ابنُ عبدالله – صلى الله عليه وسلم-) – إن الأليَقَ برسول الإسلام أن يُنَوِّنَ لفظُهُ، فنقول: (محمداً – محمدٍ- محمدٌ) حتى إذا جاء بعده كلمة (ابن) – لأنه بالتنوين ، يكون إعراب (ابن) بعده – (بدلاً) أمّا بعدم التنوين فيكون (ابن) صفة. والشيء الذي يوصف غير واضح بذاته، أما الذي يُبدَل منه فيكون واضحاً بذاته، لأن البدل زيادة توضيح للمبدل منه وليس أساسياً في توضيحه، لأن المبدل منه.. واضح بذاته.

(١) – الهيثمي- مَجْمع الزوائد- ٢١٨/٨.

الموضوع السادس

الخطأ والصّواب والاجتهاد في اللّغة(*)

قرأتُ حديثاً مقالة تحاول أن تُبَيِّنَ وجه الصّواب في الكتابة في اللّغة. وقد وجدت – من وجهة نظري – أن معظم ما قالته يمكن دحضُهُ وأن كاتبها وهو – الدكتور مصطفى الفار. اعتمد التّهويش، وإطلاق الأحكام التي لا يدعمها "منطق" أو "تحليل" وكنت أنا المقصود، في مقالة الدكتور الفار. وفيما يلي البيان:

١ – يقول الكاتب: لم أشأ فيما مضى أن أكتب في هذا الموضوع، انطلاقاً من هاجس الإحساس بأنّي أتقصّد الردّ على أحد أنه هو – وَحْدَهُ – الحكم الفصل في صواب اللّغة أو خطئها.

أقول: لم أقل ولا مرة واحدة، (وأنا أكتب منذُ عامٍ كلمةً لغويةً مرتين في الأسبوع، في جريدة الدستور السائرة) إنني الحكم الفصل في صواب اللّغة أو خطئها. ولا يعلن ذلك للملأ عاقل. وإنما أنا مختصّ باللّغة، فأجتهد في تصويب كثير مما خطّأه اللغويون، ولا سيما في العصر الحاضر، أفعل ذلك "تيسيراً" على الناس، في حدود ما أجد له وجهاً في العربيّة وإحقاقاً لما أراه حقّاً، لأن الحق لا يتجزأ، في اللغة كأن أو في الدين أو في غيرهما. ثم.. أُخطِّئ بعض الاستعمالات.. نادراً.

وإذا وجدني كاتب المقالة أنني قلت، ولو مرة واحدة، أنني الحكم الفصل في صواب اللّغة أو خطئها – فعليه أن يذكره، ليحوّل ادعاءه إلى حقيقة لها شاهدها. أمّا رمْيُ الناس بالتّهم من غير دليل فهو يكشف عن طراز هذه الشخصية من الناس.

٢ – ويقول: أما وقد كثر الحديث عن قضية الخطأ والصواب على نحو مبتسر وبعيد عن الواقع الذي يتوخّى المصلحة العامة **وأهداف التيسير بدلاً من التعقيد** فإني ألتمس لنفسي عذراً لخوض هذا الموضوع.

وأقول: إنني لا أبتسر ما أعرض له من اللّغة، لأني في كل مقالة آخذ لفظة واحدة أو عبارة واضحة، وأُدير الحديث حولها على صورة أرجو أن تكون واضحة.

(*) كتبت سنة – ٢٠٠٥م.

وإني لا أقصد فيما أكتب في اللّغة إلا **تحليل الواقع اللغوي اليومي والمستعمل**. فمن التجنّي القول بأن ما أكتبه بعيد عن الواقع. ثم.. إني لا أقصد إلا المصلحة، وإلا التيسير. وقد وردت كلمة التيسير مراراً في مقالاتي في الجريدة. ولا ينكر معالجة الواقع اللغوية والتيسير في مقالاتي هذه إلا من **يصدّه الهوى** عن قول الكلمة الحق المبين. أنا أكتب – أصلاً – لمعالجة الواقع اللغويّ لا– لاستلال كلمات من المعجم، طواها النسيان خلافاً لما يفعلُه كثيرون.

٣ – ويقول: ومن عجب أن بعض من يخطئون غيرهم لا يعتمدون في تخطئتهم إلا على ما يتذوّقونه هم من القياس أو السماع. كأن يستشهدوا بآراء الكوفيين دون البصريين باعتبار الكوفيين في رأيهم أقرب إلى طبيعة اللّغة من رأي البصريين. أو أنهم أقرب إلى بُعد النظر بسبب تجاوب آرائهم مع ما يحدث من تطور.

وأقول: **أما القياس**.. فليس لأحد أن ينكره، وإلا.. فماذا يكون مصير اللّغة؟ **أما السماع**.. فأنا أرى أن يقاس عليه – فيما ليس له قاعدة مناقضة – لأن مجاراة اللّغة للواقع والمستقبل لا يكون – على وجهٍ سليم – إلا إذا فعّلنا كل إمكانيّات اللّغة، ومنها تحويل السَّماع إلى قياس، ولا سيما أن بعض ما اعتبره الأقدمون سماعاً لقلته قد تجدّدَ للمتأخرين منه ألفاظ كثيرة. ومثال ذلك أن النُّحاة القُدامى قالوا: ما كان من الصفات على وزن "**فَعْلان**" فمؤنثه على وزن "**فَعْلى**". بَيْدَ أني وجدت في (جامع الدروس العربيّة – للغلاييني) أربعَ عشرةَ كلمة، مذكرها (فعلان) ومؤنّثها (فعلانة) مثل: أسْيَان أسيانة، ونَدْمان ندمانة، وسَيْفان سيفانة.. ووجدت بضع صفات أخرى في لسان العرب والقاموس المحيط.

ألا يحق لنا أمام هذا أن نصوغ قاعدة جديدة فنقول: **الصفة التي على وزن (فعلان)** يأتي مؤنثها أحياناً على وزن (فَعْلى) وأحياناً على وزن (فَعْلانَة)؟ بل أما يجوز لنا – من أجل التيسير – أن نُضيف: وأنت مطلق اللسان في أن تجعل أيّ صفة لـ(فعلان) على وزن (فعلى) أو (فعلانَة)؟ أقول: خاصةً أن الذوق الحديث حتى عند الكتاب والشعراء أضحى يستسيغ (فعلانَة) ولا يستسيغ (فعلى) . وذوق الأدباء معتبر في استعمال ما يستعمل واطّراح ما يرح، عندما يكون المستعمل له أصل في الفصيح. **فذوق الأدباء هو مِصفاة اللغة.**

وأقول أيضاً: عجيب أن يأخذ عليك شخص، إذا كنت ترى رأي الكوفيين في كثير من المسائل وتأخذ به – ألاّ تأتيَ برأي البصريين أما سمعت بمثل هذا في **مناهج البحث**. إذ لا يجوز لأحد أن يُلزم الباحث بأحد الرأيين. وإنما الباحث يختار. وليس لك أن تُحاسبه إلا على ما في اختياره من قوة حُجة أو ضعف حجة .

هَبْ أحداً أخذ برأي البصريين.. أيجوز لي أن أقول: ولماذا لم تأخذ برأي الكوفيين؟ كل ما يجوز لي أن أقول: أخذت بالمنهج المرجوح، فمنهج البصريين يتهافت في كذا، وكذا، وكذا..الخ وأُدلّل على رأيي.

٤ – ويقول: هذا، ويُصرّ هذا النفر من المخطّئين إصراراً غريباً على هدم القاعدة الإملائية التي تعلمها طلابنا في المراحل الابتدائية والثانوية والجامعية بوجوب حذف الألف من كلمة (ابن) و(ابنة) إذا وقعتا بين علمين بشروط هي[1]:

أ – أن تكونا مفردتين مثل عمرو بن العاص، عمرو بن كلثوم، آمنة بنة وهب.

ب – أن تكونا نعتين للعلم الأول، كما في الأمثلة السابقة. أما إذا كانتا خبراً فلا تُحذف ألفهما، كقولنا: خالد ابن الوليد. جواباً لمن يسأل: خالد ابن من؟ وكقولنا: عائشة ابنة طلحة. جواباً لمن يسأل: ابنة من عائشة؟

ت – ألا تقعا في أول السطر. فإن وقعتا في أول السطر ثبتت فيهما الألف.

ث – ألا يفصل بينهما وبين العلم الأول فاصل. فإن فصل بينهما وبين العلم الأوّل فاصل ثبتت الهمزة. مثل: خالد هو ابن الوليد. ويلحق بالعلم ما يلي= الكتابة عن شخص لا يعرف اسمه، مثل: أكرمني فلان بن فلان.= الكنية: وهي ما صُدِّرَ بكلمة أبٍ أو كلمة أُمٍّ مثل: الخليفة الأول هو أبو بكر بن أبي قحافة، جاءت أم علي بنة أبي محمود.= اللقب. مثل: قرأت عن الهادي بن زين العابدين.

فلماذا نُلغي حصيلة قواعد إملائية تعلمها طلابنا منذ عقود طويلة، وما زالوا يتعلمونها، وأقرها باحثون محدثون...؟

---

(١) - كلام الكاتب غير واضح، فأنا أرى إثبات الألف مع (ابن) و(ابنة) دائماً. أما ما جاء به من الشروط بعد قوله (إذا وَقَعَتَا بين علمين بشروط هي:) فهذه الشروط هو الذي يراها. أما أنا فأرى أن نحذف كل الشروط التي يحفظها ثم ينساها - إذا لم تراجع بين آن وآخر – حتى المتخصصون، أو ينسون بعضها، فما بالك بطالب المدرسة وبغير المتخصص؟

وأقول: قصدت أن أنقل النص كاملاً عن إملاء(ابن)، لأسأل الإنسان المثقّف: **أيُّهما الميسر وأيهما المعقد**: أن تقول: (ابن) و(ابنة) تكتبان دائماً بألف، من باب الرأي والاقتراح، أم أن تتذكر كلّ ما ذكره كاتب المقالة من شروط رئيسية وشروط فرعيّة، ينسى بعضها المتخصصون.

أنا صاحب الرأي الأول. وقد أوردته في جريدة الدستور، وكاتب المقالة الدكتور الفار، صاحب الرأي الثاني. فإذا تذكّرت أن هذا الكاتب يتهمني بالتعقيد في الرقم الثاني الذي أوردته من مقالته أدركت إلى أيّ حدٍّ يخرج هذا الكاتب عن الموضوعية، ويناقض بعضُ أقواله بعضاً. بل – إن فاقد الشيء.. لا يعطيه. وهذا الكاتب ما عُرف له "تجديد" ولا في باب من أبواب العربيّة. وإذا كان لديه شيء جديد.. فليذكره على الملأ – شأنُهُ شَأنُ- ٩٠٪ - من المُتخصِّصين بالعربيّة.

كان الله في عون طلابنا، ماذا يدريهم عن بعض هذه المصطلحات التي وضعها الكبار، من مثل - أن تكونا نعتين- أما إذا كانتا خبراً – ويلحق بالعلم ما يلي..؟

ثم .. **إن التيسير في حدود الصواب مطلوب**. أما ترى أن عائشة – رضي الله عنها – قالت عن رسولنا – صلى الله عليه وسلم- : "وما خُيّر رسول الله – صلى الله عليه وسلم- بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن حراماً"؟ وما طلبْتُهُ أنا من التيسير هو في رأيي هو الصواب، لأنّنا إذْ نضع الألف دائماً في أول (ابن) و (ابنة) لا نُضيّع معنى أبداً. وهي – بعدُ – مثل ألف (القمر) تُكتب ولا تُلفظ في دَرْجِ الكلام. وإنّ الذي جنى على المغاربة أن يقولوا :(بنْ بركة – بنْ جديد..)[1] إنما هو حذف الأف من (ابن)، لأن المرء – بشكل عامّ – يقرأ ما يرى، وهو يرى (بن) وليس (ابن) فيقرأ كما يرى. لأن الحرف ..أصلُهُ "رمز" لصوت، والألف في حالة البدء بها صوت مسموع. وغير مسموع في درج الكلام كألف (القمر) فلماذا على رأي المقلّدين للقدامى- لا نحذف (ألف) القمر؟.

أما الذين يضعون لابن وابنة قواعد عدّة فهم لم يأتوا بمعنىً ذي بالٍ لكل حالة من الحالات، يَضيع إذا لم تأتيا على وَفْقِ هذه القواعد المعقدة.

---

(١) - بن بركة- بن جديد: تكتب بدون الف، وبكسر الباء وتسكين النون على ما هو متعارف عند المغاربة. وهذه جناية الخلل الإملائي المتوارث.

أما التساؤل: لماذا نلغي حصيلة قواعد إملائية..

فالجواب أن الإنسان يسعى دائماً **إلى الأيسر الذي لا يخرج على الصواب.** وما اقترحته أيسر بكثير مما هو مألوف ويتعلمه بصعوبة طلابنا، دون أن نخسر في هذا التيسير شيئاً. أما ترى أن التعليم كان تلقينياً على مدى قرون. والآن أصبح الرّأي الرّاجح أن التعليم الناجح هو التعليم عن طريق المشاركة والمحاورة. بل إن الناس، لقرون كانوا يَـرَوْنَ أن الأرض مركز الكون وأنها ثابتة. ثم.. اكتشف العلم حديثاً أنها كوكب صغير وليست مركز الكون، وأنها تدور حول الشمس وتدور حول نفسها. فترك التعليمُ ذاك القديمَ وأخذ بهذا الحديث الذي اكتشفه العلم.

أما أن هذه القواعد المعقدة – أنا أقول– قد أقرّها تربويون مُحْدَثون فليس بحجة علينا، لأنهم أعملوا عقولهم التي لا تحتوي طبقة "**التجديد**" فارتَضَوْا ما ورثوه عن الأجداد، في هذه النقطة، ونحن أعملنا عقولنا فخالفناهم. وهم رجال ونحن رجال. ونحن نعرض رأياً نُؤمن به ليس أكثر. فمن اقتنع به أخذ به. ومن لم يقتنع احترمنا اختياره. إن المقلّدين البائسين هم الذي يعتقدون – واهمين– أن كُلّ ما تركه القدامى هو حقّ وصدق وصواب، فليس علينا إلا أن نحفظه لنقلدهم فيه، إن الكاتب الذي – يُحدِّق – في الحاضر، وينسى المستقبل إنما هو رجل تقليدي من زواجل المعلومات، وليس له نصيب في حركة العلم وتطوره.

والإملاء- بَعْدُ – ليس مقدساً، وإنما أفْضَلُهُ ما طابق فيه الحرفُ الصوتَ، مع استثناءات قليلة. والدَّليل على ذلك أنه تطوّر مِراراً خلال العصور. **الثّابت في أصوله ومقاييسه العامة فهو اللّغة، نحواً وصرفاً وتركيباً** وليس الإملاء الذي هو رموز لأصواتِ اللغةِ ليس أكثر.

٥ – ويقول: مما تقدم بيانه يتضح عدم جواز إطلاق الأحكام العامة بالخطأ والصّواب على نحو تعسُّفي فردي دون مسوّغ إلا مُخالفة الواقع المعيش، والمعمول به حتى اليوم.

وأقول: أنا حريص حرصاً علمياً وأخلاقياً على أن أصوّب أو أخطئ بناءاً[1] على دليل أو تعليل. وإذا وَجَدَ الكاتب رأياً تعسُّفياً فليبرزه. وحَسْبُكَ من احترام للعلم والأخلاق أن يورد المرء رأيه مع دليله أو تعليله ومن ينهجْ هذا المنهج فلا يُخالف الواقع المعيش من أجل المُخالفة وإنما لأن له وِجهة نظر "مُعللة" يريد أن يوصلها للناس، يريد بها رضا الله ومصلحة الناس.

أما أنّه رأي فردي.. فملايين الكتب كَتَبَ كلاً منها فردٌ. وهذا، لا يحول بين جهود المجامع واللّجان التي لم تُعَرفْ إلا في العصر الحاضر وبين ما تتخذه من قرارات، و هذه اللّجان والمجامع تأخذ ما تراه من رأي الأفراد، وتُهمل ما لا تراه، أو تَرُدّ عليه، والحكَمُ الذي هو أعلى من المجامع واللجان إنما هم الأدباء المبدعون، فإذا هم استساغوا شيئاً واستعملوه سارَ، وإذا هم لم يتذوّقوه أهملوه فبار.

ثم.. إنَّ الدعوة إلى صمت الأفراد حتى تنطق المجامع إنما هي دعوة تنتصب ضِدَّ **الحريةِ، وَتَعَدُّدِ الآراء، وإطلاقِ ملايين الطّاقات التي لا تضمُّها المجامع، بل لا تتسع لها.** بل إن بعض أعضاء أيّ مجمع لا يقتنِعون بالرأي الذي يفوز، من خلال التصويت، فيكتبون مقالات وكتباً يُوضحون فيها آراءهم، خدمةً للعلم، وإبراءاً للذّمة. يا دكتور – ليتك ذكرت– مثلاً واحدا– بَسٌ، تدلل به على الأحكام التعسفية التي أتيت– أنا– بها.

وإلاّ.. فهل ترى أن المجامع (مع جهدها الكبير) قد نجحت عندما أطلقت على التلفاز مُصطلح "مِرْناة" فأصبح نادرة يتندّر بها الناس، ثم.. جاء رجل واحد هو المرحوم الدكتور أحمد زكي رئيس تحرير مجلة (العربي) سابقاً، فقال: أرى أن نُطلق على التلفزيون تلفازاً. فسارت بين الناس.

---

(١) بناءاً: أكتبها وفي آخرها ألف بعد الهمزة. لأن حذف الألف المنونة بعد الهمزة، فيما ورثناه في هذا الشأن، ليس له مُبرر معقول. يقولون في التعليل: تحذف الألف من الآخر، غراراً من توالي الأمثال. أقول: هم يعتبرون الهمزة من جنس الألف. وهذا.. غير صحيح، فالهمزة مثل (العين)، وليست من جنس الألف، وإن كتبت أحياناً على ألف. فالألف مجرد قاعدة، وإنما الصوت للهمزة. وكما تكتب على ألف تكتب على ياء وعلى واو. ومع ذلك.. فليس من أحد يعتبر الهمزة من جنس الياء أو من جنس الواو. فكما نقول: (جياعاً) يجب أن نقول: (بناءاً) – فالهمزة صوت حلقي كالعين، فكما نضع بعد العين ألفاً منونة بالفتح– يجب أن نضع ألفاً منونة بالفتح، بعد الهمزة.
فكما نقول: صراعاً.. فلا نحذف الألف المنونة يجب أن نقول بناءاً.. بإثبات الألف المنونة. ومثلها كل الهمزات التي يأتي قبلها ألف ويأتي بعدها ألف منونة، مثل: ابتداءاً – استثناءاً – لأواءاً.

وهل تُعْدمُ كتب الأخطاء اللغوية.. القديمة والمعاصرة التي ألّف كلاًّ منها فرد؟ من القديم: **الفصيح لثعلب**، **ودرّة الغواص** للحريري، ومن الحديث: **لغة الجرائد** لإبراهيم اليازجي، **وقل ولا تقل** لمصطفى جواد، **ومعاجم للأغلاط اللغوية** لمحمد العدناني؟ وغيرها كثير وهذه المعاجم... فيها الصواب، وفيها الخطأ.

إنّ الجهود تتكامل ما بين المجامع والافراد، ، فلا يحق لنا أن نقف حجر عثرة في طريق التأليف: فردياً أو جماعياً، إبداعياً أو علمياً، **الشرط العلمي والأخلاقي** هو أن يكون الرّأي مُقيّداً بدليله أو تعليله، وليس سابحاً في الفراغ، وفي متاهات الوهم– أو ضلالات الأحكام العامّة التي ليس عليها أيُّ دليل، وإلاّ .. فتَهبْ العلماء في مجالات العلوم والمعارف كافّةً – توقفوا عن التأليف إنتظاراً لما تجود من المجامع – أما تنتهي إلى حياة علمية يائسة كبؤس المقلّدين؟

٦ – ويقول: أمّا الترخص في تصحيح بعض الأساليب والتعبيرات الشّائعة التي **أنكرها الأقدمون** أو التي لم تسجّلها المعاجم اللّغوية فينبغي أن تقرّر تخريجها لِجان وأن تعتمدها المجامع. ولا يكفي أن يُطلقها شخص واحد جُزافاً، ودون دليل كافٍ. ففي ذلك إنكار لدور اللّغويين، وخروج عن جادة الصّواب، ومُخالف للإجماع الذي يتطلّبه الحفاظ على لُغتنا العربيّة، لغة القرآن.

وأقول: لم يأتِ الكاتب بجديد، وإنما عاد عودة إلى بعض ما ذكره سابقاً فهو **كالعائد في الذي أفضاهُ**. ثم.. أنا لا أطلق ما أُصحّحه أو أخطّئه، دون أن يكون قائماً على دليلٍ كافٍ، ولا أُطلقه جُزافاً. فالجُزاف والتّجني والحَسَدُ الذي يأكل القلبَ الحسودَ عند الذي يُطلق أحكاماً كثيرة دون أن يدلّل على صحة واحد منها بمثال.

أما سألت نفسك، لو كنت ذا عقل يتّصف بـ"**العِلْمَوِيَّة**" – كيف أُطلقُ أحكاماً (على حَلِّ شعرها) كما يقول المثل المصري، من دون أن تُدلّل، ولو بدليل واحد؟.

ثم.. من قال لك: إن هناك إجماعاً في اللّغة أو في الفقه؟ إنَّ لِسان العرب مملوء بمُخالفات بعض اللّغويين بعضاً في ألفاظ كثيرة. بل إنه كان من أهداف مؤلف (القاموس المحيط) أن يُخَطّئ الجوهري فيقول: وَوَهِمَ الجوهريُّ – الجوهري صاحب مُعجم الصِّحاح.

ومثل ذلك في الفقه. فلم تكن في الإسلام قُرابةَ سبعة مذاهب فقهيّة إلاّ لأن الفُقهاء اختلفوا في كثير من الفروع وكلٌّ رأي يحترم، سواءٌ أَأَخَذ به جمهور كبير أم جمهور صغير، إذا كان قائماً على دليل وتعليل.

أمّا الخروج عن جادة الصواب فلم يمارسهُ إلا الذي لم يأتِ بمثل واحد يدعم به حُكماً من أحكامه الجُزافيّة. وعادةً ليس الهروب من التخصيص إلى التعميم يكون إلاّ لأن هذا الهُروبي لا يجد مادة خاصة فيما ينقدُهُ، تدعم أحكامه العامة. وعادةُ الأحكام العامّة، دون دليل هي طابع العامّة، وليس طابع الخاصّة.

أمّا الدعوة إلى الحفاظ على لُغتنا العربيّة.. لغة القرآن – فهذا ما أسعى أنا إليه من خلال مقالاتي اللّغوية التي أكتبها في جريدة الدستور. وليس من أحد يستطيع أن يُزايد عليّ في هذا الشأن. فأنا أهتم بالفصحى، لأنها لغة القرآن الكريم، إذا كان كثيرون يتعصبون إلى اللغة، بلا هدف نبيل.

وبعدُ: فلعلّك رأيت أخي القارىء أنّ هذا الكاتب تناقض في بعض أحكامه، وأرسلها جميعاً مُطلقةً، دون أن يلتمس ولو مثلاً واحداً على ما كان يَدَّعي. وهذه أسباب كافية لاعتبار ما كتبه دون مُستوى البحث العلمي الذي يَلْتمس الحق والعدل، والإنصاف. وإنما وراء ما كتب هوىً وحسدٌ. وكما قيل: (كل ذي نعمة محسود).

وبعد أيضاً: فقد أطرى مقالاتي اللّغوية التي أكتبها في الدستور عالم لغوي جليل هو أستاذنا الدكتور ناصر الدين الأسد، في أكثرَ من مُناسبة اْلتقينا فيها. وعالم جليل مثلُهُ لا يجامل في الحقّ، لأنه يعلم أن كلامه وثائق. وأن الناس سيستشهدُون به، فيذيعونه، وفي آخر لقاء قال لي: أهلاً باللّغوي الكبير. وهذا رضىً عن المنهج على الأقل، وعلى كثير من التفصيلات. أعاذنا الله تعالى من (عين) الحسود – الذي يرسل كلماته صَمّاءَ كالجُلمود.

والله تعالى المُستعان، وعليه التكلان.

الموضوع السابع

اللّغةُ العربيّةُ والمُعاصَرَةُ (العربيّةُ أدقُّ اللُّغات بياناً)(*)

في برنامج (الديوان) الذي يُشرف عليه الأستاذ الشاعر حيدر محمود ويُبَثُّ من التلفاز الأردني – كانت حلْقة مساء الإثنين ١٨- ٤- ٢٠٠٥م، عن اللّغة العربيّة الفَصيحة ومستقبلها، وبُثّت من بيروت – عاصمة الثقافة.

وإني أريد أن أسجّل الملاحظات الأربع التالية حول هذه الحلقة:-

١ – **قال أحد المشتركين،** مُقارناً بين اللّغة العربيّة واللُّغات الأجنبية:

إن اللّغة العربيّة لُغة فيها القدرة على التعبير عن مشاعر الإنسان وأحاسيسه، أي: فيها القُدرة على التّعبير عن الجانب الإنساني في الإنسان. وليس كذلك اللُّغات الأجنبية؛ فهي لغات تعبر عن الجانب المادي في الحياة، وحده.

أقول: إن كلّ اللُّغات الغنيّة المتحضّرة.. تُعبّر عن الجانب المادي في الحياة، وعن الجانب الإنساني في الإنسان على "تفاوت". لأن اللّغة هي تَرجُمان واقع الحياة، بجانبيها الماديّ والإنساني. وليس من لغة لا تكون كذلك. وهذا.. ينطبق حتى على اللُّغات غير الحضارية، وليس على اللُّغات الحضارية، وحْدَها . لأن اللغة، وإن كانت ألف لفظة، ليس أكثر ، تعبّر، ولو بدرجة ضئيلة عن فكر الإنسان، ومشاعره. بل اللغة تبدأ– إنسانية– لأن الإنسان يبدأ يعبر عن اندهاشه بموجودات الحياة، فكلّ شيء يراهُ يستثير استغرابه واندهاشه، فيبدأ يعبر عن (مشاعره) بالحركة والصوت (كالصرخة، والآهِ، وما شابَهَ ذلك، ثم ينتقل إلى التعبير بالصوت المرك (أي – بالكلمة القصيرة ذات الدلالة)– ومع التطور تتكوّن لديه كلمات تعبر عن مشاعره، ثم يترقى، فتزداد الكلمات،بحيث تعبر عن مشاعره، وتعبر عن فكره– تعبيراً– ما . وهكذا .. فكل لغة تبدأ إنسانية (بمعنى أنها تعبر عن طبيعة الإنسان) أي – كل لغة تبدأ لغة (شعورية) أو شاعرية. فأين التدبّر لتطور الإنسان ولغته عند هذا الأستاذ المحاوِر؟ إن التعصب الذي لا دليل عليه.. قادَهُ إلى هذا).

(*) كتبت سنة – ٢٠٠٥م.

بَيْدَ أن اللّغة العربيّة.. لها فَضْلُ بيان على اللُّغات الأخرى. أما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠٣]. (الآية جاءت ردّاً على الذين يتّهمون الرّسول الأعظم بأن ما يأتي به من قرآن إنما يعلمه إيّاه بشر، وهو غلام أعجميّ كان قيناً!). لاحظ أن الله تعالى لم يصف اللّسان الأعجميّ بالإبانة، وإنما قصر الوصف بالإبانة على اللسان العربي. ولو كان اللّسانان مُتساويين لجاء الكلام: ﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ ﴾ ليس أكثر.

والتدليل على أن اللّسان العربي فيه فضل بيان على أيّ لسان أعجميّ يطول، ويكتب فيه مُجلّد. ولكنني أكتفي بأن أذكر ناحيتين، وأن أمثّل على كلٍّ منهما:

أ – **اللّغة العربيّة لغة "الاشتقاق"** ولا تُزاحمها في هذا لغة أخرى. فأنت يمكن أن تشتقّ عِشرين كلمة من مادة "كَتَبَ" مثلاً، ولكنك لا تستطيع أن تشتقّ من مادة (write) الإنجليزيّة إلا كلمات قليلة. لاحظ أنك تشتق من "كَتَبَ" مكتباً. ولكن مقابلها في الإنجليزيّة لا يأتي من مادة (write)، وإنما هي (office). وتشتق من "كَتَبَ" .. مكتبة، ومن الإنجليزيّة شيء آخر فهي (library)، ثم (كِتاب)، وهي في الإنجليزية من مادة أخرى (book). وهكذا.. عشرات الكلمات وقد ورد مثلُ هذا القول – سابقاً.

وقيمة الاشتقاق أنه يمكنك من أن تعبّر عن أدقّ الخلجات الوجدانيّة، مما لا يكون في اللُّغات غير الاشتقاقية، أو التي يقلّ فيها الاشتقاق كالإنجليزيّة، مثلاً.. قال **الإمام علي ابن أبي طالب: (حتى قالت قريش: إنّ ابن أبي طالب شُجاع، ولكن لا عِلمَ له بالحرب. لله أبوهم. وهل أحدٌ منهم أشدُّ لها مِراساً مِنّي؟ لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين، وها أنا ذا قد "ذَرَّفت" على الستين. ولكن، لا رأيَ لمن لا يُطاع!)**. فالفعل "ذَرَّفَ" المشدّد الرّاء لا نجد نظيراً له يؤدي معناه بالتّمام بالإنجليزيّة. وما ذاك إلا بسبب الاشتقاق، أي: **بسبب الاشتقاق بالحركة**، عن طريق نقل حركة الراء من الفتحة إلى الشدّة المفتوحة. فلو قال: بلغتُ الستين، أو كدت أُنهي الستين.. الخ لما كان لذلك من

الإشعار بما يحُسّه المرء الذي يكاد ينهي العام الستين من عمره بأنه حنكته التجارب التي تمخّضت عنها هذه السُّنون الستون.

وجمال هذا الاشتقاق – بتشديد الحركة في هذه الكلمة – إنما يأتي من وجهين: **الأول** – أن الإمام نقل المعنى نقلاً **مجازياً** من (ذَرَّفَ الدمع) إلى مجال سنوات العمر. فكما أن العين تُرسل الدمع قطرة قطرة، فسنوات العمر تمرّ (أو تقطر كالدّمع) واحدة بعد أخرى. **والثاني** – أن (ذَرَفَت العين الدمع) بلا تشديد الرّاء، لا يماثل (ذَرَّفَت العين الدمع) بتشديد الرّاء. لأن الأول (**فعل**) عاديّ، أمّا الثاني ففعل **يدلّ على (المُبالغة)** أي: **على شدّة التألُم والحُزن**، بحيث يكاد الدمع ينصَبّ انصباباً.

والإمام إذ استعمل الفعل المُشدّد (ذَرَّفَت) إنما كان يحسّ أن الموقف يستدعي التأكيد بأنه ذو تجربة طويلة في الحرب يجب ألاّ يغمطه حقه فيها أحد.

٢ – **مرونة العربيّة في التقديم والتأخير – وجُمود التركيب في الإنجليزيّة.**

إن الإعراب، في العربيّة، يساعد على المرونة في التعبير، بحيث يقدّم المتكلّم ويؤخّر تبعاً لجزيئات المعنى، أعني أن المكلم يرتّب الكلمات في التعبير، تبعاً لترتيب جُزيئات المعنى في النّفس، **فالألفاظ**.. خدمُ المعاني، كما يقول الإمام عبد القاهر الجرجانيّ. وهذه المرونة في ترتيب الكلمات أمثل صورة تعبيرية عن المعنى. أمّا الإنجليزيّة.. فالتعبير فيها – كقاعدة عامة – جامد وقد ورد مثل هذا الطرح، في مواطن متفرقة من هذا الكتاب.

مثلاً.. المتنبي – الشاعر العظيم قال، عندما فارق سيف الدولة، بعد غضب سيف الدولة عليه، من قصيدة رائعة، يشكو فيها، ويمدح كافوراً الإخشيدي – حاكم مصر – قال:

.. فما ينفعُ الأُسْدَ الحياءُ من الطَّوى ... ولا تُتّقى حتى تكون ضواريا

ونحن – للاختصار – نتناول الشطرة الأولى وحدها؛ لاحظ أنّ المتنبي قدّم المفعول (**الأُسْدَ**) على الفاعل (**الحياءُ**). لماذا؟ لأن الذي كان يُحزن المتنبي ويملأ نفسه شجناً في ذلك الحال.. **افتقاره "للقوّة"**، إذ لو كان قوياً لما تسلّل هارباً من حِمى سيف الدولة؛ بل لناجزه.. ولا ريب أن الأُسْدَ رمز للقوة، ولهذا.. عندما بدأ بنظم هذا البيت قفز إلى شُعوره رمزُ القوة- القوة التي يفتقدها – فجاء ترتيبه النفسي (ترتيب هذا الرمز) قبل الفاعل

(الحياء). ولهذا.. جاء نظم الشطرة على تقديم المفعول قبل الفاعل. وأدقّ الكلام تعبيراً ما كان ترتيبه في الاستعمال كترتيبه في النفس، أي- كترتيبه في الوجدان.

بيدَ أنّ الشاعر الإنجليزي، لو كان في مثل حالة المتنبّي لا يستطيع أن يَفْريَ فَرْيَهُ، بسبب جُمود قوالب الإنجليزيّة. الشاعر الإنجليزي لا يملك إلا أن يقول في هذا المعنى:

(The Shamefulness does not benefit the lion from hungry).

لأن الفاعل (الذي يأتي مُبتدءاً في الإنجليزيّة) لا يمكن تأخيره بعد المفعول. ولا ريب أن هذا الوضع الجامد لا يُساعد الشاعر (أو المتكلّم بشكل عام) أن يُفضي بكل ما في نفسه، حَسَبَ ترتيب جُزْئيَّاته فيها. وهذا.. قُصور في الإنجليزيّة لا تُعاني منه العربيّة. وهذا.. من الأسباب التي تجعل العربيّة أدق بياناً من الإنجليزيّة، وسوى الإنجليزيّة من اللُّغات.

٣ – **وقال مُشترك آخر في النّدوة:** اللُّغات الأخرى لا تجد كلمات دقيقة لترجمة القرآن الكريم.

وأقول: بديهيّ أن القرآن لا يمكن ترجمتُه، لأنه مُعجز في بيانه (وفي جوانب أخرى كثيرة)، وإنما تترجم مَعانيه، كما يفهمها البشر.

ولكن حتى ما هو دون القرآن – وهو الأدب، والأدب في أعلاه – (كثافةً فنيةً) الشعرُ– لا يمكن ترجمته على نفس مستواه البلاغي، سواءٌ من العربيّة إلى غيرها من اللُّغات، أم من اللُّغات الأخرى إلى العربيّة. وقديماً قال **الجاحظ العظيم: الشعر.. لا يمكن ترجمته (من العربيّة إلى غيرها، ومن غيرها إليها)**. لأن الشعر بالدّرجة الأولى، والأدب الرَّفيع بالدرجة الثانية.. هو تعبير عن حالة وجدانية خاصّة، ويستحيل أن يجد المُترجم نفسه في مثل تلك الحالة الخاصّة، لكي يأتيَ تعبيره الفنيّ على مستوى التعبير الفني الذي "**فاض**" به وِجدان المُبْدِعِ الأوّلِ. إذن.. **السبب الأول ليس عدم وجود كلمات دقيقة (مع أن ذلك يكون أحياناً)، وإنما هو عدم تطابق حالة المترجم الوجدانية مع حالة المبدع الوجدانية.**

ولهذا.. فأنت ترى أن الموادّ "**العلمية**" و"**الفكرية**" يمكن ترجمتها، لأن العلم واضح، ولا علاقة له بالوجدان (بالعواطف والمشاعر والأحاسيس)، وكذلك الفكر. وحتى عندما تأتي بعضُ الألفاظ المعبِّرِ عنها في لغة، وليس لها مقابل في اللّغة المترجَم لها..

فإن الإتيان بألفاظ مقاربة أو بكلمتين بَدَلَ كلمةٍ حتى يُستوفى المعنى ... أمر ممكن. ولأن العلم والعقل لا علاقة لهما بتعرّجات الوجدان فإنه من المعلوم أن بَسْطَ قضايا العلم لا يحتاج إلى أكثر من عشرين ألفَ كلمة، أما الأدب (والشعر الخاصة) فلكي يتمكن الأديب من التعبير عن خلجات النفس وتعرّجات الوجدان.. فإنه يحتاج إلى أن يكون رصيده من الكلمات لا يقلّ عن ثلاثين ألف كلمة. أمّا القرآنُ .. فما أبعدَ أيَّ لغة عظيمة من الاقتراب، من بلاغته! فكيف يترجم القرآن، وقد نزل على طريقة ضمّ خاصة؟ وكيف يترجم جلاله، وبهاؤه، وإشعاعات معانيه، والدقة الكاملة في تلاحم اللفظ والمعنى، وتعدد طبقات المعاني والإشعاعات فيه ... إلخ..؟

٤ – **أمّا قول أحدهم بأن الإنسان، في كل العصور يعيش حضارة واحدة متعددة الحلقات. ولكن الثقافات متعددة.. فأقول: ذلك غير دقيق.**

بل الإنسان عاش حضارات متعدِّدة، وثقافات مُتعددة، عَبْرَ التاريخ؛ لأن الحضارة لا تقوم بدون "فكر". والفكر مختلف من أمة إلى أمة، ومن حِقبة تاريخية إلى حِقبة أخرى. وإلاّ.. فهل الفكر اليوناني القائم على الإلحاد وتعدد الآلهة (الذين هم في وَعْي اليونان ذوو صفات بشرية وأخرى فوق الصفات البشرية).. **مثيل للفكر المسيحي القائم على عقيدة دينية، أو مثيل للفكر الإسلامي القائم على توحيد الله تعالى وتنزيهه عن الصفات البشرية؟ طبعاً.. لا.**

وكل فكر.. تتولد عنه حضارته، وتتولد عنه ثقافته، كما يتولد الشُّعاع عن الشَّمس، والنبات عن المطر، وحتى "العِلْم" فله ارتباط بالحضارة، وإن كان العلم يمكن أن ينتقل من حضارة لأخرى، دون عقبات كبيرة. ولا يمكن أن تخالف الثقافةُ.. الفِكرَ، لان الثقافة هي تَحَوُّرٌ وجدانّي للفكر، من خلال الأدب، ومن خلال القيم، وأنواع السلوك الخاصّ.

أما الملامح المشتركة بين حضارة وحضارة.. فهي لا تعدو كونها تعبيراً عن القاسم المُشترك في جُزْئيّات الفكر وتلَوُّنات الوجدان بين الإنسان وأخيه الإنسان. أما ترى أن الشيوعية التي هي نقيض الإسلام.. تدعو، في الجانب الاقتصادي، إلى أن يُوزّع المال على الجميع بحيث لا يبقى جائع – كما يدعو لذلك الإسلام؟ وهذا.. ما "تَلَبّس" على عالِم إسلامي مُعاصر بحيث كتب كُتاباً في الاقتصاد سمّاهُ **(اشتراكية الإسلام)**، ذلك..

للتشابُهِ الشكلي بين الدعوتين في الجانب الاقتصادي. أو – لتشابُهِ جزئيّات الفكر. مع أن الفرق، في جوهره، بعيد جداً بينهما؛ فالإسلام يعتبر هذا التوزيع "العادل" للثّروة عِبادة يُثاب عليها المسؤولون الذين يُقيمونها بين الناس – ثواباً من الله تعالى قد يُرجِّح كفّة حسناتهم يوم القيامة، فيدخلون الجنة، ومثل المسؤولين الأفراد الذين يُنفقون من أموالهم في وجوه الخير.

أما الشيوعية.. فلا عَلاقة لنظرتها للاقتصاد بثواب أو عقاب، لأن الشيوعية من حيث المبدأ ليست عقيدة دينية تؤمن بالآخرة، وبالحساب والعقاب.

ولديّ مُلاحظات أخرى. ولكنني أكتفي بهذه المُلاحظات الأربع السّابقة، حتى لا تكون الإطالة.. مانعةً من النشر، ومملةً للقارىء الكريم. والله تعالى يهدي إلى الحق والرفق.

الخاتِمَةُ

– لقد جعلنا هذا الكتاب مقصوراً على "*فقه اللّغة*" تحت عنوان (*العربيةُ الفُصحى) – مُرونتُها وعقلانيّتُها وأسبابُ خلودها*. فحللّنا فيه ألفاظاً وأقوالاً فعلّنا خلالها قوانين نُموّ اللّغة وتطوّرها، ليكون ذلك مثالاً لمن يريد أن ينظر في الألفاظ.. فَيَقْبَلَ ما يتماشى - من اشتقاقات جديدة، ومن معانٍ جديدة – مع قوانين اللّغة، ويُخطِّئ ما يَجدُهُ لا يتماشى مع هذه القوانين.

وقد كانت بعض الرُّدود تصويباً لآراءٍ في اللّغة أُطلِقت، دون تَمعُّنٍ. ومن تصويب ذلك.. قولُنا: إن اللّغة التي يحتاجها توضيحُ أصول الدين.. قليلة، كالعقيدة والعبادة، مما يجعل اللّغة المؤلفة من عَشَرَةِ آلاف كلمة تفي بذلك. وأن اللُّغات تتفاوت في ثرائها بالألفاظ وقدرتها على توضيح المعاني. وأن اللّغة العربيّة أعظم لغة لقوله تعالى: ﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل: ١٠٣]. فالإبانة وُصِفَ بها هذا اللّسان العربيّ وَحْدَهُ. نَعَمْ، – أعظمُ لغة– لقوله تعالى السّابق الذي هو جُمّاعٌ لأسباب أُخرى كثيرة تتصف بها اللّغة العربيّة، وتتفوّق فيها على غيرها.. لا مجالَ لذكرها هنا، وقد ذكرنا بعضها خلال هذا الكتاب.

– ولُبُّ دعوانا: هي أنْ رَبِّ زدني علماً، واجعل ما نقولُهُ وما نفعَلُهُ في ميزان حسناتنا يوم القيامة، واغفر لنا سيِّئاتنا، وتُبْ علينا، إنّك أنت التّواب الرّحيم. وآخرُ دعوانا أنْ الحمد للهِ ربِّ العالمين والصلاة والسلام على سيّد الأنبياء والمرسلين.

أنتهى الكتاب – والحمدُ والفضلُ بما جادَ بهِ القلمُ –
لله تعالى الذي علّم بالقلم.

المصادر

١- القرآن الكريم.

٢- كتب الحديث النبويّ الشريف

المراجع

١ – إحسان عباس – تاريخ النقد الأدبي عند العرب (نقد الشعر من القرن الثاني حتى الثامن) – عمّان – دار الشروق للنشر والتوزيع – ١٩٨٦.

٢ – الأعشى: قيس ابن ميمون (ت- ٦هـ) – الديوان – بيروت/ دار الكتاب اللبناني د.ت – تحقيق: كامل سليمان.

٣ – الآمدي: الحسن ابن بشْر (ت- ٣٧٠) الموازنة بين الطائيين – القاهرة/ مطبعة السعادة – ١٩٥٩م.

٤ – امرُؤ القيس: ابنُ حُجْرِ الكندي (ت – ١٢٣ق.هـ) – الديوان – القاهرة/ مطبعة الاستقامة – جمع حسن السندوبي.

٥ – الباقلاني: محمد ابن الطيب – (ت- ٣٣٨) – إعجاز القرآن – القاهرة/ المكتبة السلفيّة – ١٣٤٩هـ.

٦ – البُحتري: الوليد ابن عبيد (ت – ٢٨٤) – الديوان: القاهرة/ دار المعارف ١٩٧٢ – تحقيق حسن كامل الصيرفي.

٧ – الجاحظ: عَمْرُ ابنُ بحر (ت- ٢٥٥) – الحيوان: بيروت/ دار الجيل: ١٩٨٨م – تحقيق عبد السلام محمد هارون.

٨ – الجُرجاني: عبد القاهر ابن عبد الرحمن ابن محمد (ت- ٤٧٤): دلائل الإعجاز – القاهرة/ مكتبة الخانجي – ١٩٨٤ – تحقيق: محمود محمد شاكر.

٩ – الحُطيئة: جَرْوَلُ ابن أوْس (ت- ٥٩) – الديوان: القاهرة/ مطبعة التقدم: شرح أبي سعيد السكّري.

١٠ – ابن رشيق: الحسن ابن رَشيق القيرواني (ت- ٤٥٦): العُمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده – القاهرة – ١٩٠٧.

١١ – ابن الرومي: علي ابن العبّاس (ت- ٢٨٣) – الديوان – بيروت/ دار إحياء التراث العربي – ١٩١٧ / شرح: محمد شريف سليم.

١٢ – الشَّنفَرَى: ثابت ابن أوس الأزدي (ت- ١١٣ ق.هـ) – القصيدة – لاميّةُ العرب – بيروت/ دار مكتبة الحياة – ١٩٨٥م.
١٣ – شوقي ضيف – الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية/ الكتاب الثاني – القاهرة/ دار المعارف – ط٤.
١٤ – ابن طباطبا: محمد ابن أحمد العلوي (ت- ٣٢٢) – عيار الشعر/ القاهرة – ١٩٥٦ – تحقيق: الحاجري وزغلول سلام.
١٥ – طه حسين (ت- ١٩٧٤) في الشعر الجاهلي: القاهرة/ دار الكتاب المصري – ١٩٢٦م.
١٦ – أبو الطيب المتنبي: أحمد ابن الحسين (ت- ٣٥٤) – الديوان: القاهرة – ١٩٤٤ – تحقيق عبد الرحمن عزام.
١٧ – عبد العزيز عتيق – تاريخ النقد الأدبي عند العرب – بيروت/ دار النهضة العربيّة – ١٩٨٠.
١٨ – العقاد: عبّاس محمود العقاد (ت- ١٩٦٢) – عبقرية عُمر (من العبقريات الإسلامية) – بيروت/ دار الآداب- ١٩٦٦.
١٩ – عُمر ابن أبي ربيعة (ت- ٩٣هـ) – الديوان – بيروت: دار الكتاب العربي – ١٩٩٦ – شرح فايز محمد.
٢٠ – عُمر فروّخ – تاريخ الأدب العربي: بيروت/ دار العلم – ١٩٩٢.
٢١ – عنترة ابن شداد العبسي (ت- ٢٨ ق.هـ) – شرح الديوان: بيروت/ دار الكتاب العربي: ١٩٩٤ – شرح الخطيب التبريزي.
٢٢ – عودة الله منيع القيسي – مقالات في النقد الأدبي التطبيقي: عمان/ دار البشير – ١٩٩٨.
٢٣ – أبو الفرج الأصفهاني: علي ابن الحسين (ت- ٣٥٦) – الأغاني/ بيروت – دار الفكر – دار مكتبة الحياة – ١٩٥٦م.
٢٤ – القزويني: الخطيب: جلال الدين: عُمر ابن محمد (ت- ٧٤٥) الإيضاح في علوم البلاغة والمعاني والبيان والبديع – بيروت/ دار الكتب العلمية – ١٩٨٥.
٢٥ – كعب ابن زهير (تت- ٤٦٠) – الديوان – القاهرة – الدار القومية للطباعة والنشر – ١٩٥٠ – صنعه أبو سعيد السكري – الحسن ابن الحسين ابن عبد الله.
٢٦ – محمد ابن سلام الجمحي (ت- ٢٣٢) – طبقات فُحول الشعراء: القاهرة/ دار المعارف. د.ت – تحقيق محمود محمد شاكر.
٢٧ – ناصر الدين الأسد – مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية – بيروت/ دار الجيل – ١٩٨٨م.
٢٨ – النَّسائي: أحمد ابن شعيب (ت- ٣٠٣) – السنن – حلب/ مكتبة المطبوعات الإسلامية – ١٩٨٦.
٢٩ – ابن هشام: عبد الله ابن يوسف (ت- ٧٦١) – مغني اللبيب عن كتب الأعاريب/ القاهرة – د.ت – تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد.

انتهت المراجع – والحمد لله

الفهرس لكتاب اللغة العربية الفصحى

– مُرونتها – وعقلانيتها– وأسباب خلودها

٢١ – الله تعالى كانت قدرته كفيلة بجَعْلِ العربيّة الفُصحى تُخالف أخواتها. ولكن الإسلام لا يَقوم على "الطَّفرة".	٨٩
٢٢ – من خصائص الفُصحى، وأنها إلهامية أنها مفهومة في جميع العُصور، وستبقى.	٨٩
٢٣ – لُغات البشر الأخرى مُتنقلة، لأن فكر البشر متنقل، ويمكن نقله من لغة إلى أخرى.	٩٠
٢٤ – حقائق الدين ثابتة، فهي تحتاج إلى لغة ثابتة.	٩١
٢٥ – ثبات اللّغة الفُصحى.. يعني ثبات قوانينها، ولكن تطوّرها، يتم حَسَبَ قوانينها.	٩١
٢٦ – الدكتور حِجازي يَبسط رأي المُستشرقين، ولا رأيَ له، شأن معظم علماء العرب، في اللّغة والنحو، وفي كلّ مجال الذين يقلدون الغَرْب.	٩١
٢٧ – لماذا لم تكن الأكّادية، وهي الأقدم، هي الأثبت أصواتاً لأنها مكتوبة؟	٩٢
٢٨ – من أكبر الأدلّة تلك التي أوردناها في (التمهيد) أنّ السّاميّة.. خُرافة، لا دليل عليها.	٩٣
٢٩ – كون النبطية.. فيها بعض ألفاظ من الفُصحى لا يعني أن الفُصحى هي الأقدم، بل العكس هو الصحيح.	٩٤
٣٠ – كِتاب.. يَدّعي أن الإنجليزيّة مأخوذة من العربيّة. وهذا ادعاء باطل.	٩٥
٣١ – التّشابه بين لغتين في منطقة جغرافية واحدة.. شيء طبيعي، ولا يعني اشتقاق إحداهما الأخرى.	٩٦
٣٢ – حجازي يتابع – بغفلة – ما يقال من أن الفُصحى أقدم بكثير من الشعر الجاهلي – وإلاّ.. فأين الشعر السّابق عليه، من شعر الجاهلية الأولى، مثلاً؟	٩٦
٣٣ – ومن العمى البَيِّن أن يُدّعى أن أقدم النُّقوش الثمودية يؤرّخ بالقرن الخامس، قبل الميلاد، وأحدثها بالقرن الرابع الميلادي.	٩٦
٣٤ – وإلاّ.. فأين الجنّات والعُيون التي يذكرها القرآن، لثمود؟	٩٦
٣٥ – النّاقد ابن سلام الجمحي يُنكر على ابن إسحاق ذكر شعر لعاد، وثمود.	٩٦
٣٦ – العربُ في الشّمال.. نسوا لغتهم، ولم ينسوا أسماء قبائلهم، بإرادة الله تعالى.	٩٧
٣٧ – العرب.. كانوا يفدون إلى مكة المكرّمة، ويتفاهمون بالفُصحى أي – بلغة واحدة.	٩٨
٣٨ – النّتيجة.. كل ما سبق يدحض وجود أبو "سامي"، ولغة ساميّة "أُمّ" للغات الجزيرة والهلال الخصيب.	٩٨
٣٩ – الفصحى .. إلهام وتوقيف، ولم تنشأ بالتواضع:..(٣)	٩٨
٤٠– لو تُرجم القرآن إلى عربية متحوّلة (لو كانت العربية تتحول) لكان –بالترجمة– كلاماً بشرياً، لا قرآناً.	٩٨
٤١– عدم الاختلاف في بعض أصوات لغات المنطقة العربية لا يعني أنها من أمّ واحدة.	٩٨
٤٢– الاختلاف في أداة التعريف بين هذه اللغات.. دليل على أنها ليست من أمّ واحدة.	٩٩
٤٣– الأصل الثلاثي للكلمات.. موجود في كل لغات الدنيا	١٠٠

٤٤- أقدم النقوش الثمودية.. ليس يؤرخ بالقرن الخامس قبل الميلاد. بل هو قبل الميلاد. بخمسةَ عَشَرَ قرناً.	١٠٠
٤٥- كون اللغات الصفوية والثمودية واللحياتية.. فيها أسماءٌ باللغة العربية.. لا يعني أن الفصحى من أمٍّ سامية. بل - ذلك يرجع إلى أن الأسماء لا تتغير صورها- إلا قليلاً - ولو بين لغتين متباعدتين - ومن بيئتين مختلفتين.	١٠١
٤٦- اللهجات السبع التي جمعت منها اللغة العربية - أصلها لغة واحدة.. نشأت بعض الفروق، في الصوت بيها، لاختلاف البيئات.	١٠٢
٤٧- حجازي.. يبرّر- تبريراً- اختلاف أدوات الترعيفن في لغات المنطقة.	١٠٣
٤٨- العرب يقدسون ما يأتيهم من الغرب	١٠٣
٤٩- واختلاف الضمائر كاختلاف أداة التعريف - من الأدلة على أن هذه اللغات ليست من - أمّ- واحدة.	١٠٣
القسم الثالث ***- التعرّف على عبقرية اللّغة العربيّة الفُصحى/ من خلال الاشتقاق وتوليد المعاني.**	١٠٥
٥٠ - عبقرية اللّغة العربيّة - الفعل فَرَجَ: العربيّة لغة العقلاء/ الأديب يأتي باشتقاقات لم ترد في المعاجم/ الفَرَج/ فُروج الأرض/ الفُرجَة/ التفاريج/ الفَرْجة/. غُرَفاً - الغُرُفات/. المؤمنون المتطهّرون قلة/ الفَرْجة/ الفرَج/ لكل الكلمات السابقة معنى مركزي/ أَذِن له/ المأذون/ قوس قَزَح/ وفارج وفَريج/ أبناء يعقوب.. تخيّلوا القرية عاقلة/ فَرْجة/ فارجاً/ رجل فريج وامرأة فريج/ المُفرَج/ المُفرِج/ فَرّوج/ المنفرِجة/ المتفرِّج/.	١٠٧
٤٠ - كلمة (سَرَّ أو - سَرَرَ-): سرر تعني الاختفاء وتعني الظهور / تساروا/ استسرّ الهلال/ السِّرُّ/ السُّرِّيّة/ السَّرِيّة/ السرُّ/ السرير/ تسرَّرَ الثوب/ التضاد نوع من العلاقة/ الاشتقاق ركن أساسيّ في تطوير اللغة.	١١٧
٥١ - تحليل لغوي لكلمات ثلاث: لواقح/ العيشة المرْضيّة فيها معنى الفاعلية/ ناقة لاقح/ الرياح مُلقِحات شَمّت/ الشوامت/ السّلب/ التمريض/ تشمّت بالعدوّ/ الشعراء كانوا يجعلون الحيوان ينجو - غالباً - من الصياد/ طائح/ المطوّحات/ لم يستعمل العرب إلا الطوائح/ طائحة/ المعاجم لم تحوِ كل المشتقات/.	١٢٢ ١٢٢ ١٢٣ ١٢٥
٥٢ - مادة الفعل (عَنَدَ) بحثها لغوياً. المشتقات من مادة لغوية واحدة ترجع إلى أصل لغوي واحد/ اللّفظة تتطور معانيها/ رجل عنيد: عاند/ صيغة المبالغة: قتّال/ العنود والعنيد/ الزكاة / والحاجب/ عنود ليست بمعنى عنيد/ تعاند الخصمان/ العاند/ عَنَدتِ الطعنة/ عاند فلان فلاناً/ فَتْفَتَ/ زُرْقُم/ خَرْفنَ/ سَرْجَنَ/ لا يحوّل كل فعل ثلاثي إلى فعل رُباعي/ نَخطاً/ خَالَفَ/ لم تنمُ اللّغة نُمواً	١٢٨ ١٢٨

كافياً/ تطور اللّغة سرّ عجيب/.	
٥٢ – المُقلة وتطوّرها اللغوي. لا يجوز الاشتقاق إلا من المصدر – عند البصريين/ الكوفيّون يرون أن الاشتقاق من الفعل/ اللّغة لم تؤيّد كِلا الرأيين/ الفعل – مَقَلَ – / تَمَقَّلَ/ اللغة تشبق من كل مادة	١٣٩
٥٤ – تحقيق لفظ كلمة: (أَبْيَنُها) الأوراي/ أبيَنُها/ يَمَشّى/ يُمَشّيَّ/ تَشَقّقُ/ حذف التاء في كلام البشر جائز، وفي كلام الله واجب/ الفرق بين – تَشَقّقُ وتتشقّقُ – /.	١٤١
٥٥ – القسم الرابع *** – العربيّة والتعريب – والنظر المعاصر فيها**	١٤٥
نظرات في اللّغة: لم ندرس كتاب سيبَوْيهِ، في المراحل الجامعية كلها: تجاوَزَ الكُتّابُ بعض قضايا سيبويه/ كيف ننسب إلى (اثني عَشَرَ؟)/ هذا شاة/ وهذه شاة/ ثلاثة أنفس/ يعامل المذكر معاملة المؤنث إذا تضمّن معناه/ حَلٌّ إشكال لغوي/ التوسعة في اللّغة/ ثلاثة موضوعات وهل يصح ثلاث موضوعات؟/ مادة (عَيَنَ) مادة (بعض)/ يمكن (بعض و – البغض –).	١٤٥
٥٦ – اللّغة العربيّة والتعريب: اللّغة أم التفكير/ اجتازت اللّغة امتحاناً صعباً في العصر العباسي/ تَوَسُّعُ الكوفيين في القياس/ النّسبة إلى – شَنُوءَة – / فَعولة – ينسب إليها على – فَعوليّ – / ربيعة رَبَعيّ. ولكن طبيعة طبيعيّ/ وَقْفُ القياس على الأغلب خطأ/ المحسوس يسبق المعنوي/ مراحل التطور/ اللّهجات تنشأ عن لغة أمّ/ ليس صحيحاً أن ليست هناك لُغة أفضل من لُغة/ لغات الأنبياء ليست فقيرة/ الدين.. تعبر عن مفرداته لغة متوسطة الثروة اللغوية/ تساوي البشر في القيمة لا يدل على تساوي لغاتهم/ كلام ابن حزم عن اللُّغات غير دقيق/ حروف الهجاء ليست متساوية في اللُّغات/ التفاضُل يرجع إلى التركيب/ الفرق بين جَرْسِ الكلمات/ أصوات الحروف قليلة القيمة وهي مفرقة/ اللّغة اليونانية ذات إمكانيات كبيرة/ فندريس يرى هوة بين الحرف والصوت في الفرنسية والإنجليزية/ العربيّة متفوقة/ في: الإملاء – الاشتقاق – الميزان الصرفي – أوزان العربيّة أكثر انضباطاً من أوزان الإنجليزية/ الاشتقاق في العربيّة أجود منه في الإنجليزيّة/ اللُّغات تتفاوت.	١٥٣ ١٥٩
٥٧ – العربية والتعريب في العصر الحاضر:-	١٥٩
٥٨ – الأساليب المشرقة تتفاوت / نظراً لما نعول عليه/ اللغة ليست أداة – للتعبير – فحسْبُ/ **اللغة مِطواع/ اللغات تتفاضل/ العربية لغة الاشتقاق/ الإنجليزية غير قادرة على مجارات** **العربية.. أمثلة: الفعل (كتب) في العربية والإنجليزية/ مثال آخر هو جملة.** العربية ذات مرونة في التعبير عالية/ مثال مكون من جملة. - **مستخدمة الوسائل نفسها/ بذرائع شتى/ عملية دؤوب/** - **طالما – في موقعها غير صحيحة/ سوف لا – يستدّ مسدّها (لن)/**	١٦٧ ١٦٨ ١٦٩ ١٧٠ ١٧٢

والحمد لله رب العالمين. وصلى الله على رسوله الأمين– سيِّدِ الأوَّلين والآخِرِينَ.

وبالله التوفيق، ومنه استقامة الطريق.

ISBN 9957-452-38-4
9789957452384

دار البداية

ناشرون وموزعون

دار البداية ناشرون وموزعون
عمّان - شارع الملك حسين - مجمع الفحيص التجاري
هاتف: ٩٦٢٦٤٦٤٠٦٧٩+ تلفاكس: ٩٦٢٦٤٦٤٠٥٩٧+
ص.ب ٥١٠٣٣٦ عمان ١١١٥١ الأردن
Info.daralbedayah@yahoo.com
www.daralbedayah.com